
מרדכי
رواية
مَارْدِخَاي
نورا حسين
دار البشير

ماردخاي

نورا حسين

***

الطبعة الأولى :١٤٤١ هـ / ٢٠٢٠ م
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقــم الإيـــداع: ٢٨٠٢٣ / ٢٠١٩



التوزيع

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

***

مقدّمةٌ وإهداء

أهدي هذا العمل- الذي يعدّ ثاني أعمالي الرّوائية الطويلة- لصغيري *يوسف*، النّسمة التي أنعشتْ حرَّ قلبى القائظ، مع كلّ ضحكةٍ من ضحكاتِك يا صغيري تضمّد جرحًا غائرًا ممّا خلّفته متاعبُ الحياة ومآسيها..

ولزوجي العزيز، مُعيني الرّئيس على تخطّي المِحَن والصّعوبات...

ولأمّي الغالية كلّ الشكر والتقدير.

****

(أحداث الرّواية مُستوحاة من قصّة حقيقيّة لم تخلُ من تدخّل خيالِ الكاتبة في بعض التّفاصيل)

****

صيف ١٩٩٣حيّ الهرم..

أرخى اللّيلُ ستائرَه الأدْهمية فوقَ جبين سماء صيفيّة في ليلة استثنائية، ليلة تشهدُ واحدًا من خسوفاتِ القمر الكليّة، انقسمَ النّاس إلى فريقين: فريق آثر أن يغطّ في نومه غير عابئ بالأمر، وهو السّواد الأعظم؛ وفريق تسابق إلى المساجدِ لتأدية صلاة الخسوف.. أخذوا يستغفرون ويذكُرون الله حتّى تَبُتَ الخسوف، فخطبَ فيهم الإمامُ بخطبةٍ مؤثّرة تُذكّرهم بقدرة الله- عزّ وجلّ- ثمّ شرعوا في تأدية الصلاة.

وما بين فريق النّائمين وفريق المُستغفرين كان هناك واحدٌ مِمّن ذهبوا في طريقٍ ثالث، لن يجرَّ عليه، وعلى مَن حوله، سوى الظلام.. ظلام النّفس والمصير، والشرّ المستطير.

انزوى *عادل* الرّجلُ الأربعينيّ في غرفةٍ صغيرة، ومظلمة، بشقّته المستأجرة ببنايةٍ صغيرة تترأسُ شارع الأشجار المتفرّع من شارع الهرم الرئيسي منذ عام، برفقة كتيّبات تشرح طريقة الإسقاط النّجمي، وتحضير الجنّ الخادم، والكيانات الشيطانية المغبونة.

عكفَ يقرأ خطواتِ عملية الإسقاط النّجمي، وكيف أنّها تُمكِّن الشخصَ من التحرّر من جسده المادي، وتحوّله إلى جسد أثيري يمكنه أنْ يطير ويسبح ويتجوّل في كلّ العوالم بلا حدود، ومقابلة مَن يريد متى يريد، وإيصال واستقبال الرّسائل منه وإليه.

قرأ في الكتاب أنّ هناك العديد من الطّرق التي يمكن أن يحدُث من خلالها الإسقاط النجمي، ووقع اختيارُه في النهاية على طريقة تسمّى الطاقة الجاذبة، وفيها يتخيّل الإنسان وجودَ ما يشبه ثقبًا أسود في جدار، هذا الثّقب لديه طاقة كبيرة جدًّا على جذبِ وسحب الأرواح، ويقوم الشخص بتغذية خياله حتّى تبدو له روحُه منجذبةً نحو هذا الثقب المضيء.

ثمّ يحاول الشخصُ مقاومةَ هذه الجاذبية حسب التّعليمات، ثمّ يبدأ في الاستسلام شيئًا فشيئًا، حتّى ينجحَ جسده الأثيريّ في التحرّر من جسده المادي، والمرور عبْر هذا الثقب إلى العالم الذي يريد.

ولكنّ العالم الذي أراده عادل لم يكنْ يخصّ عالم الأحياء، ولكنّه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وأرادَ اختراق عالم الموتى، وهو الأمرُ الذي يستحيلُ على كائن حيّ القيامُ به، فبين عالم الأحياء والأموات جسر سماويّ لا تستطيع الرّوح البشرية الحيةُ اختراقه إلّا إذا ماتت.

فسوّلت له نفسُه أن يوالي الجن، وقرأ في كتاب التّحضير أنّ هناك نفرًا من المَرَدة ذوي قدرة جبّارة على عبور العوالم الخفيّة وتحقيق المراد، وردّ الأرواح، وصار عبدًا طائعًا لهذا المارد الجبار، يفعل ما يأمرُه به من القيام

بطقوس وعبادات خاصّة له كي يمُنّ عليه بما يريد في النّهاية.

وفي أحدِ كتب الأساطير والتّحضير قرأ عادل أنّ ليلة الخسوف هي اللّيلة التي تُفتح فيها أبواب العوالم الخفيّة، وتنتقل منها- وإليها- الأرواح حتّى أرواح الموتى.

وفي تلك الليلة استلقى عادل على الأرض داخلَ دائرة خاصّة رسم حولها النقوش والطلاسم وأشعلَ الشّموع ذات الخواصّ السّحرية، كما وصف الكتاب، وبدأ في تنفيذ هذه الطقوس بعدما رسمَ مجموعة من الطلاسم على الجدار المقابل التي تمجّد هذا الكيان العظيم، أحد الكيانات القديمة المعروفُ عنها الكفرُ الشّديد والبطش الشديد، والذي مِن المفترض أنّه سيفتح له طاقة نافذة إلى العالم الآخر يصلُ من خلالها مباشرة إلى مبتغاه.

لم يكنْ يدري أنّه على موعدٍ مع الوقوع في جحيم السّعير، وأنّه سينجذب إلى عالم الأطياف المغبونة وليس إلى عالم الأموات الذي لا يعلمُه إلّا الله سبحانه وتعالى.

وما إنْ خُسف القمرُ كليًّا، ودَكِنت السّماء، وشرع في تطبيق الطقوس، أغمض عينيه وأخذ يتنفس بعمق وببطء، ثمّ أسرع فأسرعَ حتّى شعرَ بتنميلة بسيطة تتسرّب إلى أطرافه.

بدأت الأصواتُ الخارجية تخفتُ تدريجيًّا، حتّى اختفت تمامًا، شعر وكأنّما جسده صار أخف وزنًا، وأنه بدأ في الارتفاع عن الأرض، ثمّ استشعر سخونةً مفاجئة وتحسّس سقوط قطرات من النّدى فوق جبينه، فانتفض من نوْمته فزعًا ليجد نفسَه كما كان، وفي نفس المكان ولم يتغيّر شيء، لم يكنْ مُستغربًا سوى هذا السكون التّام، وكأنّه فقد السمع كليًّا.

.. صرخ بخذلان: *لم ينجحِ الأمر، لم ينجح الأمر*

نظرَ نحو الجدار فتبدّى له أنّه قد أصيبَ بثقبٍ صغير، فقام من مرقدِه بشعور فظيع بالثقل، واقترب على حذرٍ من الجدار، وراح يتحسّس الثقب بعينيْن طامعتيْن لامعتين غير مصدّقٍ لمَا يرى، وما أنْ لامسته أناملُه حتّى أخذ هذا الثّقب في الاتّساع ليمتصّ جسده، كما لو كان فكّ أفعى عملاقة متعطّشة لابتلاع فريستها!

دقّ الفزع في قلبه مسمارَ الهلاك، فالخوفُ بداية الفشل، عُقد لسانُه فما عاد يقوى على الصراخ، حتّى قلبه أصيبَ بالبكم فلم يذكرِ الله، حاول إفلات نفسِه بكلّ ما أوتيَ من قوّة، ولكنّ الجذب كان عنيفًا ومستميتًا على سحبه.

تسلّح بقدميه يرفصُ بهما الجدارَ ليُفلت يدَه، وما انفكّ يقاوم ويقاومُ حتّى تمكّن من الإفلات فانكشفت له اليدُ التي كانت تمسكُ به فصُعِق، كانت يدًا شيطانية شديدةَ السّواد تنزف صديدًا، أفلتتْه بإرادتها لا بقوته، فسقط على

الأرض، ووقعت عيناه على ما بجواره، فإذا به يُصعق للمرّة الثّانية!

إنّ ما بجواره جسد، وجسد ليس بغريب، إنّه جسدُه، مغلق العينين، مغيّب العقل، يبدو هادئًا مطمئنًّا، بينما روحُه تعاني العذابات، جحظت عيناه وهو ينظر إلى جسده الملقى على مقربة منه وتحسّس نفسه فوجدها هواءً، تحجّر في موضعه من هوْل الفزعة، ولمّا انتبه كان قد وجدَ نفسه في قلب الثّقب مسحوبًا إلى حيث اللاعودة.

***

أدبرَ الخسوفُ وعاد القمرُ لعُرجونه القديم، وأضاءتِ السّماء، وسُدّ الثّقب، ولم يترك سوى بعض التصدّعات البسيطة من حوله.

استيقظ عادل من نومَتِه القصيرة بهيئةٍ غريبة وعيونٍ مُريبة متّسعة عن آخرها، ثمّ غادر الغرفةَ الصّغيرة، وأغلق بابها بإحْكام، عدّل هندامَه كي يبْدو طبيعيًّا، ثمّ توجّه إلى المطبخ ليسحبَ سكّينًا حادًّا أخفاه تحت قميصه، وخرج في غفلةٍ من حارس العقار النّائم على أريكته الخشبيّة بجوار البوابة نومًا عميقًا.

اتّخذ من الرّكن المُعتم بين أشجار الحديقة التي تحيط بشقّته الأرضية مأوى حتّى تواتيه الفرصة المناسبة للانقضاض على فرائسه.

وكان أوّل ضحاياه رجلًا مسنًّا ترجّل للتّو من سيارته أمام المنزل الصغير ذي الحديقة الكبيرة المقابل للبناية التي يقطنُ فيها عادل بالشّقة الأرضية يحمل كيسًا به دواءٌ لقلب زوجته العليل.

وما أنْ بلغ الرّجل المسنّ عتبةَ باب بيته، وتمشّى بضعَ خطوات في الممرّ الواصل بين بوابة الحديقة الحديدية القصيرة وباب البناية، حتّى سمع صوتَ أنفاسٍ عالية آتية من خلفه فتسمّر في موضعه ليتأكّد ممّا يسمع، ولمّا التفت خلفه لم يجد أحدًا..

كانت الأنفاسُ عالية وغريبة، كما لوْ كانت تخرُج من سمّاعات ضخمة لا يُسمع صداها إلّا في أذنيْه هو وحده، لم تكنْ أنفاس إنسان ولا أنين حيوان، ولكنّه شيءٌ آخر لم يتعرّف عليه من قبل.

شعرَ الرّجلُ أنّ ثمّة شيئًا غيرَ مرئيّ يقف أمامه مباشرة، يشعر به وبأنفاسه تقترب حتّى لفحت وجهَه، وقبل أن يستجيرَ بالله شعرَ ببرودة قويّةٍ تسري في بدنه، وخيوط دافئة تنساب من ظهره، فاستدار ببطءٍ شديد من قسوةِ الألم الذي ألمّ به، ليجدَ أمامه عادل يقف، وبيده سكّينٌ ملطّخ بالدّماء.

نظر الرّجلُ في عينيه المتّسعتين عن آخرهما، ونظراتهما الشّيطانية الزائغة، ثمّ بدأ العجوز يترنّح ويهوي على الأرض، بينما كان عادل يعودُ لرشده ببطء، ويبدأ في استيعاب ما ارتكبه للتّو، وتحوّلت النّظرة الشيطانية إلى أخرى

مصدومة مُرتعبة لا يعي ما الذي أتى به إلى هنا، وما الذي اقترفته يداه.

أفلتَ السّكين من يده، وأمسك بجسدِ الرّجل المسنّ الذي هوى بقوّة على الأرض مقطوع الأنفاس، ثمّ صرخ صرخةً ليستْ بالعالية لتُسمِع الناس، ولكنّها كانت كافية لتُسمِع زوجته الجالسة على كرسيّ خشبيّ صغير بجوار شرفتها.

وما أنْ أطلّت السيدة من النافذة، لاذ عادل بالفرار وتحوللشبح الليلة المرعب وشيطانها الرجيم، سفك دماء كلّ من قابلهم في طريقه حتّى لا يعترضه أحد، أوقع أكثر من عشرة ضحايا تتروا جراحهم بين الطفيفة والعميقة، حتّى تمكن من الإفلات بالركض السريع وإختفى في الظلام

وكان آخر ضحاياه رجل خرج مسرعا من بنايته برفقة زوجته وطفله المريض في هزيع الليل ليتوجه به إلى المشفى حيث إبتلع طفله مادة سامة، كانت الأم تبكى خوفا على رضيعها وتبتهل إلى الله وتتلو عليه آيات الذكر الحكيم وتسأله السلامة من كلّ شر.

خرج عادل لينقض على الرجل شاهرا سكينه الحاد في نفس اللحظة التي رُفع فيها آذان الفجر فأصابتْه ارتجافةٌ قويّة وابيضّت عيناه، وتصلّبت أطرافه، وشهق شهقةً مسْموعة فتنبّه له الرجل وتمكّن من انتزاع السكّين من يده، وصرخت زوجته صرخاتٍ مدوّية أفاقت أهل المكان أجمعين.

كان عادل قد افترشَ الأرض حين تجمّع الناس حوله، وقد بدا كجثّة متخشّبة كساها لون أصفر يميل إلى البُنيّة كجثث المومياوات المحنّطة، اجتمعوا عليه وقيّدوه حتّى تصل عربة الإسعاف والشّرطة.

نصفُ ساعة مرّت قبل أن تصلَ سيارة الإسعاف وتحمل جسدَه، فمازال قلبُه ينبض، فكوا قيده وحملوه على النّقالة، وضعوه بالسّيارة، وأغلقوا عليه البابَ برفقة مُسعف، وانطلقوا به نحو أقربِ مشفى، وبعد بضعِ دقائقٍ وُجدتْ سيّارة الإسعاف منحرفةً عن الطريق والمُسعف المرافق مخنوقًا، والسّائق في حالةِ إغماء على إثْر خبطةٍ قويّة على رأسه، واختفى عادل.

* * *

استمعَ الملازمُ زين إلى شهادةِ السّيدة إيفون زوجة السيد جورج، الرّجل المسنّ الذي قُتل، وأقوال والد الرّضيع وزوجته النّاجون من مذبحة الفجْر برفقة شهود عيان آخرين، وبالتحرّي اتّضح أنّ الجاني يدْعى عادل، ويسكن في الشّارع الموازي بشقة صغيرة ببناية المهندس رفعت يكن.

وبتفتيش الشقّة تمّ العثور على كُتب عن الإسقاط النّجمي، وتحضير الجنّ الخادم والأرواح الميتة، وغيرها من هذه الأمور في غرفة نومه، ولم يجدوا شيئًا آخر مثيرًا، الشقة خالية تمامًا من أيّ أقراص مخدّرة أو مهلوسة، حاولوا فتح الغرفة المغلقة ولكنّها كانت محكمة الغلق، حاولوا مرارًا وتكرارًا ولم

ينجحوا فأهملوها.

وفوْر خروج الملازم زين من الشقّة جاءه اتّصال لاسلكيّ يبلغه أنّهم عثروا على جثة رجل دهستها سيارة منذُ قليل تحمل نفس أوصاف سفّاح الفجر، انطلق الملازم زين إلى حيث عثروا عليه ولم يكن ببعيد، كانت جثته راقدة بجوار فندق مهجور على طريق ترعة المريوطية مدهوسًا تحت عجلات عربة نقلٍ قال سائقها إنّ المتوفّى ظهر أمامه فجأة وتوقّف وكأنّه أراد الموت، ولم يستطع تفاديه، وإلّا لسقط هو في الترعة.

وأقْفِل المحضر في ساعته وتاريخه....

***

صيف ١٩٩٩

أغارَ الدّجى فوق ليلةٍ من ليالي الصّيف الحارّة على محبس الفتيات الثلاثة *آمنة، عاليا، وهدى* في نقطة شرطة شارع الأهرام، أو شارع الهرم كما اعتادَ الناس تسميته، يجلسنَ فوق مصطبة أسمنتيّة داخل حجز ضيّق متعفّن من رائحة نُزلائه بجوار فتيات ليلٍ ممّن لديهنّ ملفّات في جرائم الآداب والأفعال الفاضحة.

لم تتوقّف هدى عن البكاء والدّعاء بالفرج القريب منذُ وطئت قدماها هذا المكان البشع، بينما ما انفكّت عاليا تقرض أظافرها في حنق، أمّا آمنة فجلست منكمشةً مُرتعبة من مناظر السيدات المُحيطات بها، واللّاتي لم تملّ أعينهنّ من فحصها هي وصديقتيها البادي عليهنّ البراءة والطهر..

اقتربت من آمنة سيدةٌ مُخيفة، زُيّن وجهها بشوّ طوليّ في خدها الأيمن، بدينة، قوية البنيان، حاولت لمسَ كتفها وهي تسألها بصوتِها الأجشّ: *ما اسمُك أيّتها الجميلة؟ وفيمَ جئتِ؟*

انتفضت آمنة من مجلسها، وحاولت أن تبدو متماسكة وهى تقول بنبرةٍ حادّة: *ابتعدِي عنّي أيتها المنحرفة وإلّا أبرحتك ضربًا، فشياطينُ العالم كلّه تقيم احتفالًا عالميًّا أمام وجهي*.

التفّت صديقتاها حولها على الفور، والخوفُ يعتريهما، فنساءُ الحجز قد تأهّبن لشيء لا تدلّ تعابيرُ وجوههنّ على أنّه خير.

فهمستْ لها هدى قائلة: *تراجعي يا آمنة؛ فلا طاقة لكِ بها*

فضحكت المرأة المريبة ضحكةَ سخرية وهي تقول لزميلاتها في الحجز مازحة: *ها هي يا فتيات، آمنة التي غرّر بها *البشمهندز* ألهذا جاءوا بكِ إلى هنا؟*

فتعالت ضحكاتهنّ الرّقيعة، بينما استشاطت آمنة غضبًا، وصفعتها على وجهها بقوّة قائلة: *أنا أشرفُ منكِ ومن عائلتك أيّتها الحقيرة*

كادت عينا المرأة تنتأ من مقلتيها وقد استطر فيهما الشّر، نفرت كما ينفرُ الحمار ثمّ أظلم كلّ شيء في وجه آمنة، ولم يُسمعْ من خارج الزنزانة سوى صوت استغاثات هدى وعاليا وصراخهما المتواصل طلبًا للنجدة.

* * *

هرولَ العساكر نحو الزّنزانة فوجدوا كومةً من النّساء مجتمعة في دائرة حول السيدة البدينة وآمنة التي كادت تلفظ أنفاسَها الأخيرة لولا أن تمكّنوا من إنقاذها في اللحظة الفارقة، أوسع أحد العساكر السيدة البدينة ضربًا، وهاجَ على البقية أيضًا.

وتمّ اقتياد الفتيات الثلاثة من قِبَل آخر لخارج الزنزانة، كانت آمنة فاقدةً الوعي فحملتها صديقتاها وحاولا إفاقتها، طلبتْ *عاليا* من أحدِ العساكر أن يحضر لها عقارًا من الصيدلية يساعدها على الإفاقة.

دوّنت له اسمَه على ورقة حصلت عليها من مكتب الأمين، وزادت له في المال حتّى لا يعترض، فأخذ كلّ ما كانت تملكه.

في اللحظة نفسها مرّ بهنّ ضابطٌ في منتصف الثلاثينيّات تقريبًا على درجة نقيب، أوقف العسكري، وسأله عمّا أعطته له المتّهمة، فقال له إنّه دواءٌ لصديقتها فاقدة الوعي.

اقترب منهنّ الضابط وسألها: *وما هذا الدّواء؟ هل هي مريضة؟*

أجابته عاليا أنْ *لا*، فأردف قائلًا: *هل هو نوع من العقاقير المخدّرة؟*

فأجابته بالنّفي القاطع: *لا يا سيّدي، ما هو إلّا مركّب من النشادر سيساعدها على استعادة وعيها بسرعة*.

قال لها باحتداد: *وهل تظنّين نفسك طبيبة أيّتها المتّهمة لتصفي الأدوية والعقاقير؟*

قالت: *لا، لستُ طبيبة ولكنّي باحثة كيميائية ولستُ متّهمة، لقد جئنا هنا ظلمًا*

عقدَ الضابط حاجبيه مندهشًا قائلًا: *وما الذي يجعل باحثة كيميائية تُحتجز برفقة سيئات السمعة؟*

أجابته: *إنّها قصّة قصيرة حزينة يا سيدي، ولكن أقسمُ لك أنّنا بعيدات كلّ البعد عن ارتكاب المحرّمات*

استدار الضّابط على الفور متّجهًا إلى مكتبه عقبَ تهامسه مع أحد الأمناء الذي اقتادهنّ إلى مكتب النقيب.

وما أنْ دخلنَ مكتبه ومددْنَ آمنة على الأريكة الجلديّة بإشارةٍ منه بذلك، حتّى قال لعاليا: *هيّا قُصّي عليّ قصتكنّ*

***

بدأتْ عاليا

تروي القصة من بدايتها..

*خرجت أنا وصديقتيّ *هدى وآمنة* نحملُ حقائبنا من منزل السيدة تحية زوجة الحاج سعيد تاجر الأدوات الصحية بعد ليلةٍ دامية، وعراكٍ عنيف بيننا وبينها على إثر تراكمات عدائية لم تكنْ وليدةَ اللّحظة، اشتعل فتيلُها منذ الليلة الأولى التي استأجرنا فيها الشّقة الأخيرة *فوق السّطوح* في بنايتها الكائنة في أحد الشّوارع الجانبية المتفرعة من شارع الملك فيصل.

كانت السّيدة تحية شديدةَ الغيرة على زوجها البدين الأقرع البالغ من العمر خمسة وخمسين عامًا، كان رجلًا زائغَ العينين يهوى مغازلة الفتيات الصّغيرات، بل للدّقة يهوى مغازلة ما تأنث من الكائنات الحيّة، رجلًا لا يوجد كُتيّب يشرح مكوّنات عقله ولا يفسّر ولعه الشديد وتلذّذه بما يفعل، خاصّة وأنّ لديه امرأةً جميلة ورشيقة يبدو أنّه أفقدها ثقتها بنفسها بفضل أفعاله المشينة على مدار عشرين عامًا كانت هي سنوات زواجهما التي أثمرت أربعةَ أبناء.

كان دائمَ التلصّص علينا، ينتظر عودة كلّ منّا من عملها، وخاصّة *آمنة * التي تعمل ممرضة في مناوبةٍ ليليّة، ويعترض طريقها ملقيًا على مسامعها كلمات الغزل والإطراء، ومهما حاولت الفتاة منّا صدّه ومعاملته كرجلٍ في عمر والدها وتمرير الأمر حتّى لا نضطرّ للبحث عن مكان آخر بإيجارٍ مناسب؛ كان يزداد تبجّحًا واعتقادًا أنّنا نستمتع بذلك.

حتّى أتت الليلةُ الحاسمة، حينما أمسكتْ به زوجته يتلصّص علينا من خلف فتحات الشباك الخشبي في غفلة منّا، ملقيًا سمعه وبصره على ما يدور خلفه من ضحكاتنا وحديثنا النسائي ونحن جالساتٌ بثياب المنزل الخفيفة، وقد واربنا الشّباك قليلًا أملًا في التمتّع بنسمة هواء أثناء الليل.

ووقعت الواقعة، وبدلًا من أن تنهر زوجها على فعلته الشّنيعة وما سبقها من أفعال اشتهر بها بين الناس؛ ضربت بابَ شقّتنا بقدمها وحوّلت دفّة العداء نحونا وطردتنا في طيسل الليل، ولم تهتزّ لرجائنا من أجل المكوث حتّى انبلاج النّهار على الأقلّ، فاضطررنا لحزم حقائبنا وسيرنا لساعاتٍ طويلة نسأل السّماسرة عن شقّة مُتاحة في الحال، وكان طلبُنا يُقابل بخيبة أمل.

جنّ علينا الليل ولم نتوصّل لشيء، ولم يتبقّ لنا من رواتبنا الكثيرُ فهدانا عقلنا لاستجار غرفة بفندقٍ رخيص لليلةٍ أو اثنتين، حتّى نتدبّر أمرنا، ولم نكن نعلمُ أنّه مكان مشبوه، لا يقصده سوى سيئو السّمعة، وفور استلامنا الغرفة وقبل أن نبدّل حتّى ملابسنا والحمدُ لله أنّنا لم نفعل هجمت قوّةٌ من الشرطة، وقبضوا على كلّ مَن كانوا بهذا النّزل بما فيهم نحن*.

ظلّ النقيب يتابعهنّ بنظراته المتفحّصة الخبيرة، ولم يجد للكذب وجودًا في مظهرهنّ، ولا حديثها؛ فسألها: *وما الذي دفعكنّ لاستئجار سكن، أين عوائلكنّ؟*

أجابت هدى تلك المرّة قائلة: *نحن مُغتربات حضرة النقيب، جئنا من الإسكندرية منذ سنوات لتلقّي العلم في القاهرة ثمّ بحثًا عن لقمة العيش، هذه المتكومّة- مشيرة إلى آمنة- تعمل ممرضة في مشفى قريبٍ في مناوبة ليلة يتيمة الأب والأم، وأنا أعمل مدرّسة في مدرسة خاصّة على مقربةٍ من هنا أيضًا، أمّا عاليا فهي باحثة كيميائيّة بمجمع البحوث، وتعمل على تحضير رسالة الماجستير*.

في نفس اللّحظة، بدأت آمنة في استعادة وعْيها وهي تهلوس ببعض الكلمات قائلة: *أيّتها الخرتيتة سأوسعك ضربًا، آاااه.. ما هذا الظّلام!*

التفتَت الفتاتان حولهما يطمئنّها ويربّتن على كتفها ويحتضنانها حتّى تمكّنت من فتح عين واحدة ببطء، بينما الأخرى قد تورّمت وازرقّت فلم تقوَ على فتحها، وقالت بنبرةٍ ثقيلة: *ما الذي حدث؟ أين أنا؟*

سألتها عاليا بنبرةٍ قلقة: *آمنة، بمَ تشعرين؟*

قالت بصوتٍ ضعيف: *أشعر أنّ فيلًا ضخمًا قد دهسني*

ابتسمتا واطمئنّتا عليها، فهذه هي آمنة ذات الرّوح المرحة حتّى في أصعب المواقف.

قالت لها هدى: *حسنًا، أنتِ الآن بخير*

وما أن اسْتفاقت كليًّا حتّى طلب لهنّ النقيب ثلاثةَ أكواب من الشاي والماء البارد، وسمح لهنّ بالجلوس حتّى يُنهي لهنّ إجراءات الإفراج، فلا شيء عليهنّ، ولا حالة تلبّس، ضغط على زرّ مكتبه فدخل على الفور عسكري الحراسة، وطلب منه النّقيب استدعاء الأمين فتحي.

بعدَ دقائق حضر الأمين فتحي، رجلٌ سمين، مستدير الوجه، خفيف الشّعر من المقدمة، أبلغه النقيبُ أن يغلق المحضرَ الخاصّ بالفتيات الثلاثة، وأشار لهنّ باتّباعه لإنهاء الإجراءات.

تقدّمت آمنة وهي تتعكّز على كتف هدى خلف الأمين، بينما تأخّرت عاليا قليلًا لتشكر النقيب على حُسن استماعه وتفهّمه لظروفهنّ، فنصحها النقيب أن يحترزْنَ قليلًا حتّى لا يتورّطن في مثل هذه الأمور، خاصّة وأنهنّ مغتربات بلا معين، وأعطاها بطاقتَه التعريفية بها اسمه ورقم مكتبِه في حال احتَجْن لأيّة مساعدة، أو تعرّضن لأذى، ثمّ تبادلا ابتسامة عذبة ونظرة ناعمة. غادرت عاليا بعدَها على الفور لتلحق بصديقتيْها، وقبل أن تدركهما نظرت في البطاقة وقرأتها بصوتٍ خفيض قائلة (النّقيب زين محي الدين)، ثمّ أخفتها في صدريّتها

في غفلةٍ من أعين الجميع.

* * *

وأمامَ مكتب الأمين فتحي المجاور لأمين آخر يُدعى كرم، أخذت آمنة تنتحب: *أين سنذهب، وماذا سنفعل؟ لا يمكن أن نعود لهذا الماخور، ولا نعرف طريقَ شقّة يا ربّي*

سمعَها الأمين فتحي، وألقى إليها بنظرةٍ جانبية، ثمّ قال لهنّ وهو يكمل إجراءات غلق المحضر: *هل تبحثنَ عن شقة يا فتيات؟*

أجابت هدى بحماس: *نعم، هل تعرف طريقَ واحدة؟*

قال لها متلعثمًا بعضَ الشّيء: *أعرف، أاا.. إنّها شقّة رائعة، ولكنّها صغيرة*

قالت عاليا: *لا يهمّ المساحة، المهمّ ألّا تكون ملكًا لسيدة فاقدة الثّقة بنفسها تغارُ على زوجها الأقرع البدين منتهى الصّلاحية*

قال لها بضحكةٍ مُكتنزة: *إنّها ملكٌ لسيّدة، ولكنها لا تغار على زوجها فهو متوفّى*

قالت هدى بتوسّل: *أرجوك دُلّنا عليها*

قامَ على الفور بسحبِ ورقة من فوق كومةِ الأوراق المكدّسة أمامه وكتب لهنّ عنوانًا، قرأته عاليا بصوت مسموع: *١ شارع الأشجار محطّة التعاون، أوّل نمرة من الشارع.. شيء عظيم ولكنّها ستكون باهظة الأجرة*

أردفَ قائلًا عقب نظرةٍ جانبية وحادّة من زميله الأمين كرم، والتي تجاهلها على الفور: *لا.. لا، فالسيّدة ثريا صاحبة المنزل ليست امرأة جشعة، رغم موقعها المتميّز المطلّ على شارع الهرم الرّئيسي، إلّا أنّها لن تطلب أكثر ممّا يمكنكنّ دفعه، فهي امرأة وحيدة عطوفة تعشق مساعدة المستضعفين*

قالت له آمنة: *هل أنتَ على ثقة من ذلك؟*

أجابَها بثقة: *بكلّ تأكيد، أخبرنَها فقط أنكنّ من طرف الأمين فتحي، وأنصحكنّ بالإسراع لحجْزها فهي شقّة لن تنتظر كثيرًا، فعلى حدّ علمي أنّ هناك مَن على وشك دفع عربونها في المساء؛ لذا يجدر بكنّ أن تذهبن في الحال وتقتنصنَ الفرصة، فالموسم الصّيفي شحيح*

تهلّلت وجوههنّ فرحًا، وأغرقنَه شكرًا، ثمّ رحلن..

اقترب الأمين كرم من الأمين فتحي قائلًا بنبرة استياء: *لماذا؟*

قال له الأمين فتحي بقلّة اهتمام مدّعيًا انشغاله بتدوين شيء ما: *ماذا تقصد؟ *

قال له: *أنت تعرف أمرَ هذه الشقّة جيدًا، لماذا تورّطهنّ في ذلك؟*

رفع الأمين فتحي رأسه ناظرًا له بثباتٍ مُخيفٍ مجيبًا:* أنا لا أعرف سوى أنّها شقة عادية سكنها أحدُ المختلّين، ثمّ دفعه خللُه العقليّ لقتل أحدهم، ثمّ انتحر*

قال الأمين كرم: *ليس هذا فقط كلّ ما حدث*

قال له الأمين فتحي متحدّيًا: *كرّر ما تعرفه إن استطعت*

لُجِمَ لسانُ الأمين كرم، ولم يتجرّأ على البوح بالمزيد..

* * *

خرجنَ من المخفر فرحاتٍ بما منّ الله عليهنّ من براءة، والعثور على مأوى جديد، ولم تنتبه عاليا للرّجل الذي اصطدم بكتفِها للتّو، ونظر نظرة مطولة لهدى الغافلة.

* * *

كانت الشّمس قد توسّطت السماء عندما خرجت الفتيات من المخفر، وفي أيديهنّ عنوان الجنة، نعم الجنّة، أيّ مكان غير الذي كنّ فيها هو بمثابة جنّة.

قالت هدى بفرحةٍ عارمة: *لا أطيق صبرًا يا بنات، أودّ رؤية هذه الشقّة الآن*

ردّت عاليا بامتعاض بعدما تشمّمت رائحة ملابسها: *أفف، أنذهبُ للقاء السيدة ثريا هكذا؟، رائحتنا كرائحة عنزات في حظيرة خنازير!*

قالت آمنة وهي تتحسّس عينها المتورّمة: *حبيبتي، إذا تأخّرنا عنها فمِن الوارد أن يختطفها غيرُنا كما قال الأمين، ثمّ أين سنستحمّ؟ في هذه النافورة مثلًا!*

نظرنَ أمامهنّ فلم يجدنَ أيّ نافورة، لم يكن هناك سوى عمود كهرباء عاري الأسلاك فقالت هدى مازحة: *آه.. سنستحمّ في هذه النافورة، هيّا مدّي يدك*

نهرتْهما عاليا بجديّة قائلة: *كُفاكنّ مِزاحًا سخيفًا، لا أترجّل برفقة بنات أخي.. حسنًا سنذهب ولكنْ لنمرّ على الأقلّ بمطعم به دورة مياه حتّى نحْسِن من هيئتنا، فالانطباعات الأولى تدوم طويلًا*

وبالفعل جنحنَ نحو مطعمٍ شهير، وتناوبنَ دخول الحمّام لغسل وجوههنّ وهندمة ملابسهن، خاصّة هدى التي كانت ترتدي الحجاب*

شعرنَ بالجوع ولكنْ كلّ متعلّقاتهنّ وأموالهنّ مازالت في هذا النّزل الموبوء، واضْطررن للترجّل أكثر من ثلاثِ محطّات حتّى كدنَ يفقدنَ وعيهنّ من الحرّ والجوع والعطش، خاصّة آمنة التي كانت تعاني آلامًا مُبرحة، فصرخت قائلة: *أنا جائعة يا بنات*

فقالت هدى مؤيّدة: *وأنا أيضًا، وبقسوة*

قالت عاليا: *لا نملك مالًا، آخر ما تبقّى من المال الذي كنت أخْفيه في صدريتي دفعته للعسكري كي يُجلب لآمنة الدواء*

قالت آمنة متعجّبة: *تخفين المالَ في صدرك يا عاليا؟ أمّي رحمها الله لم تكن لتفعلها*

تجاهلتْ عاليا المزاح الأخير، ودعتهما للاخْتِشوشان قليلًا فقد اقتربن، ولكن آمنة قد أعلنت التمرد وأبتْ قدماها أن تتحرّك خطوة واحدة معلنةً بكلّ وضوح أنّها ستنهار من فرط الجوع، وحينما طلبتْ منها عاليا مجدّدًا التجلّد كنّ قد توقّفن أمام حديقة منزل ذات أشجار عالية تظلّله حتّى الطّابق الثالث بوحشية.

قالت آمنة بإصرار: *لن أتحرّك خطوة واحدة حتّى آكل أيّ شيء حتّى وإن كانت أوراق هذا الشّجر كالزرافات*

وقبل أن تشرعَ عاليا في إقناعها وقعتْ عينها على لوحة مثبّتة بعمود حديديّ كُتبَ عليها شارع الأشجار..

فقاطعتْ نحيب آمنة قائلة: *لقد وصلنا إلى وجْهتنا المقصودة يا بنات*. (مشيرة إلى اللوحة).

أدارتْ آمنة رأسها نحو اللّوحة تدقّق النظر بالعين الوحيدة السّليمة تحاول أن تتأكّد قائلة: *شارع الأقمار*

التفتتْ لها هدى قائلةً بدهشة: *كيف فعلتِها؟ الأشجار بعيدة كلّ البُعد عن الأقمار أيّتها الجاحدة*

أردفتْ عاليا بجديّة: *كفى، هيّا تجهّزا لمقابلة السيدة*.

وسبقت نحو باب العمارة، فأمسكت هدى بيدِ آمنة حتّى لا تتعثّر.

***

رغمَ موقع المنزل المتميّز وإطلالته المباشرة على الشّارع الرئيسي إلّا إنّه يبدو منزويًا ومنطويًا عن الطّريق والحياة والضوضاء والناس والأنوار، ارتداده للداخل قليلًا والشّجر الكثيف من حوله يزيد من اختفائه عن الأنظار، ويضفي عليه نوعًا من الغموض والكآبة والظلمة حتّى في وضحِ النّهار، وكأنّه موصوم بلعنة ما.

يبدو من شكل البناية الصّغيرة أنّها من مواليد حقبة الستينيّات ذات الطوابق الخمس، كلّ طابق مكوّن من شقّة واحدة تحيط بها في شكل نصف دائري حديقة صغيرة مكتظة بالأشجار والحشائش الطويلة المهملة، مدخلها جانبيّ، يطلّ على الشارع الصغير المتفرع من الطريق الرّئيسي، يقابله منزلٌ صغير من بيوت الأهالي القديمة المكوّن من طابق واحد يوازي الطابق الأرضي في

بناية السيدة ثريا أو يعلوه قليلًا.

وقفت الفتيات في مدخل العمارة على أملٍ أن يجدنَ حارسًا يسألونه عن شقّة السيدة ثريا، فلم يجدنَ غرفةً للحارس.

تأفّفت عاليا قائلة قبلَ أن تستدير: *لا يوجد حارس، أسنبحثُ عن شقّة السيدة ثريا بأنفسنا، أم ماذا؟*

وما أنِ استدارت كي تتلقّى إجابةٍ من صديقتيها فوجئت برجلٍ طويل وعريض، أسمر البشرة يرتدي جلبابًا رماديًّا وعمامة، قويّ الملامح، حادَّ العينيْن كعين الصّقر، يقف ثابتا خلفهنّ، لم يُحدث صوتًا، ولم يُشعرهنّ بخطواته.

شهقتْ عاليا شهقةً قويّة من شدّة الهلع، وعلى إثْر فزعتها فُزعت صديقتاها، واستدارتا بطبيعة الحال ليجدنّ رجلًا خمسينيًّا يحدّق بهنّ، ويتفحّصهنّ بإمعان، وبنظرات مخيفة.

قالَ لهنّ بصوت غليظ مُضيّقًا عينيه: *هل تبحثنَ عن شيء يا هوانم؟*

ظلّت الفتيات في حالةِ صمتٍ دامتْ لعشر ثوانٍ قبل أن تتجلّد عاليا وتقول بثبات مُضيّقة عينيها هي الأخرى: *نبحث عن شقّة السيدة ثريا*

تسمّر الرّجل مجدّدًا كأنّه إنسان آلي، انتظر برهةً ثمّ قال: *الشّقة في الدّور العلوي*

سألته هدى: *يمينًا أم يسارًا؟*

أجاب بنبرةٍ بطيئة وثقيلة، وبعينين ثابتتيْن ثباتًا مرعبًا قائلًا: *أمامك مباشرة، فلا يوجد يمينٌ ولا يسار، حتّى وإنْ بدا لكِ أنّ هناك مدخليْن على الجانبين فهُما وهميّان، المدخل الوحيد ستجدينه أمامك مباشرة*

صمت...

وقفَ الجميع في حالةِ صمتٍ لبرهة، كأنّ الكلمات قد بُعثرت..

وجالَ في نفس هدى شعورٌ غريب، شعرت وكأنّها كانت هنا من قبل ورأتْ هذا الرجل وسمعت كلماتِه الأخيرة تلك، شيء يسمّيه علمُ النّفس ب(الديجافو) أو (شُوهد من قبل)، هذا الشّعور يراود هدى منذُ الطفولة، وكمْ صرّحت لأمّها بذلك، وفي كلّ مرّة كانت تقنعها بأنّها خدعة من العقل الباطن.

ولكنّ الفتاة لم تقتنعْ، فهذا العقلُ الباطن نفسُه لا يمكنُ رؤيته ولا تحديدُ موقعه في الدماغ أو الجسم عمومًا، ليس جهازًا مستقلًا، ولا يمكن لطبيبٍ أن يُشير لك على منطقة محدّدة ويقول إنّ هذا هو العقل الباطن؛ بل هو جهازٌ وهميّ اعتبره الباحثون موجودًا بشكل مجازي لتسجيل وتخزين الصّور والذّكريات والمشاعر والمعلومات غير المهمّة، بمعنى أدقّ صندوق قمامة

للعقل الواعي، يُلقَى فيه ما يتمّ الاستغناء عنه، ولا حاجة للعقل به.

فكيفَ يفترض به أنّه يخدعنا؟ أم أنّ العقل الباطن هو شيء آخر يرافق الإنسان، ولا نعرف ماهيّته الحقيقيّة، فوضعوا له مسمّى علميًّا متعجرفًا ومتعالٍ لا يعترف بالشّفافية؟!

أنهتْ عاليا هذه اللّحظات الغريبة بتوجيهِ الشّكر للرجل، واسْتدارت نحو السّلم بعدما أشارت لصديقتيْها أن تسبقاها للأعلى احترازًا من أنْ يكون الرجل معتديًا فيُباغتهنّ بفعل ما.

لم تستدرْ عاليا أكثرَ من لحظة لتنظر خلفها مجدّدًا، وتجد الرجل كما ظهر فجأة، وبلا جلبة اختفى أيضًا فجأة، تماسكت وما كادت لتفعل لوْلا أنّها لم تردْ أن تُربك الفتيات.

(كثيرًا ما كنت أسأل نفسي، كيف نصادف أشياءً غريبة ومريبة في حياتنا ولا نتوقف عندها ونتركها تمرّ مرور الكرام؟ هل لأنّ العقل لم يكن مُهيّئًا للتّعامل مع تلك المواقف التي لم يتعرف عليها من قبل، ويحتاج وقتًا لاستيعابها كما يحدثُ حينما نتلقّى خبرَ وفاة شخصٍ عزيز ولا نبكي على الفور حتّى نستوعبَ الأمر؟

أم إنّه على العكس تمامًا.. وأنّ العقل قد خُلِقَ مستعدًّا لمقابلة ومواجهة مثل تلك الأمور يومًا ما لأنّها حقيقيّة، فلا يتسرّع بإصدار إشاراتِ الفزع والانْهيار لبقيّة أعضاء الجسم، ويمتصّ الأمر كأنّه شيء عاديّ... أم إنّه عاديّ فعلًا؟)

صعدنَ إلى الطّابق العلويّ ليجدنَ أمامهنّ مباشرة بابًا واحدًا يتوسّط الحائط، ولافتة معدنية مطليّة بلون الذّهب، محفورٌ عليها (م. رفعت يكن).

قالت آمنة مُداعبة: *(م)؟ ميكانيكي؟!*

فتبسّمت عاليا أخيرًا، كانت واحدة من الابْتسامات القليلة التي أبْدتها على مزاحاتِ آمنة منذ قرّرن العيش معًا، بينما ظلّت هدى شاردة.

تبرّعت عاليا بالضّغط على الجرس فانفتحَ البابُ على الفور، وكأنّ السيدة ثريا ترقد خلفه مباشرة.

تجلّت سيدة في عقْدها الخامس كما تعلنُ قسمات وجهها، أمّا جسدُها فكان نحيفًا ممشوّقًا، صُفّف شعرُها المصبوغ باللّون الأسود بأكْمله باسْتثناء بضعة شُعيرات بيضاء تتصدّر مقدّمة الرأس على نُسق عتيقٍ يشبه الفنّانة زوزو ماضي، بدتْ سيدة أنيقة من بقايا الزمن الجميل.

تفحّصتها الفتيات بإعجابٍ جليّ، بينما استقبلتْهنّ السّيدة بابتسامةٍ مُشرقة، وبادرت بإلقاء التّحية، فخبتَ القلقُ الذي انتابهنّ منذُ قليل بعدَ مقابلةِ هذا المختلّ بالأسفل.

افْتتحت عاليا الحديثَ قائلة بتلعثمٍ دَخيلٍ عليها: *مساءُ الخير، إمممم.. نحنُ من طرف الأمين فتحي، وقد جئناً من أجل الشّقة الشّاغرة لديكِ، فهل مازالت متاحة؟*

كانت نظرةٌ عميقة تلك التي رمقتْها بها السيدة قبل أن تقول: *أنتِ فتاة عملية جدًّا*

كانت شهادة تدْعو للتّفاخر بالنّسبة لعاليا، فاعْتلى وجهها تعبير الاستحسان.

أكملتِ السّيدة قائلة: *نعم، مازالت شاغرة، ولكن يجب أن نتحدّث قليلًا قبل أن تعاينونها*

ثمّ أشارت بيدها سامحةً لهنّ بالمرور إلى الداخل قائلة: *تفضّلن، لن نتحدّث على الباب*

بدتِ الشقةُ أنيقة وعتيقةً كصاحبتها، كلّ قطعةِ أثاثٍ تدلّ على عراقة أصلها رغم القدم البادي عليها، حتّى أنّ بعض القطع كانت باليةً بالفعل، أجلستِ السيدة الفتيات فوق أريكة الصالون المذهّب، ثمّ استأذنت منهنّ لدقيقة، واخْتفت داخل ممرّ سُتِرَ بستارة.

باغتَ هدى ذاتُ الشعور الذي انتابها منذُ قليل، شعرت وكأنّما كانت هنا من قبل ورأت ما يحدث الآن، فعاد إليها شرودُها وأخذت تنقلُ عينيها في أرجاء المكان وتقسيمة الشّقة، هذه الصالة المتّسعة والشّباك المعدني الجرّار المُستدير باستدارة الحائط يُطلّ على كلا الشّارعين الرئيسي والجانبي، وأخذت تتخيّل ما يتفرّع من الممرّ الطويل خلفهنّ التي اختفت بداخله السيّدة للتّو.

خُيّل إليها أنّ هناك غرفتيْن متجاورتيْن على يمين الممرّ يقابلهما الحمّام ثمّ المطبخ بجواره على الجانب الأيسر، وفي المقابل في نهاية الممرّ غرفةٌ صغيرة مغلقة.

ولم يقطعْ شرودَها سوى وكزاتِ آمنة لها تسألها: *أين أنتِ؟*

انتبهت هدى قائلة: *أنا هنا تمامًا*

عادت السيدةُ تُمسك صينيّة فوقَها ثلاثةُ أكوابٍ من العصير وقطعة ثلج، قدّمتهم لهنّ ثمّ جلستْ على الكرسيّ المقابلَ للأريكة التي تحملهنّ، وقالت بابتسامةٍ عذبة: *تفضّلن*.

أشارتْ لآمنة على قطعة الثّلج مُستكملة: *هذه لعيْنك، ما الذي أصابها؟*.

ابتسمتْ آمنة شاكرةً ثمّ أجابت: *صدمتني شاحنة* فتصعّبت السيدة.

مدْنَ أيديهنّ على اسْتحياء، وقبل أن ترشفَ عاليا من كوبِها، وجّهت لها

السيدة سؤالَا قائلة: *عرّفيني عنكنّ*

نكّست عاليا الكوب، بينما ابْتعلت آمنة كوبَها من فرْط العطش، ووضعت قطعة الثلج فوق عينها المتورّمة، أمّا هدى فلم ترفعِ الكوبَ على فمِها، وظلّت مُمسكة به غارقةً في شرودها القديم، سارحةً في ملكوت آخر.

قالتْ عاليا: *نحن مُغتربات من الإسكندرية منذُ كنّا في مرحلة الدّراسة، ونعمل حاليًا في وظائف مُختلفة، أنا كيميائيّة، وهدى مدرّسة، وآمنة ممرّضة*

السّيدة باسْتغراب: *دراستكُنّ مختلفة تمامًا كيف تعرّفتُنّ إلى بعضكنّ؟*

قاطعتْ آمنة قائلة: *نحنُ صديقات منذُ الطفولة، كنّا جيرانًا في السّكن في الإسكندرية، وحينما قرّرتْ عاليا أن تدرس في القاهرة تشجّعنا ولحقنا بها*

السيدة: *ولماذا لم تعُدْن إلى الإسكندرية لذويكنّ؟*

قالت عاليا: *آمنة يتيمةُ الأبوين منذ كانت في العاشرة، توفّيَا في حادث سيْر، وأختها الوحيدة متزوّجة، ورأت أنّه ما عاد من اللّائق أن تعيش برفقتها وزوجها، وأنا يتيمةُ الأمّ وقد تزوّج أبي مِن أخرى، وأنجب أبناءً آخرين، ولم يعدِ المنزل يسعُنا جميعا، وهند توفّي أبوها منذ طفولتها، ثمّ توفّيت أمّها بعد صراعٍ مع المرض منذُ خمس سنوات وهي وحيدة بلا إخوة*

تصعّبت السيدة وهي تقول: *كلكنّ يتيماتٌ ووحيدات بلا أسرة*

قالت آمنة بنبرةٍ عاطفية: *بل نحن أسْرة، أسرةٌ صغيرة لكنّها مترابطة، احتضنّا بعضنا البعض منذُ أن أغارَ علينا الزّمن، نعتبر عاليا هي ربّ البيت، ورَجُلَه، رغم أنوثتِها الطّاغية إلّا أنها أرْجحنا عقلًا وأقوانَا شكيمة، وكلتانَا نعتبر هدى أمًّا لنا، فلَها قلبٌ حنون رقيق شفّاف، وهي أكثرُنا التزامًا بالصّلاة والذّكر والحجاب، ونرى فيها صورَ أمّهاتنا*

سألتها السيدة بابْتسامة لطيفة: *وأنتِ؟ ماذا يعتبرونكِ؟*

قالت عاليا وهي تنظر لآمنة بحبّ: *آمنة، طفلتُنا الكبيرة، ربّاها عمّها بخشونة بعد رحيل والديها، وهي المدلّلة بيننا*

نظرتْ السيدة إليهنّ بدفءٍ شديد، وبدتِ الحيرة في نظراتِها قائلة: *أنتنّ حالةٌ فريدة للصّداقة*. ثمّ نظرت لهدى الشّاردة قائلة: *لم أسمعْ صوتك يا هدى! هل أنتِ من النّوع الخجول؟*

لم تكنْ هدى حاضرة، كانت تسيحُ في خيالها ترى نفسَها تقف أمام تلك الغرفة المنفردة بقلب متسارع النبضات، كرّرت السيدة سؤالها فوكزتها آمنة مرّة ثانية حتّى انتبهت مجيبة: *أفندم؟*

قالت لها السيدة: *أنتِ شاردة للغاية*

تولّت عاليا دفّة الحوار بدلًا منها قائلة: *لقد مررنا بليلةٍ عصيبة، ونشعر بالتعب والإرهاق الشديد؛ لذا آملُ أن نصل لاتّفاق، فنحنُ متعجِّلات على السكن*

زفرتِ السيدة زفرةً هادئة ثمّ قالت: *حسنًا، الإيجار مائة وخمسون جنيهًا، هل هذا مناسب؟*

اتّسعت عيون الفتيات، وتبادلنَ النّظرات بينهنّ، ثمّ قالت آمنة بلهف: *إنّه مناسب جدًّا جدًّا، وكم هي الزّيادة السنوية؟*

ارتبكَ وجهُ السيدة بعض الشيء، وازدردت ريقَها سريعًا، ثمّ قالت متلعثمة: *أاممم.. لن نختلف، إذا شاء القدر وكُتِبَ لكنّ عامٌ جديد هنا؛ فلن ترتفع قيمة الإيجار عن 0٪ فقط*

تنفّست كلّ من عاليا وآمنة بعمق، وتهلّلت أساريرهما، فقد ربحنَ للتّو عرضًا خياليًّا..

انتفضت السيدة من مجلسها ثمّ قالت لهنّ: *حيث أنّنا جميعًا على وفاق فتعالين لمعاينة الشقة*

* * *

نزلنَ جميعًا متوجّهات صوب الشّقة السفلية بالطابق الأرضي، سبقت الفتيات ولحقت بهنّ السيدة عقبَ تعثّرها في غلق باب شقتها، وقفنَ أمام الباب وخالجهنّ شعورٌ بسيط بالدّوار، لم يعتنين بالأمر؛ فهنّ لم يأكلنَ منذ فترة، وهذا طبيعيّ جدًّا.

بدتْ خطوات حذاء السيدة أعلى من المتوقّع، كانت *طرقعات* كعب حذائها أكثرَ وضوحًا ورخامةً في أذني هدى كأنّها في حلم يقظة، كانت ترى خطواتِها بطيئة رغم أنها في الواقع عاديةٌ ومعتدلة، شعرت أنّ الزّمن ثقيلٌ كخطوات تلك السيدة، وومضتْ ومضة عادت بها إلى زمنٍ ماضٍ، رأت فيها السيدة بملابس مختلفة وعمرٍ أقلّ قليلًا، وشعرٍ كامل السّواد، فراودها شعورٌ أقوى.. أنّهن لسنَ أربعة أفرادً؛ بل خمسة.. كأنّ شخصًا خامسًا يرافقهنّ.

ولا شيء أكثر من ذلك، كانت لحظةً إضافية من الشّرود، مرّت.. وعاد كلّ شيء طبيعيًّا كما كان. شقّت السيدة لنفسها طريقًا بين الفتيات لتفتح الباب، وكان مرورُها بجوار هدى مصحوبًا بنظرةٍ جانبية، فيها من الخُبث ما فيها، وكأنّها لامست خيالها فكشفت ما كانت تراه لتوّها.

أصبح وجهُ السّيدة واجمًا، وما أن انْفتح الباب، شعرتْ هدى كأنّ بوّابة كهفٍ عميق هي التي فُتحت وليست شقّة عادية، بينما تأهّبت عاليا لاستكشاف عيوبِها التي خفضت من ثمنها كشقة مفروشة تطلّ على الطريق الرئيسيّ بحديقة خاصّة!

توارتْ آمنة خلفَ ظهر عاليا التي دلفت خلف السيدة، وآخرهنّ كانت هدى

التي شعرت بقشعريرةٍ قوية انتابت مؤخّرة عنقها، فاستعاذتْ بالله، وبسملت، ودخلت بيمناها فهدأت.

أضاءت السيدة المصباحَ الكهربائي، واتّضح أنّ الشّقة طبق الأصل من شقّة ثريا من حيث التّقسيمات، نفسُ الشبّاك المعدنيّ الكبير الذي يتبع الحائط في استدارته ليكشفَ الطريق الرئيسي والجانبي، مغطّى بستارة كبيرة تتبعه أينما التفّ.

لا يوجد من أثاث الصّالة سوى طقم استقبال *أنتريه* مكوّن من كنبة ومقعدين تتوسّطهم طاولة خشبيّة دائرية، يبدو قديمًا ومتهالكًا بعضَ الشّيء، وبه عدّة قطعات، ولكنّه جيّد بشكل عام.

أمّا الجدران فكانت مغطّاة بأكوامٍ من التراب تمامًا كالأرضية، هنا بدأت عاليا تكتشفُ سرَّ الإيجار الزهيد.

على اليمين، يوجد الممرّ الطويل الذي انعطفتْ فيه السيدة، وتبعتها كلّ من عاليا وآمنة لتريهنّ الغرف والمطبخ والحمّام، وكانت الغرفةُ المقابلة مغلقة كما تخيّلتها هدى بالضبط.

فتراجعتْ عن اتّباعهن وظلّت واقفة في مقدّمة الممر، وقفت تنظرُ نحو الباب المغلق بعمق لاإراديّ، فخُيّل إليها للحظةٍ أنّه مفتوح، وما أنْ طرفت عادَ مغلقًا فاقشعرّت ولم تجدْ حلًّا أفضل من مُرافقة الجمع كي تُشتّت ذهنها عن تلك التهيؤات.

كانت الغرفةُ الأولى صغيرةً وكأنّها خُصّصت للأطفال، بها سريران صغيران منفصلان ودولابٌ بثلاثِ ضُلف، الثّانية غرفة نومٍ بالغين بسريرٍ ودولاب وتسريحة بحالةٍ معقولة، أمّا عن المراتب فحدّثَ ولا حرج، كانت إسفنجيّة من النوع الرّديء غير المضْغوط حتمًا ستؤلم ظهورهنّ.

فتحتْ آمنة أحدَ الضّلف فوجدت ملابسَ رجاليّة مكسيّة هي الأخرى بالتّراب فقالت: *لمَن هذه الأغراض سيدة ثريا؟*

أجابت متلعثمة: *إنّها بقايا أغراض السكّان السابقين، كانوا مجموعة من الشّباب العزّاب، لا بدّ أنّهم نسوْها، لا بأس يمكنكنّ التخلّص منها*

قالت عاليا: *لعلّهم يعودون فيسألون عنها، سنحتفظ بها لا ضير*

قالت ثريا بنبرةٍ ثقيلة: *لا أظنّهم سيعودون، على كلّ حالٍ الأمرُ متروك لكنّ*

ثمّ تركتهنّ وخرجت صوبَ المطبخ ثمّ تبعتها الفتاتان، ولكنّ عاليا انشقّت للحظات وتوجهت صوبَ الغرفة المغلقة ودقّت بقوّة على بابها وهي تقول: *وهذه الغرفة سيدة ثريا.. أليس لها استخدام؟*

تسمّرت ثريا لبرهة، ودون أن تلتفت قالت: *إنّها ليست غرفة بالضبط.. ليست

أكثر من خزانة (للكراكيب)، لكَنّ حرية الاختيار في فتحها*

حاولتْ عاليا فتحَ الباب، ولكنّه كان مغلقًا بإحكام، فقالت: *ولكنّها مغلقة بقوّة، ألها مفتاح؟*

قالت ثريا التي على وشك الاختفاء داخل المطبخ: *لا، لا يوجد لها مفتاح، ولكنْ ببعض الجهد ستُفتح، تعالي ننتهي من المعاينة*

لحقت بها هي وآمنة نحو المطبخ، وعادت هدى إلى الصّالة مجدّدًا.

ولم يجدا بالمطبخ ما يسرّ كباقي أغراض الشقّة، فقط بعض الأكواب والأواني القديمة بحالة رثّة، كما أنّ الثلاجة لا تعمل، و*البوتجاز* أيضًا يبدو متآكلًا، ولم يتبقّ من شعلاته الأربعة سوى اثنتين يقضينَ الغرض، وغسالة يدوية تبدو جيدة نسبيًّا.

وفي المطبخ يوجد بابٌ خشبيّ آخر، استفسرت عاليا عن الغرض منه فأخبرتها السيدة إنّه باب الحديقة الخلفية، وبه منشرٌ للملابس يمكنهنّ نشْر ملابسهنّ فيه.

أمّا الحمّام، فكان قذرًا للغاية، ورائحته عفنة، علّلت السيدة الأمرَ بأنّ الشّقة مغلقة منذ مدّة، والمياه لم تجرِ فيه منذ عامين، فهي لم تكنْ تنتوي تأجير الشقّة مرّةً أخرى ولم تذكر السبب.

ثمّ اختتمت جولتها بالعودة إلى صالة الاستقبال قائلة: *هذه هي الشقة بكلّ ما فيها، هل من ملاحظات؟*

كانت هدى تقف عند زاوية الشّباك المطلّة على الشارع الجانبي، وعلى المنزل الصغير المقابل لشقّتهم، كان هناك ثمّة شخص يقف خلف ستارةِ نافذته ينظر نحوها، ويراقب قبل أن تنتبه لعودتهن..

صمتتْ كلّ من آمنة وهدى؛ فالقرارُ يرجع لعاليا التي تنحنحت قائلة وكأنّها تحاول إخفاء عدم إعجابها بالمكان: *أاا.. المكانُ حتمًا سيحتاج للكثير من الإصلاحات والنظافة*

قالت السيدة: *كما ذكرتُ لكُنّ، مَن سبقوكُم في السّكن كانوا شبابًا عزّابًا، وأنتنّ تعرفن كيف يتعامل الشباب مع الأوضاع!*

أردفت عاليا قائلة :*لا بأس. ولكنّنا سنتكبّد بعض المصاريف، فهل سيؤثّر هذا على مبلغ التأمين؟*

أردفت ثريا قائلة: *لن أطلب تأمينًا*

استراح وجهُ عاليا التي هزّت رأسها بالموافقة على الفور، فعلى كلّ حال لا يوجد أمامهنّ بديل الآن، ومُجبرات على قبول المُتاح فقالت: *اتّفقنا، سنذهب

لإحضار حقائبنا ونعود ومعنا أجرة الشّهر*

لمعتْ عينُ السيدة فأردفت قائلة بابتسامةٍ عريضة: *لا داعي للاستعجال، يمكنكنّ الدفع عند نهاية الشّهر، انتظروني لحظة*

اختفت داخل الحجرة الكبيرة لبرهة، ثمّ عادت تحمل نسخًا إضافية من المفاتيح المعلقة بسلسلة بها مفتاح الشقة، وآخر لباب الحديقة الخلفيّة، وأخير لبوّابة العمارة كما أوضحتْ لهنّ، وأعطتهنّ أمرًا بغلق البوابة ليلًا.

بنبرةِ استغراب سألتها هدى: *ألا يوجد حارسٌ للعقار؟*

أجابتها ثريا دون النّظر نحوها قائلة: *لا*

فقالت هدى على الفور: *ولكنّنا رأينا حارسًا هنا، وهو الذي دلّنا على شقّتك*

أجابت ثريا مرّة أخرى بنبرةٍ جامدة: *لا بدّ أنّه شخص غريب، العمارة بلا حارس منذ مدّة طويلة*

كادتْ هدى تندفعُ بقول شيء آخر لوْلا تدخّل عاليا السّريع وهي تلتقط المفاتيح من يدِ ثريا قائلة: *حسنًا، لن نتأخّر، سنجلب أغراضَنا ونعود على الفور، شكرًا لكِ سيدة ثريا*

غادرتْ ثريا على الفور، وبينما هي تفعلُ تلاقت عيناها بعينيْ هدى في نظرةٍ نارية كما لو كانت جلدة سوط انحبست على إثْرها أنفاسُ الأخيرة لأقلّ من ثانية، وما أنْ رحلت تمامًا وصعدت الدّرج، وسمعنَ صوت انْغلاق بابها؛ بادرت هدى قائلة: *امرأةٌ مُريبة*

فردّت آمنة وهي تتحسّس عينها المتورّمة: *لا أراها كذلك البتّة*

قالت هدى: *أنتِ لا ترين أيّ شيء من الأساس*

جذبتْ عاليا هدى من ذراعها قائلة باحْتداد: *لا تتسرّعي بفتح فمك دون داعٍ*

حاولتْ هدى إفلات يدِها مصدومةً من فعلتها قائلة: *وما العيبُ في سؤالي؟ رأيْنا رجلًا وأرادت استيضاح الأمر*

مازالتْ عاليا تضغط بقوّة على ذراعها وقد علتْ نبرتُها قائلة: *قُلت لكِ لا مزيد من الأسئلة دون داعٍ*

نهرَتْها هدى واضطرّت لدفعها كي تُفلتها وتدخّلت آمنة حتّى أفلتتها، لحظتها انْتبهت عاليا لما تفعل، وبدا أنّها قد تمادتْ كثيرًا على غير العادة، فمسحتْ على وجهها ثمّ اعْتذرت مُعربة عن أنّها لا تدري كيف استسلمت لغضبها بهذا الشّكل رغم أنّه لم يكن شعورَ غضبٍ حقيقي.

تقبّلت هدى الاعتذار، ثمّ قرّرن الذهاب لجلب أغراضهنّ من هذا النّزل الكريه قبل أن يغشاهنّ اللّيل ويمتْنَ جوعًا.

* * *

أغلقنَ خلفهنّ الباب بالمفتاح، وقبل أن يبلغنَ الطّريق توقّفت عاليا قائلة: *يا الله، نحن لا نملك أيّ مالٍ للرّكوب، ماذا سنفعل! لقد خارت قوانا ولن نحتمّل المشي*

تأفّفت آمنة واسْتغفرت هدى ربّها، وجلسنَ على رصيف الشارع حتّى يتدبّرن أمرهنّ، تلفّتت آمنة حولها فوجدت كشكًا صغيرًا في زاوية الشّارع الجانبي يقف بداخله رجلٌ كبيرٌ في السنّ، فقالت: *ما رأيكنّ، هل أذهب لأستعطف هذا الرجلَ الكبير في جنيْهين نردّهم فورَ عودتنا؟*

التفتتْ لها عاليا باستياءٍ مُتعال: *بالطّبع لا، هل سيكون الاسْتجداء هو بدايةَ تعارفنا على المحيطين بنا هنا! إنّه لفعلٌ مُخزٍ، أهون عليّ أن نترجّل ولا نفعلها*

شهقت آمنة قائلة: *نترجّل! لا يوجد (نَ)، إذا أردتِ ذلك فافْعليه بمُفردك، وستَعودين لتجديننا إنْ شاء الله*

هنالكَ دعتْ هدى ربّها تسأله التّيسير وفكّ الكرب، وما أنْ سمعتها عاليا حتّى قالت لها بشيء من الاسْتخفاف: *وهلْ سينزل علينا ثروة من السماء؟*

قالت هدى وهي على علمٍ بشيطان عاليا الرّجيم: *الله سميعٌ مجيب يا عاليا، لا يعطي إلّا الخير، ولا يمنعٌ إلّا لمنع شرّ*

قالتْ لها عاليا بمزيدٍ من الاسْتخفاف والسخرية: *نعم اختبرتُ ذلك من قبل*

أشاحتْ هدى بوجْهها بعيدًا تسألُ لها الهداية في سرّها، فهي تعلم ما ينطوي عليه قلبُ عاليا من ألمٍ لم تستطعِ التخلّص منه منذ سنوات..

بينما اقْترحت آمنة أنْ يلجأن للسيدة ثريا، وقد لاقى هذا الاقتراح القبول..

توجّهنَ نحو المنزل مرّةً أخرى، وشرعوا في صعود الدّرج، فوقعتْ عينُ آمنة على باب شقتهنّ فوجدتْه موارَبًا!

أوقفَتهنّ قائلة باسْتغراب: *ألم نوصدْ خلفنا البابَ قبل أنْ نرحل يا بنات، أم أنّني لا أرى جيدًا؟* وأشارتْ نحو الباب.

تسمّرن جميعًا بعيونٍ معلّقة على الباب المفتوح، وتبادلنَ النّظرات كلّ منهنّ تبحث عن الجرأة في عينِ الأخرى، وبالطّبع كانت عاليا هي المرشّحة الأقوى، اقتربتْ من الباب الموارَب، ودقّات قلبها تتزايد، فهي ليست قويّةً من الدّاخل كما تبدو من الخارج.

تبعتْها هدى مستعيذةً بالله، ثمّ آمنة التي ردّدت خلفها، ضربتْ عاليا الباب بقوّة حتّى انفتح على مصراعيه، فلم يجدوا أحدًا في صالة الاستقبال، فاقْتحموا المكان وتوجّهنَ صوْب الممرّ ليجدوا السّيدة ثريا تقف متسمرّة بعينين

متّسعتين بين الغرفة الكبرى والأخرى المغلقة وقد تصلّبت دماء عروقِها، وشحب وجهُها، وهنّ أيضًا، فهي مفاجأةٌ للطرفين.

ورغمَ ذلك تنفّسنَ جميعًا الصّعداء، ففي النّهاية لا يوجد شخص غريب.

قالت ثريا بأنفاسٍ لاهثة: *ما الذي أعادكُنّ؟*

أجابت عاليا مستدركة الموقف: *لقد ذُعرنا حينما وجدنا الباب مفتوحًا، والأجواء هادئة، ظنّنا أنّ لصًّا اقتحمَ المكان، نعتذر بشدّة عمّا حدث، ولكن.. ما الذي تفعلينه هنا سيدة ثريا؟ وكيف دخلتِ؟*

ازدردتْ ثريا ريقَها بصعوبة، واقْتربت منهنّ تقول بتعلثُم حاولتِ السيطرةَ عليه، وهي تكوّر كفّيها: *دائمًا ما أحتفظ بالمفاتيح الأصليّة، وأعطي النّسخ للسّكان*

بدتْ على وجوه الفتيات تذكّرهنّ دخولها لبرهةٍ في الغرفة، وخروجها بسلسلة المفاتيح.

فأكملتْ قائلة: *فكّرت أنْ ألقي نظرةً ثانية كي أتذكّر أين وضعت الشّراشف، ويبدو أنّها نُهبت مِن قِبل السّكان القدامى، ولكنْ أأ.. لا تقلقنَ؛ سوف أعطيكنّ من شراشفي*

قاطعتْها عاليا قائلة: *لا، لا عليكِ، فنحنُ لدينا شراشفنا*

هدأتِ السّيدة، وفرضت لحظة صمت نفسها على الجميع قبل أن تبادر ثريا مرّةً أخرى قائلة بهدوء: *لم تقُلْن ما سببُ عودتكنّ السّريعة؟*

تردّدت عاليا في الإجابة وكأنّ عِزّة نفسها تمنعُها، فتولّت آمنة هذه المهمّة، وقالت: *اكْتشفنا أنّنا لا نملك مالًا للرّكوب*

عقدتْ ثريا حاجبيْها قائلة باسْتفهام: *هل سرقكُنّ أحد؟*

كادت آمنة تفضحُ أمرهنّ بسَذاجتها وتلقائيّتها وهي تقول: *العساكر لم يسمحوا لنا بأخذ....)

فقاطعتْها عاليا قائلة: *حدثَ شجارٌ عنيف بيننا وبين بعض المتسوّلات المتبجّحات حيث سرقنَ حقائب أيدينا، وهربنَ، فأبلغنا الشرطة وصرْنا مُفلسات*

قالت ثريا بتفهّم: *آه فهمت، أهذا ما تسبّب في ذلك؟* أشارت على عين آمنة المتورّمة، هزّت عاليا رأسها بالإيجاب.

فأكملت آمنة قائلة: *و.. قد فكّرنا في..*

فهمتْ ثريا الوضع فقالت: *اقتراض بعض المال منّي؟* بدا الخجل عليهنّ، فضحكت مستكملة: *لا بأس يا بنات، أنتنّ مثل بناتي اللّاتي لم أنجبهنّ،

اتْبعنني للأعلى*

وبالفعل، خرجنَ من الشقة وأغلقتْها ثريّا ثمّ صعدنَ معها مرّةً أخرى، ولكن تلك المرّة لاحظت هدى أنّ ثمّة سائلًا أحمرَ جافًّا قليلًا جدًّا رُسِمَ به خطٌّ رفيع على عتبة باب السيدة ثريا، وعادت بذاكرتها إلى الوراء قليلًا، لحظةَ رؤيتها بالقربِ من باب الغرفة المُغلقة، وخُيّل إليها أنها رأت شيئًا من اللّون الأحمر على عتبة باب الغرفة المغلقة.

دخلتْ ثريا على الفور إلى غرفتها، وأطالت بعض الشّيء، ثمّ خرجت ومعها عشرة جنيهات وأعطتها لآمنة.

بدا لهدى أنّ بقايا اللون الأحمر مازالت مترسّبة حول أحد أظافر السيدة فتعلّقت عينها على أصابعِها فسحبت ثريّا يدها على الفور، وكوّرت راحتيْها داخل بعضهما البعض وهي تقول: *يمكنكُنّ ردّها برفقة الإيجار*

ولمّا رحلت الفتيات، تابعتهنّ ثريا هذه المرّة من خلف النافذة حتّى تأكّدت من ركوبهنّ سيارة أجرة.

ظلّت كلّ مِن آمنة وعاليا يتشاورْن طيلة الطريق في أمرِ المبيت، وكيف سيتجاوزن هذه الليلة وسطَ أكوام التّراب المتكدّسة بالرمال، ويحاولن تدبّر أمر وظائفهنّ، فاقترحتْ عاليا أن تتولّى هي مهمّة الذّهاب غدًا لطلب أجازات لهنّ من محلّ عملهِنّ حتّى ينتهينَ من تنظيف هذه الخرابة على حدّ تعبيرها، والحصول على قسطٍ من الرّاحة، بينما كانت هدى شاردةً تهزّ رأسها بالموافقة دون إصغاء.

وصلنَ للنّزل أخيرًا، وتوجّهن نحو موظّف الاستقبال البديل لمَن تمّ القبض عليه، فأخبرته عاليا أنهنّ أتينَ ليلة البارحة قبل هجوم الشّرطة على المكان ببضع دقائق، ولم يستخدمنَ الغرفة مطلقًا، وبناءً عليه لن تدفع شيئًا، وتريد استرداد الحقائب.

ولكنّه رفض، وقال إنّه طالما فُتحت الغرفة فلا بدّ من الدفع، واشتعل فتيلُ شجار بينهما رغم محاولات آمنة الفاشلة في التهدئة، كلّ هذا ومازالت هدى تقف شاردة، وفي النّهاية استتبّ الأمر على دفع نصف القيمة مقابل تسليمهنّ الحقائب التي لم تُفتح على أيّة حال، وأرسل حامل الحقائب لجلبِهم من الغرفة بينما انتظرتِ الفتياتُ في قاعة الانتظار لبضع دقائق حتّى وصلت الحقائب، وراجعت عاليا محتوياتهم، وتمّمت على أموالهنّ، وقبل أن يغادرن رمقهنّ الموظّفُ بنظرة احتقارٍ سخيفة، وتعليق مسيء للشرف.

فكادت عاليا تعودُ لتطبق في رقبته، والشّر يتطاير كألسنة اللّهب المتّقد من عينيها لولا منع آمنة لها حتّى لا يعُدن للمخفرِ من أجل لا شيء، كلّ هذا وهدى شاردةٌ في أمر السيدة ممّا أثار غضب عالياَ التي قالت لها باحْتداد: *أنتِ يا سِيّدة الشرود، ألن تحملي حقيبتك الغبية مثلك؟*

وألقت لها الحقيبة فاستفاقتْ هدى من غفلتها قائلة: *ما الذي حدث؟*

كان سؤالًا يستحقّ أن تغضبَ منه عاليا، فلكمتْها في صدرها قائلة: *أفيقي من دروشتك تلك قليلًا وتولّي أمورك*

كادتْ هدى تلتحمُ معها، ولكنْ ها هي آمنة تقف بينهنّ من جديد قائلة: *استهدوا بالله يا بنات، لقد أصابتكنّ العين!*

تنفّستا بعمق، وكبحت كلّ منهما زمامَ شيطانها، وابتعدتا عن بعضهما قليلًا، حتّى تهدآن، ثمّ قالت عاليا بحنق: *لمَ أنتِ شاردة على هذا النّحو؟*

أجابتْ هدى: *لم يسترحْ قلبي لهذا المنزل، كلّ شيء فيه يدعو للانقباض والاشمئزاز، رائحته وروحُه، كلّ شيء، حتّى تلك السيدة المريبة تدفعني نحو عدم الرغبة في العودة*

قالت لها آمنة: *ما الذي جعلك تقولين هذا؟*

أجابتها قائلة بأنفاسٍ مُضطربة: *أعلم أنكنّ لنْ تصدقاني، ولكنّي شعرت كما لو كنت في هذا المنزل من قبل، ولم يكن شعورًا مريحًا، كما أنّ تلك السيدة لا بدّ وأنّها كانت تفعل شيئًا آخر في الشقّة غير ما صرّحت به، فهل يُعقل أنْ يترك السكّان القدامى ملابسهم ويسرقون الشراشف؟!*

قاطعتْ عاليا بسخريةٍ وحنقٍ قائلة: *ها هي تعود الشّيخة هدى لضلالها القديم، اسمعي يا عزيزتي، لعلّها فعلًا كانت تكذبُ ولم تعرج خلسة للشقة من أجل الشّراشف، ولكنها مازالت شقتها، ولها حرية دخولها حتّى نسكنها*

صمتتْ هدى وأقنعتْ نفسها أنّها ربّما تمادت في ظنونها، ولكنّها لم تتجاهل هذا الإحساس المُرتاب، والذي كان باديًا على وجهها بوضوح.

وما قطع هذا الصّمتَ إلّا كلمات جديدة من عاليا حينما قالت: *حولَ ماذا تحومين يا هدى؟ هل تريدين أنْ نهجر تلك الشقة ونبيت في العراء مثلًا؟*

أجابت هدى برفق: *لم أقلْ ذلك يا أختاه، أردت فقط أن أنبهكنّ أنّ ثمة أمرًا غريبًا أشعر به حيال هذه المرأة حتّى لا ننخدع أو نُنساق إلى شيء نجهله، تمامًا كيوم أخبرتكنّ أنّ الحاج سعيد يتلصّص علينا ولم تصدّقاني لبراعته في الخداع والتخفّي واختلاق الأعذار والمبررات حتّى وجدنا أنفسنا مطرودات ظلمًا وبهتانًا*

تراختْ عاليا لقول هدى فهي تُكِنّ لها حبًّا ومودّة عظيمة، وتعلم جيدًا أنّ هدى صديقة ذات طرازٍ فريد، ومحلّ ثقتها الدّائم حتّى وإن اخْتلفتا، وتثقُ في إحساسها بالأخطار وإنْ تعالت على الاعْتراف بذلك جهرًا.

تنهّدت عاليا بهدوء، ثمّ قالت: *لا تقلقي؛ فنحنُ عُصبة، وإنْ كان لا بدّ لأحدنا أن يقلق فستكون هي لا نحن*

ثمّ حملت حقيبتها واقْتربت من الطريق تبحث عن سيارة أجرة.

***

كانت ثريا تشعلُ السّيجارة تلو الأخرى، وتفرك أناملها ببعضها البعض كبحًا لتوتّرها البئيس، لا تملّ من إعادة محاولة الاتّصال بالشّخص المرجو حتّى أجابها أخيرًا، فقالت بلهف: *أين أنت يا مؤْلانا؟ لقد حاولت الاتّصال بك أكثر من عشرين مرّة!*

أجابها صوتٌ رخيم هادئ يقول: *كنت في عمل، ما الأمر؟*

قالت: *توفّرت لدينا أضاحي جديدة*

قال: *الأسرة التي أخبرتيني عنها؟*

قالت: *بل أفضل من ذلك.. ثلاثُ فتيات مقطوعات من شجرة!*

قال: *كيف عثرتِ عليهنّ؟*

أجابت: *دلّهن عليّ الأمين فتحي، اتّصل بي وأخبرني أنّ ثلاثَ فتيات في طريقهنّ إليّ*

قال: *عظيم، ثلاثةٌ عددٌ كافٍ جدًّا، ليس هناك داعٍ لقلقك البادي على صوتك*

قالت: *اثْنتان منهنّ فقط، أمّا الثالثة فغيرُ مريحة بالمرّة، أشكّ أنّها تشبه ذلك الشابّ الذي كان على وشكِ إفساد الأمر*

صمتَ لبرهة ثمّ قال: *دعيني أفحصهنّ وسأخبرك بما أرى*

قالت: *حسنًا، ومتى يمكنك الحضور؟*

قال: *غدًا عند السابعة مساءً.. هل نثرتِ مَسّ الحماية ومَسّ الولاء؟*

قالت :*نعم، نثرتُ مَسّ الحماية على بابي، ومسّ الولاء على باب الغرفة كما فعلت من قبل، ولكنْ لمّا باغتونني بالعودة لم أنثرْ باقي المَسّ من الداخل، واكْتفيت بالنّثر من الخارج فقط*

قال: *تبدين متوتّرة للغاية، مع أنّها ليست المرّة الأولى، حاولي ألّا تفقدي أعصابك حتّى لا تنْهارين.. الانْهيار يعني الموت يا ثريا*. اختتم جُملته بنبرةٍ مخيفة ثمّ أنهى المكالمة في الحال.

وضعت ثريا سماعةَ الهاتف، ومازال القلقُ ينخرُ في قلبِها، كلّما حاولت السيطرة عليه تفشّى أكثر، ولم تستطعْ منعَ نفسها من ملازمة النّافذة حتّى سمعت صوتَ غلق أبواب سيارة أمام باب العمارة، فتطلّعت لرؤية من القادم.

كانتِ الفتيات الثّلاثة قدْ وصلنّ برفقة سيارة أجرة، عاليا وهدى شرعتا في

دخول المنزل، أمّا آمنة فقد انشقّت عنهنّ نحو منتصف الطريق.

* * *

فتحت عاليا بابَ الشّقة ثمّ دخلت على الفور، بينما هدى بسملتْ قبل الدخول فانْتابتها قشعريرة وزفرتْ بصوت مسموع، فسألتها عاليا متعجّبة: *ماذا بكِ؟*

أجابت: *شعرتُ بانقباض*

ضحكتْ عاليا وهي تطرح حقيبتها أرضًا، وتهزّ رأسها يمينًا ويسارًا كتعبير عن الاسْتغراب فسألتها هدى: *لماذا تسْخرين؟*

أجابتها: *لأنّه من المفترض أنكِ أكثرُنا إيمانًا وعبادة وقراءة للقرآن، فلا بدّ وأن تكوني أكثرنا ثباتًا، وألّا تسيطر عليكِ الهواجس*

أطرقت هدى فأكلمت عاليا: *اسمعي رأي العلم، حينما يُهيّئ الإنسان نفسَه للأوهام؛ فلا عاصم له منها، ولا حتّى القرآن*

حنقتْ هدى فقالت: *كلماتُ الله البيّنات تحفظ الإنسان من كلّ شر، ولا شكّ في ذلك*

مصمصَتْ عاليا شفتيْها، ثمّ قالت: *تمام، وماذا عن اليهود والنّصارى مَن لا يقرأون القرآن، كيف يتعاملون مع الشّرور من وجهة نظرك؟*

أجابتها: *اللهُ يُجير كلّ مَن يلجأ إليه إنْ كان مؤمنًا به وبوجوده حتّى وإن اخْتلفت دروب هذا الإيمان، الله يجيرُ الجميع يا عاليا لأنّه الرؤوف ذو الرحمة*

قالت عاليا: *بل لأنّ العقل والعلم ينْفيان وجودَ تلك الخُزعبلات التي تعشّش في عقلك ويعيش النّاس في مأمنٍ لأنّهم لا يتركون العنانَ لخيالاتهم اللّعينة الجاهلة، والدليل أنكِ تقرئين القرآن ومع ذلك أنتِ الوحيدة التي تعاني الآن من هذه الهلاوس، فهمتِ؟*

قالت جُملتها الأخيرة وهي تدقّ على رأس هدى، ثمّ تركتها وحملتْ حقيبتها نحو الغرفة الكبيرة، بينما هدى مازالت تقفُ شادرة.. لحظات وسمعتْ صوت عاليا تُناديها بحدّة وهي تقف أمام باب الغرفة المغلق.

تجلّت هدى من مقدّمة الممرّ فقالت لها عاليا باستخفاف: *لا شيء على عتبة باب الغرفة، لا لون أحمر ولا أخضر*. ثمّ دلفت للغرفة الكبيرة.

* * *

توقّفت آمنة عند أحد محلّات الأغذية لتشتري بعض المأكولات والمياه المعدنية، ثمّ سألت البائع عمّا إذا كان يعرف فتاة أو سيدة تساعدُ في تنظيف الشّقق، فأخبرها أنّ هناك سيدة تأتي كلّ صباحٍ لتساعد السّيدة إيفون في تنظيف الشّقة والطبخ وخلافه، ولكنّه لا يعرف عنوانها أو هاتف منزلها؛ لذا عليها أن تسأل السيدة إيفون عنها..

فسألتْه آمنة: *وأين هي السيدة إيفون؟*

أجابَها بصوتٍ خفيض وهو يقتربُ قليلًا منها ويشير إلى أوّل الشّارع: *هل ترين هذا الشجر الكثيف حول هذا البيت الملعون؟*

احمرّت عينُ الفتاة السّليمة وهي تنظر نحوَ ما أشار وكأنّه يشير لمنزل السيدة ثريا قائلة بتلعثم: *تقصد منزل السيدة ثريا؟*

بدا على وجهه الضّيق وكأنّه لا يريد نطق اسْمها، ثمّ قال: *نعم عند منزل تلك المغبونة*

فهزّت رأسها بالإيجاب، فأردف قائلًا: *المنزل الصّغير المقابل له هو منزل السيدة إيفون*

ازدردت آمنة ريقَها ثمّ سألته: *عذرًا.. هل لك أن تخبرني لمَ تنعت السيدة ثريا ومنزلها بهذه الألفاظ؟*

بدا الرجل مُمتعضًا بقوّة قائلًا: *أستميحك عذرًا، لا أحبّذ التلفّظ باسْمها أو الحديث عن منزلها*

لم يكنْ وقع كلماته حول ثريا ومنزلها ليمرّ مرورَ الكرام على أذني آمنة التي وقفت شاردة لثوانٍ قبل أن تمدّ يدها لتلتقط المُشتريات في صمتٍ عائدةً إلى المنزل في حالة سهاد عميق.

***

فتحتْ عاليا ضُلف الدّولاب بقوّة وأخذت تبعثرُ محتويات السّكان القدامى بانْفعال، تبعتها هدى في محاولة لرأبِ الصّدع الذي اتّسع بينهما بشكل غير مبرّر منذ وطئت أقدامُهنّ هذا المكان. ولمّا رأت أغراضَ السكان القدامى مُبعثرة راحت تلملمُها من حولها قائلة لها بلين: *هل قرّرتِ النّوم في هذه الغرفة بمفردك؟*

أجابتْها عاليا: *نعم، إذا لم يكنْ لديكنّ مانعٌ أن تتركا لي الغرفة الكبيرة، فأنا أنْتوي وضع مكتبة كبيرةٍ هنا من أجل كُتبي وأبحاثي، وفي الغرفة الصغيرة المغلقة سأضع أدواتي المخبرية، ستكون مختبري الصّغير*

أردفتْ هدى قائلة: *لا بأس، أنتِ تبذلين جهدًا أكبرَ منّا، وتدفعين الجزء الأكبر من الإيجار والمصروفات المنزلية، ويحقّ لكِ الحصول على القسط الأوفر من كلّ شيء*

توقّفت عاليا عن تحرّكاتها المنفعلة، وبدا أنّها قد ندمت على ما قالت، كان يجب عليها الاسْتئذان أوّلًا قبل أن تقرّر منفردةً الاستحواذ على أكبر مساحة في الشقة.

وقالت بنبرة ودّ: *سامحيني يا أختاه على سوء تصرّفي وأنانيتي، ويجب أن

تعلمي أنّ السبب في تحمّلي للنّصيب الأكبر من الإنفاق لأنّني صاحبة الرّاتب الأكبر وليس بهدف الرغبة في الاستحواذ، ولأنّي على علم بطاقةِ كلّ منكنّ، وحجمِ مقدّراتكنّ المادية، ولم أشأ أن أُثْقِل عليكنّ*

ثمّ اقتربت منها واحْتضنتها وربّتت على كتفها، وبادلتها هدى بنفس الحميمية وأغمضت عينيها في محاولةٍ لكبح جماح دموعِها المتجمّعة في مقلتيْها، وما أنْ فتحتهما تراءى لها كأنّ شخصًا ما مطموسَ الملامح والمعالم يشبه الظلّ الأسود قد تجلّى عند الباب يقف ثابتًا مبسوط الذراعين الملطّخين بالدماء.

فانْتفضت شاهقةً مبتعدة عن عاليا، وقد جحظت عيناها المتسمّرة نحو الباب وهي تسمع صوت آمنة يخرُج من فمِ هذا الكائن تقول: *هالله هالله على الحبّ!*

وفي طرفة عين وانْتباهتها اخْتفى هذا الظلّ، واتّضحت أمامها آمنة بنفسها ضاحكة تقول: *لقد عُدت يا عصافير*

التفتت عاليا نحو الصّوت، ثمّ عادت تسأل هدى بتوجّس: *ما الذي أصابك؟*

هنا تنبّهت آمنة أنّ ثمّة أمرًا ما أصاب هدى، فقالت ساخرة: *هل رأيتِ شبحًا أم ماذا يا فتاة!؟*

لم تستطع هدى التغلّبَ على ارْتجافتها وشعرت ببعض الدّوار؛ فاتّكأت على ذراع عاليا التي ساعدتْها على التمدّد فوق السرير لترتاح، ثمّ قالت الأخيرة: *يبدو أنّها مصابة بحالة هبوط في الدّورة الدموية من أثر الجوع؛ فنحنُ لم نذق شيئًا منذ ليلة البارحة*

ثمّ التفتت لآمنة مجدّدًا لتسألها عمّا إذا أحضرت الطعام فأجابت بالتّأكيد قائلة: *نعم وضعت الأكياس بالمطبخ، سأذهبُ على الفور لغسل بعض الأطباق وتحضير الطعام*

تحسّست عاليا نبضَ هدى، ثمّ قالت: *لا بدّ أن تنالي قسطًا من الراحة، سأذهب في الغد لأخذ أجازات لنا جميعًا، فنحن مُنْعبات والمنزلُ سيحتاج إلى جهدٍ في التنظيف*

دخلتْ آمنة في نفس اللّحظة تحمل صينية تعلوها بعضُ المخبوزات والجبن وزجاجة مياه معدنية كبيرة، وقد سمعت حديثَ عاليا فقالت: *لا تحملينَ همّ المنزل سوف أحضر سيدة لتساعدنا، فلا صحّة لديّ على مشاهدتكنّ وأنتن تنظّفن هذا الكهف*

رمقتْها عاليا بنظرةٍ ضيقة وهي تقول: *وحضرتك! ألن تشاركينا المرح؟*

أجابتها: *كيف وعيني بهذه الحال!؟*

قالت لها عاليا: *وهل ستنظّفين بعينك؟*

أجابتها: *لن تتحمّل الأتربة يا عاليا*

حسمتْ هدى هذا الجدال حينما صرختْ بصوتها الضّعيف قائلة: *كفى، كفى*

قالت لها عاليا بقلقٍ واضح: *ماذا أصابك يا أختاه؟ هل تتألمين من شيء؟*

اعتدلت هدى في جلستها، ثمّ هزّت رأسَها بالنّفي قائلة:* بل خُيّل إليّ شيء بشع لم أدرِ ماهيته قبل أن تظهر آمنة عند الباب*

اقشعرّ بدنُ آمنة بينما تأفّفت عاليا مجدّدًا، وفركت جبينها قائلة: *ما الذي حلّ بكِ اليوم يا هدى، أيُعقل أنْ يكون تأثير الإرهاق وقلّة النوم حادًّا لهذه الدّرجة معكِ!؟ أعلم أنكِ مرهقة ونحن أيضًا كذلك، لكنّ حالتك هي الأكثر سوءًا، مدّدي مجدّدًا، فمازال محّك يحتاج إلى مزيد من الدماء والأكسجين*

حاولتْ تمديدها مجدّدًا، ولكنّها أبتْ قائلة: *كم مرّة تعرّضنا لضغوط وقلّة نوم في حياتنا؟.. الكثير، ولم أرَ مثلَ هذه التّخيلات، شيء ما يخبرني أنّ ما أشعر به مختلفٌ عن أثر الإجهاد، شيء ما راودني منذ وطئت أقدامنا هذا البيت الملعون*

.... البيتُ الملعون.... كلمتان حامتا في ذهنِ آمنة منذُ سمعتهما من بائع المخبوزات، فأردفت قائلة: *هذا ما قاله ليَ البائع منذ قليل*

انتبهتْ لها عاليا بتأفّف قائلة: *وماذا أخبرك هذا المختلّ الجديد؟*

قالت: *نعتَ المنزل بالملعون، ونعَتَ ثريا بالمغبونة*

أمسكت هدى بيدِ آمنة قائلة: *وماذا قال أيضًا؟*

أجابت: *امْتنع، ولم أشأ إخبارَه أنّنا السكان الجدد لِما بدا عليه من النّفور من هذا البيت، ومِمّن ينْتمون إليه*

رمقتْ هدى عاليا بنظرةٍ مطوّلة فتجاهلتها الأخيرةُ قائلة: *يبدو أنّ ثمّة خلافًا كبيرًا وقع بينهما من قبْل، عيبٌ عليه أن يسبّ سيدة مسنّة، هيّا.. هيّا فلنأكل ونستريح ونترك هذه الفوضى الآن* مشيرة إلى الملابس المبعثرة.

لم تنتظرْ آمنة على أيّ حال، وبدأت في تناول الطّعام بالفعلِ، وكذلك عاليا، بينما هدى لم تلتقطْ سوى لقيْمة، وعكفت على شرودها فوكَزَتها عاليا قائلة: *كُلي، ريثما تشعرين بالشّبع سيتحسّن مزاجك، المعدةُ ميزان المزاج*

قالت آمنة مُداعبة: *الأكلُ غذاء الرّوح*

ردّت عاليا ممازحة: *ألم يكنِ العلمُ هو غذاءَ الرّوح؟*

أجابت آمنة ضاحكة: *كان، أمّا الآن فباتَ الأكل، هل يستطيع أحدٌ أن يفكّر وهو جائع؟! هاه...*

أومأ بالنّفي، ثمّ قالت عاليا ضاحكة: *وجهةُ نظر تُحتسَب*. فابْتسمت هدى وشرعنَ في الْتهام الطّعام بشراهة.

(أخذتْ آمنة تطلقُ الدّعابات وتذكّرهنّ بالسّويعات الماضية وما حدث في الحجز وهي تصف بشاعةَ اللّكمات المتتالية التي تلقّتها على يد *الخرتيتة* كما نعتتْها وتضحك مدّعية أنّها أوسعتها ضربًا، ووجهُها يشهد بذلك، ثمّ قالت: *لا بدّ أنْ أذهب إلى الحمّام يا بنات*

وتركتْ عاليا تستحضرُ صورة النّقيب زين، وكيف كان وسيمًا، ولا يحمل أصبعُه خاتمَ زواج، وتحسّست صدرها في غفلةٍ من هدى لتطمئنّ على وجود بطاقته التعريفية في أمان.

بينما كانت هدى تقذفُ نظرات منتظمة نحو كومة الملابس الخاصّة بالسّكان القدامى المبعثرة على الأرض، وشيء ما بادٍ من بينها كانت على وشك أنْ تقوم لتحرّي الأمر لوْلا أنْ جاءهنّ صوتُ آمنة المتأفّف من الخارج تقول: *يا للْقرف، البابُ يأبى أن ينفتح*

توجّهنَ لها على الفور، وتبادلنَ المحاولات في فتح بابِ الحمّام الذي كان موصودًا بقوّة.

قالت هدى: *ألم يكنْ مفتوحًا حينما كنّا نعاين الشّقة، مَن التي أغلقته؟*

عاليا: *لم يغلقْه أحد، لعلّها ثريا حينما عادت*

قالت آمنة وهي تكتمُ شعورًا بالمعاناة: *سأفعلها على نفسي*

تأفّفت عاليا من الحيرة، ثمّ حاولت فتحه بالعنف، ولكنّه أبى فلعنتِ الأمرَ فإذا بمقبض الباب يلين في يدِها على الفور، كان أمرًا غريبًا ارْتجف على إثره بدنُ هدى بينما عاليا ظنّت أنها تمكنت منه بقوّتها، ولم تهتمّ آمنة كثيرًا فهي في حالةٍ يرثَى لها فدلفت على الفور بعدما حذّرتها عاليا من غلقِه، وضرورة تركه موارَبًا.

* * *

جلستْ آمنة على مقعد الحمّام، ولم تمرّ أكثر من لحظة حتّى شعرت بعدها أنّ ثمّة شيئًا يتحرّك تحتَ أقدامها، ففزعت من أنْ يكون فأرًا، فهي تخشى هذه المخلوقات بشدة.

ولكنّها لم تجد شيئًا، فأسرعت بتأثير الخوف، وخرجت على الفور متمتمة: *ها قد بدأتُ أنهارُ من التّعب، وستعبث بي التهيؤات!*

عادتْ إلى الغرفة فدخلت عاليا بدلًا منها ولم تكنْ تريد سوى غسل وجهها فلا طاقة لها بالاسْتحمام الآن؛ فهي متعَبة للغاية، وما أنْ فتحت صنبور حوض الماء حتّى خرجَ منه ماء شديدُ الحُمرة؛ ففزعت في نفسها، ثمّ لحظات

وتحوّلت إلى الصّفرة، ثمّ إلى اللّون المعتاد، فقالت في نفسها *لقد صدأتِ المواسير من قلّة الاستخدام*

وحينما خرجت لتدعو هدى للدّخول وجدتها غارقةً في النوم على السرير فلم تشأ أن توقظها وطلبت من آمنة أن تعيد صينية الطّعام للمطبخ بهدوء كي لا تزعجها وتنام في الغرفة الثّانية، أمّا هي فستجاور هدى الليلة.

نفّذت آمنة الأمرَ في الحال ثمّ دلفت للغرفة الصّغيرة المجاورة، وقبل أن تعتلي سريرها فتحت نافذة الغرفة قليلًا من أجل لفحة هواء تُعينها على حرّ اللّيل، فلا توجد أيّ مرواح في الشقة، وحتّى تستأنس بالأنوار الصّعيفة القادمة من الخارج، واسْتسلمت للنّوم فوق السرير الأقرب للنّافذة.

* * *

في المنزل المقابل...

حيث كانت تقفُ السيدة إيفون في شرفتِها خلف الستار، سيدة مسنّة تخطّت السبعين من عمرها، ذات شعرٍ أبيض قصير تتكّئ على عصاها، تعيش بمفردِها بعدما تزوّج ابْنها وابنتها اللّذان يأتيان لزيارتها كلّ أسبوع، وتتولّى رعايتها سيدة تأتيها كلّ صباح، وتتركها عند حلول المساء ولا تجدُ السيدة ما يؤنِس وحدتها سوى مراقبة النّجوم ومناجاة صورة وجه زوجِها المتوفّى في صفحة السماء، وهكذا كانت تمرّ لياليها البائسة ببطء.

حتّى تسكن تلك الشّقة المقابلة في بيت ثريا، فتخفتُ النجوم وتختفي صورةُ وجه زوجها من السّماء، وتتحوّل اللّيالي البائسة إلى أخرى مُرعبة فيهجرها النّوم، ولا تقوى على منع نفسها من مراقبة الأمر.

تعكفُ على مراقبة ما يحدُث خلف تلك الجدران التي شبعت من الموت وتناثرِ الدماء، تتذكر يوم مقتلِ زوجها على يدِ المختلّ عادل، وكيف بدأ الأمرُ اللعين، وإلى ما آل المصير.

عادتْ بذاكرتها إلى شتاء ١٩٩٣..

حينما وطئت لأوّل مرّةٍ أقدامُ هذا العادل أرضَ حيّهم الآمن، كان رجلًا في مُقتبل الأربعينيّات مِن عمره قصير القامة متوسّط البنيان، خمريّ البشرة، لا أسمر ولا أبيض، جاء ليستأجر تلك الشّقة من المهندس رفعت يكن زوجِ السيدة ثريا الذي كان رجلًا مهذّبًا وجارًا عطوفًا وصديقًا مقرّبًا من زوجها جورج.

استمعَ رفعت لقصّة عادل المأساوية وحادثة وفاة زوجته التي كانت تعانى من عذاب العقم لسنوات طويلة حتّى منّ الله عليها بالحمل بعدما جاوزت الأربعين من عمرها ولكنها توفيت أثناء الولادة التي كانت متعثّرة وتبعها الجنين.

لامستْ قصّته ما كان رفعت يُعانيه من مرارة الحرمان من الولد، ورغم أنّ العيب لم يكن من عنده إلّا أنّ حبّه الجمّ لثريا منعه من أن يتزوّج عليها، واكْتفى بها أنيسة وجليسة، كانت زوجته وطفلته المدللة، صبّ عليها جامَ حبّه وعنايته، واسْتثمر فيها ما كان يدّخره لأنجاله الذين لم يأتوا.

تعاطفَ رفعت مع عادل الهارب من جحيم الذّكريات التي باتت تراوده في كلّ ركن من أركان شقّته بالمنصورة، وآثر الابتعادَ عن كلّ ما يُذكّره بزوجته وأيّامهما الجميلة الهانئة الهادئة، وفرحته بحملها ثمّ انكساره بفقدانها هي والجنين، ونقل حياته وعمله إلى القاهرة.

وأتى شهرُ رمضان، وفي إحدى الليالي بعد أن فرغ المصلّون من صلاة الفجر

كان عادل جالسًا في الحديقة المشذبة يتناول كأسًا من الشّاي، ويضع كوبًا آخر ممتلئًا أمامه حينما كان زوجها جورج عائدًا من مزرعته الواقعة على طريق الفيوم يحمل لها أدوية قلبها العليل، وشاهد عادل الذي عَلِمَ بقصّته من رفعت صديقه الحميم، وعلم منه أيضًا أنّ اسمه عادل محمود.

اقتربَ منه جورج بابتسامتِه العذبة قائلًا: *صباح الخير سيد عادل*

كان عادل شاردًا، ولم ينتبه إلّا عندما كرّر جورج التحيّة فبادله التحية بمثلها، ودعاه لمشاركته كأسًا من الشّاي، فلم يتردّد جورج في قبول دعوته.

قال له عادل: *أستأذنك لدقيقةٍ لأعدّ لك كوبًا من الشّاي وأعود على الفور*

استوقفه جورج قائلًا: *ولمَ كوبًا إضافيًّا! هذا يكفي*. وأشار للكوب الآخر الممتلئ.

فقال له عادل بلهَف: *لا.. لا، هذا كوب سميحة*

سأله جورج باسْتغراب: *هل يسكن معك آخرون؟*

أجابه عادل: *بالطبع، تسكن معي زوجتي سميحة، هي غائبة الآن ولكنّها ستعود وقد أعددت لها كوبَ الشّاي بالنّعناع الذي تحبّه، أرجوك انْتظرني لن أغيب*

لمعت عينا جورج بدمعةٍ خفيّة، المسكين يظنّ أنّ زوجته المتوفّاة مازالت على قيد الحياة، وأنّها ستأتي كعادتها تشاركه كوبَ الشّاي.

انتاب إيفون القلق، وسألت نفسَها لِمَ تأخّر زوجها في الطلوع وقد سمعت صوت سيارته تقف أمام المنزل منذ قليل، نظرت من الشرفة فوجدته جالسًا في الحديقة المقابلة، ثمّ رأت عادل يخرج من البوابة حاملًا كأسًا من الشاي فعكفت على مراقبة الأمر.

جلس عادل وقدّم للضيف الكأس، فشكر له جورج حسنَ ضيافته، ولكنّه لن يستطيع المكوث أكثر فللتَوّ لاحظ إيفون في الشرفة، وأشارت له بالصعود، وقبل أن يذهب وجّه له بضع كلمات بنبرة ودودة: *لقد أردتُ فقط أن ألقي عليك التحيّة، وأذكّرك أنّنا في شهر رمضان، إذا لم تكنْ مريضًا فأعتقدُ أنّ عليك الصيام يا ولدي*

بدا عادل مغيّبًا تمامًا، ولم يكن يعي أنّه في الشّهر الفضيل فقال له: *هل نحن في شهر رمضان حقًّا!؟ كيف لم تخبرني سميحة حتّى أشتري لها المشمشية التي تحبّها؟ يا إلهيّ ستحزن كثيرًا، شكرًا لك سيد جورج أنّك نبّهتني*

نظرَ له جورج نظرةً طويلة كأنّه لا يُعزّيه فقط في رحيل زوجته، ولكن في عقله أيضًا، ثمّ ربّت على كفّيه، وتركه متوجّهًا لبيته بعدما عرض عليه خدماتِه، وأكّد عليه أن يلجأ إليه إذا احْتاج لأيّة مساعدة في أيّ وقت، فهو يقطن في

هذا المنزل.. وأشار له عليه.

وتوالتِ الأيام وهُما يراقبان هذا الشابّ كلّ مساء يجلس ليحادث نفسه أمام الشرفة التي اعتاد فتحَها على مصراعيْها خلف الشّجيرات القصيرة المشذّبة، وفي أحدِ الأيام دخل وفي يده فستانٌ وبدا وكأنّه يستعرضه لشخصٍ ما خياليّ يقف أمامه، ثمّ فرَدَه على الأريكة وأخذ يتحدّث إليه ثمّ بدأت تصرّفاته تبدو عنيفة، وصار يصرخ ويُلقي بالأشياء من النّافذة ويجرح نفسه.

أيّامٌ طويلة على هذا النّحو، حتّى قرّر جورج أن يتدخّل ويتحدّث إلى رفعت في هذا الشأن، فأمر هذا الشابّ يتطوّر للأسوأ يومًا بعد يوم، ولا بدّ من استقدام أيّ من أقاربه حتّى لا يظلّ هكذا فريسةً للأوهام والوحدة كي لا يتحوّل إلى مصدر خطرٍ يومًا ما.

وقد قرّرَا في النهاية أنْ يذهبَا معًا للحديث معه..

دقّا بابَ شقته ذاتَ مساء وقد بدا لهما صوتُه يتشاجر مع أحد، وحينما فتح الباب كان عابسًا حنقًا، ألقى عليه رفعت السّلامَ واستأذنه في الدّخول برفقة جورج، فتردّد قليلًا ثمّ نظر خلفه مشيرًا برأسه كأنّه يأمر أحدهم أنْ يختفي بداخل الممرّ خلف السّتار، ثمّ سمح لهما بالدخول.

كان المشهدُ من الدّاخل أكثرَ غرابة حيث اسْتقبلتهما صورةٌ بالحجم الطبيعيّ لسيّدة حبلى لم تسمح زوايا النّظر برؤيتها من الخارج، وأكوام من الصّور الفوتوغرافية متراصّة فوق بعضها في زاوية الحائط، وبعض الوريقات ذات الرّسومات الغريبة والكتيّبات المنكفئة على وجهها.

كانت رائحةُ المكان عفنةً حتّى أنّهما تحاملا على نفسيْهما كثيرًا كي لا تفتضح تعابير الاشمئزاز على وجهيْهما.

أجلسَهما على الأريكة واسْتأذن منهما دقيقة، وكان مضطربًا قليلًا..

جلسَا مشدوهيْن ممّا يرونه فهمس جورج في أذن رفعت المعلّقة عيناه على الصورة العملاقة قائلًا: *هل جاء ليهرب من الذّكريات، أم لينفردَ بها!؟*

كان رفعت مأخوذًا بما يراه، ولم يقوَ على تجاهل تلك الصّورة العملاقة، ووجْهَ السيدة، وبالأخصّ عينيْها، شعر فيهما بشيء غريب، كانت طبيعيّة أكثر من اللازم، ويكأنّها... حيّة.. فضلًا عن قذارة المنزل وتراكُم فضلات الطّعام وتجمّع الحشرات حولها، ثمّ ردّ هامسًا: *الذّكريات التي أسرتِ القلبَ يومًا ما لا تحتاج لمَا يُذكّرك بها، أو يستدعيها فهي تبقى حيّة بداخله أبدَ الدّهر مهْما غاب أصحابها.. إنّ ما أراه هنا رجلٌ لا يحاول اسْتدعاءها أو الانْفراد بها؛ بل رجل يحْياها، أو... يحاول إعادتها للحياة*

تبادلَا نظراتٍ مُرتابة، ثمّ بدا أنّ شيئًا ما قد لفتَ نظرَ رفعت مِن بين أكوام الصّور الفوتوغرافية المُلقاة على الأرض، فتقدّم نحوها ومدّ يدَه مُلتقطًا أحد

تلك الصّور، والتي ظهر فيها عادل برفقة تلك السّيدة التي على الأرجح هي سميحة زوجته التي تملأ صورُها العملاقة المكان، وخلف الصّورة رُسمت نقوشٌ غريبة وكأنّها طلاسم، لم يدرِ رفعت لمَ فعل ذلك، ولكنّه قام بطوْيها وسرقتها، كما التقط بعضًا من تلك الوريْقات ذات النّقوش الغريبة أيضًا، وأخفاها في جيبه.

وبينما جورج يتابع رفعت وتصرّفاته الغريبة، وماذا يطوي في جيبه، ظهر عادل فجأة دون أن يصدِرَ صوتًا، يحمل صينيةً يعلوها كوبان من العصير قائلًا بصوتٍ ثابت حدّ الإرْعاب: *هل تعجبُك الصّور؟*

فُزِعَ الرّجلان والتفتَ رفعت لا يدري ماذا يقول، فبادر جورج بإنقاذ الموقف قائلًا بتلعثم: *لِمَ أرهقت نفسك بجلب العصير؟ نحن لن نُطِيلَ البقاء*

عادَ رفعت على الفور لمقعده مؤكّدًا على كلام جورج قائلًا بصوتٍ مُرتجف حاول السيطرة عليه: *تعال يا بنيّ، لقد جئناك أأأ... لنقول لك شيئًا ونرحل سريعًا*

وضعَ عادل الصّينية فوق الطّاولة الخشبية التي تتوسّط المكان بالقرب من مجلسِهما، ثمّ جلس على المقعد المقابل، كان ذا نظراتٍ ثابتة وصارمة ممّا جعل الرّجليْن يتردّدان في البوح بما جاءا من أجله.

ولكنْ حسمَ جورج الأمرَ بقوله: *إنّنا مُشفقان عليك يا بنيّ، بطريقة غير متعمّدة لاختراق خصوصيّتك نشاهدك كلّ ليلة تحادثُ نفسَك، وتصرخ أحيانًا وكأنّك تعارك أحدهم، لذا فكرنا في مدّ يدِ المساعدة لك، وسنتكفّل بإحضار طبيب نفسيّ لرؤيتك، فما رأيك؟*

ابتسمَ عادل ابتسامةً مُريبة كأنّه دمية بلاستيكيّة لجمت لسان الرجل، ثمّ قال: *مَن صاحب الفضل فيكما الذي اقترح هذا الأمر؟*

تردّد رفعت في قول إنّه هو صاحبُ الفكرة، وأعفاه جورج من ذلك فبادَرَ قائلًا: *أنا.. لقد أتيتنا إلى هنا وحيدًا بلا أهل ولا أصدقاء كي تتعافى من بلْواك، ولكنّك وقعتَ فريسة بين راحتيِ الألم والوحدة حتّى تسلّلت لعقلك الهواجسُ والتّهيؤات، الوحدة تقتُل يا بنيّ، ولو لم نتدخّل الأن لا ندري ما الذي قد يحدُث فيما بعد، أتفهمني يا بني؟*

هزّ عادل رأسه بالموافقة بذات الابتسامة المُريبة والعينيْن المتسعتيْن الثابتتيْن، لا يُطرف لهما جفن، فربّت جورج على فخذِ رفعت ليحثّه على الرّحيل قائلًا: *ها.. قد أخبرْناك بما جئنا من أجله، وبمشيئة الربّ سوى نزورك غدًا برفقة الطبيب*

وهمّا بالرّحيل، وأوْصلا نفسيْهما للباب، بينما ظلّ عادل واقفًا يتابع رحيلهما بذات الابتسامة.

وما أنْ غادرا موصدينَ خلفهما الباب، انْكمشت ابتسامتُه على الفور، وبدا مغيّبًا وهو يتّجه صوبَ الغرفة الصّغيرة في نهاية الممرّ، ودلفَ إليها ثمّ أغلق البابَ بقوّة، واستلقى داخل تلك الدّائرة أمام الجدار.

* * *

تنفّس جورج الصّعداء عقبَ مغادرتِه تلك الشّقةِ الكئيبة حتّى إنّه شعرَ ببعض الدّوار فأسنده رفعت، وصاحَ على الحارس قائلًا: *يا سعد، يا سعد*

ظهرَ سعد الذي أتَى مهرولًا من الخارج، رجلٌ خمسينيّ يرتدي جلبابًا رماديًّا وعمامة رأس، أسمر البشرة، طويلُ القامة، عريض الكتفين، قائلًا: *تحت أمرك يا (بشمهندس)*

طلبَ منه رفعت أنْ يُجلب كرسيًّا لجورج، ولكنّ جورج أبى أن يمكثَ بالقرب من هذه الشقة، وأشار له أنْ يُخرجه، وبالفعل جلسا برفقةِ سعد على باب جراج العمارة البعيد عن حديقة هذا الشابّ وشقّته وسمعه وبصره.

جلبَ سعد بعضَ الماء لجورج الذي عاين السّماء بنظراتٍ مُرتابة قائلًا: *لمَ السّماء معتمة اليوم أكثرَ من ذي قبل؟*

فأخبره رفعت أنّها ليلة خسوف، ثمّ وجّه سؤاله لسعد قائلًا: *قل لنا يا سعد، ألم تلحظ أشياءً غريبة على هذا الرجل *عادل*؟*

تردّد سعد قليلًا، ثمّ قال في النّهاية: *والله يا أستاذ رفعت لقد لاحظتُ الكثير، ولكنّي خشيت أن أخبرَك كي لا تنعتني بالمجنون!*

قال له رفعت: *احْكِ لنا ما شاهدته وما سمعتَه*

ارتجفت شفتاه قليلًا، ثمّ قال: *إنّه يخاوي الجنّ*

اعتلت قسمات الرّجلَيْن الدهشة، وأنصتَا باهْتمام، وحثّاه على أن يكمل حديثه، فازْدرد سعد ريقه قائلًا: *يُفضّل أن نتحدّث في غرفتي داخل الجراج*

تبعَه الرّجلان للداخل، وما أنْ دلفوا إلى الغرفة، وأوصد سعد البابَ انْطلق لسانُه بسرْد ما رآه..

* * *

اعتدل عادل من جلستِه داخل الدّائرة متأفّفًا حنقًا غاضبًا، فلم ينل مراده بعد، ولم يتحقّق ما صبا إليه، ثمّ صرخَ بصوتٍ مكتوم وهو يلكُم الجدار قائلًا: *لماذا تأبى مساعدتي؟، لماذا لا تريد تحقيقَ مرادي؟، لقد فعلت كلّ شيء لأسْترضيك أيّها الشيطان الأشِر، قدّمت لك الابْتهالات وكفرتُ بربّي وإيماني، ما جررتني سوى إلى مزيدٍ من الخيبات، صرت مجنونًا مختلًّا في نظر النّاس، لقد تعهّدت لي بالمساعدة إذا طاوعتك وقد فعلت، فعلتُ أكثر ممّا طلبت، وتحمّلت رؤية وجهك القميء أيّها المخادع الكذاب*

ثمّ بكى قائلًا وهو يترك جسدَه ليهوي على الأرض: *أريد زوجتي وولدي حقيقة لا صورة جامدة على الحائط تتحرّك كلّ مساء ثمّ تخمد في الصباح، لماذا لا تريد أن تجمعني بهما، أريد استعادتهما إلى الحياة مرّة أخرى كما وعدتني، لماذا تأبى؟ لماذا؟*

خُيّل إليه أنّ ظلًّا ما أرخى ظلامه على المكان فابتعد زاحفًا عن الجدار، وأسند نفسه على الجدار المقابل وهو ينتظر بلهف الاستجابة، ثمّ بدأت أشكالٌ غريبة تظهر على الحائط كأنها الشمس والقمر والأرض، ثمّ أخذت الأرض تعلو وتعلو حتّى حجبت نور الشمس عن القمر فأظلم الأخير وأظلم كلّ شيء.

اتّسعت عينا عادل وهو يحاول فهْمَ الإشارات، وفهْمَ أنّه أمر يتعلّق بالقمر واختفائه، أو... خسوفه..

(كان عادل رجلًا مثقّفًا ومتعلّمًا وثريًّا، عمل في التجارة، أي ليس جاهلًا حتّى لا يفهم الإشارة، وفطِنَ لمغزى رسالة الشيطان، وقرّر أن يتبع خطواته حتّى الرّمق الأخير..)

* * *

أخذ سعد يروي ما رآه، وشهدت عليه عيناه قائلًا وارتجافةٌ خفيفة لا تفارق أنامله وشفتيْه:

*منذُ حضر هذا الرّجل في بداية العام وأنا أسمع وأرى فيه أمورًا عجيبة، لا يغادر الشقة إلّا لقليلٍ من الوقت يقضيه في الحديقة، دائم التحدّث لنفسه، ومع نفسه، شديد الغموض، ودائمَ الصّمت، لا يُحادث أحدًا.. حتّى أنا، إذا أراد شيئًا كتبه لي في ورقة، ولا يسمح لي- ولا لغيري- بدخول الشقّة لأيّ سبب، حتّى وإن كان محصّل الكهرباء، كان يقرأ هو العدّاد ويخبره، لا يُلقي سلامَ الله، ولا يردّ التّحية بالله، حتّى الشّهر الكريم لم يكن يصومه.

وذاتَ مرّةٍ ترك الشقّة لبضع ساعات، وجاء وبيدِه مجموعة من الكتب، وفجأة تعثّرت قدماه في حجرٍ تركَه أحدُ أطفال الحيّ عند عتبة الباب بعدما انْتهوا من لعب الكرة، وقد بدا وكأنّه فاقد الشّعور أو مغيّب، فسقطت من يدِه الكتب، وهممتْ بمساعدته، ولكنّه نهرني بقوّة، ولم ألحظْ سوى عنوانيْن لكتابين؛ الأوّل (تحضير الأرواح)، والثّاني اسمه (الكيان الملعون).

كانت نظراتُه لي حادّة ومُتتالية ليختبر قوّة ملاحظتي، وإنْ كنت الْتقطت شيئًا أم لا، فطنت حينها لذلك، وتمكّنت من تضليله مدّعيًا ضَعفَ النّظر قائلًا: *أنا آسف سيد عادل، لم ألحظْ وجود الحجر لضعف نظري*

انْطلت عليه الخدعة، وهدأت نظراتُه نحوي ولم يعقّب، فقط لملم أشياءه ودلفَ إلى شقته في صمت.

وتوالتْ أيّامه وشهوره، وكلّما طالت المدّة كلّما تزايدتْ أفعالُه الغريبة،

وشحب وجهُه، وصارت نظراتُه أكثرَ إرعابًا، حتّى أنّني أصبحت أخشى الاقْتراب منه، وصرت أتجنّبه..*

قاطعَه رفعت سائلًا: *هل تذكر احتواء منقولاته على صور كبيرة الحجم داخل براويز؟ فأنا لم أكنْ حاضرًا وقتها*

أطرقَ سعد ثمّ أجاب قائلًا: *لا، لم تحتوِ منقولاتُه على أي صورة كبيرة، حينما أتى أوّل مرّةٍ لم يحملْ سوى حقائب عاديّة لأغراضه لا تسعْ هذا الحجم الذي تذْكره*

مالَ جورج على أذن رفعت سائلًا: *ما فائدة هذا السؤال؟*

أردفَ رفعت قائلًا: *سمعتُ ذاتَ مرّة أنّ السحرة يقومون بتحضير الأرواح على صور الناس، وسمعت أيضًا أنّ الأطياف تتلبّس تلك الصور، والعياذ بالله*

همسَ له جورج باسْتغراب: *حقًّا؟*

رفعتْ مؤكّدًا: *نعم؛ لذا لا يفضّل تعليق صور آدمية في الغرف*

جورج: *ولكنّنا نعلّق صورنا وصورَ أولادنا، ولا نشعر بشيء*

رفعت: *هذا إنْ كان أهلُ البيت في حالة طبيعية، بل والبيت نفسه أيضًا هادئًا، أمّا لو كان الأمر عكسَ ذلك فحتمًا لن تكن النّتيجةُ جيدة*

عقدَ جورج حاجبيْه يفكّر ويستنتج، ثمّ طرح سؤالًا آخر: *وما الذي جعلك تفكّر أنّ تلك الصورة التي رأيناها عندَه بالداخل مَمْسوسة، أو بها شيء غريب؟*

قال رفعتْ متلعثِمًا: *لا أدري، فقط شعرت أنّها تنظر نحوي مباشرة، أو تتبع تحرّكاتنا أيْنما التفتنا، مجرّد شعورٍ لعلّه خاطئ، ولكنّها أساطير لطالما سمعْناها، ولا دخان بلا نار، وسعدٌ قد أكّد بكلامه أنّه يمتلك كتبًا مُريبة، وانْظر لهذا أيضًا...*

أخرجَ من جيبِه الأوراق والصّورة التي سرقها من شقّة عادل منذُ قليل، وأعطاها لجورج قائلًا: *هذه الوريْقات تحتوي على طلاسم مكتوبة بخطّ اليد، وهذه الصّورة التي تجمعه بزوجته دُوّنَ عليها كلمات مقلوبة ورسومات عجيبة وأرقام، تُرى ماذا يفعل بها؟*

شردَ جورج في الوريْقات والصورة، وقد عجز عن إيجاد الإجابة، فقال له رفعت: *هذا الرجل يلعبُ لعبة خطرة، الجنّ مذكور في القرآن، وفي كلّ الكتب السّماوية، وكلّ الأديان تعترف بوجودِه، ومحظورٌ علينا اتّخاذهم أولياء، واستدعاؤهم لأيّ كان، ومن يفعل ذلك خاصّة لو كان رجلًا غشيمًا غير محنّكٍ مثله؛ فسيجرّ على نفسِه- وعلينا- بلاءً عظيمًا*

ثمّ التقطَ الوريْقات من بين أصابع جورج الذي مسحَ على وجهه كأنّما أراد أن

يستفيق ممّا هو فيه، إنّه كابوس مُرعب بلا شكّ، لعنة هبطت على المكان، وكلّما تُركت بلا مقاومة ستستفحلُ ولن تُبقي على أحد.

ثمّ تنهّد قائلًا: *وما هي خطّتك؟ كيف سنتخلّص من هذا المختلّ؟*

أطرقَ رفعت كأنّه لا يدري ماذا يجبُ عليه أن يفعل، فتطوّع سعد باقْتراح: *لو تسْمَحا لي يا سادة، فيُمكنني اسْتدعاء شخصٍ من قريتي بالحرانية قدْ يستطيع مساعدتنا في حلّ تلك المشكلة*

قال رفعت: *مَن هو؟*

أجابَ سعد: *الشيخ رابح، رجلٌ تقيّ، مكشوفٌ عنْه الحجاب، يعالج بالقرآن مَن كلّ ممسوسًا، ولا يتقاضى أجرًا على ذلك، إنْ وافقتما فسأتّصل به في الحال، وأخبره أنْ يحضر صباح غدٍ*

لم يكنْ باليدِ أيّ حيلة، رغم تشكّكِهما في صدق ادّعاء هذا الذي ينعتُه سعد بالشّيخ، لكنّهما لا يمْلكان حلًّا بديلًا، فقال جورج: *وليكن، فالمساءُ بدلًا من الصباح، فيجب أنْ أباشر المزرعة اليوم، وسأعود بعد الفجر، ولا بدّ أنْ أرتاح بعدها كي أستطيع متابعة الأمر*

أومأ رفعت بالموافقة، وانفضّت الجلسة، وصعدَ كلّ منهما إلى شقّته.

* * *

كانتْ إيفون في انْتظاره على العَشاء كالعادة حينما أخبرها جورج بكلّ ما حدث وما سمعه، وما رآه كعادته، فاقشعرّ بدنُها وزادت حدّتُها حينما أخبرها أنّه سيتوجّب عليه السفر اليوم إلى المزرعة، وأنّه سيعود عند الفجر، فأردفت قائلة: *قلبي ليس مطمئنًّا لسفرك اليوم يا جورج*

نظر لها مستغربًا، ثمّ قال: *هذه المرّة الأولى التي تقولين فيها ذلك، أنا أذهب وأعود منذ سنوات والطّريقُ دائمًا آمن، إنّها الفيّوم يا إيفون!*

قالت: *لا أدري، فقط أشعرُ أنّه يتوجّب عليك البقاء*

ابتسمَ لها وهو يربّت على يدِها: *لا تقلقي يا حبيبتي، لن أتهوّر في القيادة*

(لم يستمعْ جورج لنصيحتِها، وتركها بعدما انْتهوا من تناول العَشاء وغادر.. غادر إلى الأبد، وكانت تلك هي ليلتَهما وعشاءهما الأخير، أتى الفجر ورجلَ مقْتولًا على يد هذا السّفاح الآثم، سمعت صرخته وهو يئنّ ولم ترَ سوى اللّحظة الأخيرة، وعادل يقف ممسكًا بسكّينه يتراجع للوراء، ويدُ زوجها ممتدّة له طلبًا للعوْن والنجاة، ثمّ أفلت السّكين وأمسك بجسده الذي صارع الموتَ حتّى صرعه الموت وأرْداه قتيلًا، وهرب عادل وبحوزتِه السّكين تاركًا جورج غارقًا في دمائه)

استفاقت إيفِون من ذكرياتِها المؤلمة حينما لاح من خلف السّتائر هذا الظلّ

المَهيب، ظلّ أسود ظهرَ في صالة الاسْتقبال، المكانُ الوحيد في الشّقة الذي تكشفه شرفة إيفون، أخذ يذهب ويعود، يختفي ويظهر، يبتعدُ ويقترب، وإيفون تتابع بعينيْن متّسعتين عن آخرهما، والقشعريرة تتسلل لكامل أطرافها رويدًا رويدًا، وفجأة ظهر الظلّ تمامًا أمامَ النّافذة متطلّعًا في وجه إيفون، أسود اللّون ذو عينيْن حمراويْن، بشع، كريه، مسخ مشوّه.

سقطتِ السّيدةُ العجوز من فوق مقعدِها من هوْل الفزعة، ثمّ أسرعت بغلْق النافذة، وراحت تستجيرُ بالله.

***

وفي شقّة البنات...

كانت آمنة تغطّ في نوْمها كالتي لم تنمْ منذ مائة عام، ولم تشعر بأنّ شيئًا ما جلس يراقبها فوق السّرير المجاور لها، في صمتِ الأفاعي وخبثها أخذَ يقترب منها شيئًا فشيئًا، حتّى اعْتلى صدرها وهو مُعلّق في الهواء وأخذ يتشمّمها.

تقلّبت ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال وهي تستشعر سخونة شديدة، حتّى استقرّت في نومتها على ظهْرها، أنزل يدَه على صدرها ببطء فشعرتْ بقبضةٍ في القلب، وضيقٍ في النفس، ولكنّها حاولتْ تجاهل الأمر، فالنّوم سلطانٌ جائر، أخذ الأمرُ يزداد وباتتْ تشعر أنّها مقيّدة اليدين والقدمين.

إحساسُ الاخْتناق يزيد، وما زادَه بشاعةً شعورُها بأنّ أحدهم يكمّم فمها فلا اسْتطاعت الصراخ أو الاسْتنجاد، ولا حتّى أنْ تفتح عيونها وتنقذ نفسها، لم تقوَ إلّا على إفلات بعض الأنّات الضّعيفة، ومع الكثير من المقاومة تمكّنت من مباعدة جفون عينها المتورّمة قليلًا، وبدتْ لها هيئة مشوّشة بفضل التورّم، وشعرت أنّها كالنّائمة التي تحلم، ورغم أنّها كانت نصف مغيبة إلّا أنّها حاولت ذكرَ الله، كان الذكرُ ثقيييلًا، وكأنّها تجاهد شللًا تامًّا أصاب لسانها فذكرت بقلبها حتّى خفّفت تلك القيود من قبضتِها العنيفة تدريجيًّا، وتحرّر فمُها فأفلتت صرخة مسموعة بعض الشيء.

* * *

في الغرفة المجاورة

كانت هدى تتقلّب هي الأخرى، بينما عاليا نائمة كالقتيلة لا تشعر لا بتقلّبات هدى ولا بأنّات آمنة.

وما بين النّوم والصّحيان خُيّل إلى هدى أنّ أحدهم يئنّ بأنفاسٍ مقطوعة، فاعْتدلت في جلستها وأخذت تتنصّت لعلّه صوت قطة، ولم تكُنْ قطة، فاسْتعانت بالله، وقامت تتبع مصدر الأنّات، فقادتْها قدماها نحوَ غرفة آمنة المُعتمة إلّا من قبسٍ ضعيف من النّور مُنعكسٍ من مصدر ضوء خارجيّ عبر النّافذة المفتوحة، تمشّت بخطًى بطيئة وهادئةً، وكلّما اقْتربت كانت تتزايد ضربات قلبِها، وتشعر بسخونة لا تعرف مصدرها.

شعرتْ للحظةٍ أنّ خطواتها ثقيلة كأنّها تمنعها من التقدّم أكثر، ولكنّها قاومت وأصرت حتّى أصبحتْ قابَ قوسين أو أدنى، وما أنْ وصلت لعتبة باب غرفته آمنة وأمعنتِ النظر، نتأت حدقاتها حتّى كادتَا تبرزَا من محجريْهما وهي ترى انْكفاءً ما يبدو كالظلّ الأسود فوق جسد آمنة.

لحظاتٌ أمرّ من المُرّ تلك التي عاشتْها هدى قبل أن تتوسّل لسانَها أنْ ينطق باسْم الله، وصرخت قائلة: *باسْمك اللّهمّ يا حيّ يا قيوم، أغيثنااااا*

انتفضتْ آمنة شاهقة، وانْكمش الظلّ حتّى تلاشى في طرفةِ عيْن، فأسرعتْ هدى بإنارة الغرفة وهرولتْ نحو آمنة، وضمّتها وهي تتْلو بعضَ آيات الله الحافظات.

كانت آمنة تقفُ وكأنّها مصابةٌ بالحمّى، وتتشبّث بهدى بقوّة، وتُتعتع قائلة: *ك.. كابوس فظيع، كابوس فظيع*

أخذتْ هدى تربّت على كتفِها، وتزيد من ضمّها وتطمئنها..

كانتْ هدى تهدّئها وهي في أمَسّ الحاجة لمَن يهدّئها، ولكنّها اسْتعانت بالقويّ المتين؛ فأعانها وثبّت أقدامها.

أكثر من ثلاثين دقيقة، ومازالت هدى تجلسُ بجوار آمنة حتّى تتمكّن من العودةِ إلى النوم، ونامتِ الأخيرة مجدّدًا، بينما ظلّت عينُ هدى مفتوحةً، وقد هجرها النّوم، صارت تستغفرُ الله وتذْكُره كثيرًا حتّى هدأتْ نفسها، وزال ما بداخلها من خوف، ثمّ شعرتْ بالعطش فنهضت برويّة وتوجّهت نحو المطبخ تبحثُ عن شربة ماء.

وقبلَ أن تخْطو خطوةً داخل المطْبخ لاحَ لها خيالٌ على طرف جدار الممرّ القريب من صالة الاسْتقبال، كان الخيالُ يعلو وينخفض، ولا هيئة واضحة له، فسرى في جسدها الرجف وهي تقتربُ برويّة، وعلى حذرٍ تنصت لصوت حفيفِ الشّجر القادم من الحديقة فاسْتنبطت أن النافذة مفتوحة، وخشيت أنْ

يكون هناك لصٌّ مختبئ، فظهرت بغتةً في اتّجاه الخيال فلفحها شيء في وجْهها بقوّة، وسقطت هدى في براثن بشريّتها الطينية، فصرختْ صرخة عالية أيقظت النّائمين..

انتفضتْ عاليا من سُباتها العميق، وركضت آمنة في اتّجاه الصّرخة لتجد هدى جاثية على الأرض تبكي وترتجف، فأخذتْ تهدّئها وتسألها عمّا حدث بالضبط، خرجت عاليا من غرفتها نحْو الصّالة بخطواتٍ ثقيلة فهي دائمًا ما تحتاج إلى القليل من الوقت بين النوم واليقظة لتدرك أنّها حيّة تُرزق، ثمّ قالت بصوت مُختنق من أثر النوم: *ماذا بكنّ يا بنات؟ هل رأيتنّ شبحًا!*

أعانتْ آمنة صديقتَها على النهوض، وأجلستْها على أحد المقاعد، وذهبت لتحضر لها كوبًا من الماء، بينما شرعتْ عاليا في إنارة مصابيح الصّالة، وشعرت بشيء من البرودة، فأغلقت النافذة الكبيرة المطلّة على الحديقة.

ثمّ اقتربتْ من هدى التي جلست منكمشةً فوق مقعدها ترتجف، وقالت لها: *ماذا بكِ يا أختاه.. هل أصابك مكروه؟*

(مشاعرُ مضطربة مُتداخلة تلك التي شعرت بها هدى حيالَ عاليا في تلك اللحظات، فهي تعلم مُسبقًا أنّها ستستخفّ بأيّ شيء ستقوله، خاصّة وإن كانت من نوعية *خُيّل إليّ*، وستجد عشرات التّفسيرات المنطقيّة لكلّ حدث غير منطقيّ، فهذه هي عاليا لا تؤمن إلّا بكلّ ما يمكن إخضاعُه لقوانين العلم، وقياساته، وما يتمّ رصدُه بالعين، حتّى أنّها باتت تشكّك في وجود الملائكة والجنّ، وقد يتفاقم معها الأمرُ يومًا ما إلى ما هو أبعد من ذلك)

كانت آمنة قد عادت، وبيدِها كأسُ الماء فشربته هدى عن آخره، ثمّ قالت: *لا شيء، ورقة شجر لفحتني في وجهي*. مشيرة نحو الممرّ، فنظرن ليجدنَ ورقة شجر كبيرةٍ ملقاة على الأرض.

قالت آمنة بانْدهاش: *هل كانت الريح قويّةً إلى هذا الحدّ حتّى تُلقى بورقة شجر مثل هذه عبْر النّافذة، وحتّى الممرّ؟ نحن في فصل الصيف*

أجابتْها عاليا: *نعم، الأرصادُ أنذرت أنّ هناك عاصفة ترابية ستضرب البلاد، ولعلّ تلك مقدّماتها*

ضربَ الصّمت جنباتِ المكان فآمنة تحمل شيئًا، وهدى أيضًا، ولا تتجرّءان على مصارحة عاليا التي كانت تراقب نظراتهنّ المختلسة لبعضهن البعض.

(ولطالَمَا كانت عاليا ديكتاتورة ذكيّة، لديها حسٌّ سيطرة عظيم تعلّمته منذُ طفولتها حينما كانت في المدرسة، وكانت تجلس بجوار زميلتيْن في الفصل، وكانتا يجبرانها على الجلوس على طرفِ المقعد، ويجعلانها منبوذةً مستبعدة من أحاديثهما الجانبية، ودائمًا ما كانت الجالسة في المنتصف هي صاحبة السيطرة.

ّ

عانتْ عاليا من طفولةٍ مشوّهة، وما زاد الطين بِلّة ما عانته في فترة المراهقة.. ومِن حينها وهي لا تدعُ مجالًا لتشكيل أيّة جبهة ثنائيّة تتحاشاها، وتسعى دائمًا لأن تحتلّ المكان الأوسط بين الطّرفين)

كسرتْ عاليا حاجزَ الصّمت وهي تقترب من هدى قائلة بحنوٍّ زائد: *أنتِ نقيّة للحدّ الذي يفضح كذبك يا هدى، وأنا لم أعتدْ منكِ على ذلك، أخبريني يا حبيبتي.. ما الذي أرعبك إلى هذا الحدّ؟*

قالت لها هدى وقد خَلُصت من ارْتجافتها وتماسكت: *وإنْ أخبرتك هل ستصدّقين؟*

رفعَتْ عاليا جاحبيْها كالتي تقول سأحاول..

كادتْ هدى تروي ما رأته، ولكنّها خشيت أنْ تُصيب آمنة بالذّعر، وتُشِقّ عليها، ولا تقوى على النّوم مرّةً أخرى، فهي تعلم كم هي ضعيفة الأعصاب، وفكّرت للحظةٍ بعقل عاليا ووضعت بضعةَ احْتمالات منطقيّة، لعلّ استفاقتها المفاجئة قد سبّبت لها تشويشًا في النظر كالذي يحدث غالبًا في الدّقائق التي ما بين النّوم واليقظة، لعلّ الظلام وسنا الضّوء المنعكس من الأنوار الخارجية والشّجر؛ قد رسمَ لها منظرًا مُرعبًا وليس بحقيقيّ، لعلّ.. ولعلّ، والكثير من الاحتمالات، فآثرت ألّا تتسرّع بالبوح بما تستشعر في هذا المكان.

فقالت: *لا شيء، لا شيء البتّة*

تنفّست آمنة الصعداء وهي التي حبست أنفاسَها في اللحظات القليلة الفائتة كي لا يتأكّد لها ما وقعَ في نفسها هي الأخرى جرّاء ما راودها أثناءَ الليل في نومها، ولكنّها الأقلّ رباطة للجأش فأردفتْ قائلة: *أمّا أنا فشعرت بما يطلقون عليه الجاثوم يا بنات*

انتبهتْ لها عاليا قائلة باسْتعجاب: *ما هو هذا الجاثوم؟*

قالت آمنة: *يقولون إنّه نوعٌ من الجنّ يباغت النائم، ويُطبِق على صدره، فيُشعره أنّه مقيد الأطراف، ومُصابٌ بالشّلل، لا يقوى على الاسْتيقاظ ولا الحركة ولا النطق*

ارْتسمت على وجْه عاليا ابتسامةٌ جاهدت في إخفائها، ثمّ قالت: *إنّها حالة عارضة نتيجة اضْطرابات في النّوم، تسمّى شلل النوم، وهي حالة كشفَ عنها وفسّرها العلم، ولا وجود لمَا يسمّى الجاثوم، نحنُ فقط وبقيّة الكائنات الحيّة المرئية مَن نحيا فوق سطح هذا الكوكب*

أردفت آمنة قائلة: *بل والجنّ أيضًا.. الجنّ يحيا قبلنا فوقَ هذه الأرض، ولا يمكن إنكار ذلك*

تأفّفت عاليا قائلة: *هذا ما تقرؤونه في الكتب والرّوايات، وتسمعونه في

الحكايات الشعبية المؤروثة، نوعٌ من الفولكلور الخيالي لإخافة الأطفال*

التفتتْ لها هدى قائلة: *الجنّ مذكور في القرآن يا عاليا، حتّى أنّ نبيّ الله سليمان قد حاربهم واتّخذ عليهم عهودًا، وما نزل به الملكان هاروت وماروت من سحرٍ كان يتولّى تنفيذه الجن، حتّى أنّ نبيّ الله عيسى كان يشفي بأمر الله كلّ مَن كان به مسّ من الشياطين، ونبينا محمّدٌ- صلى الله عليه وسلم- تحدّث عنهم وعنْ وجودهم إلى يوم الدين في أحاديث كثيرة، وفي القرآن أتى ذكرُهم في كثيرٍ من المواضع، ومنهم المؤمن والكافر*

قاطعتْها عاليا قائلة: *ولا يراهم أحد، ولكنّهم يرونا من حيث لا نراهم، أليس كذلك؟*

صمتتْ هدى لبرهة، ثمّ قالت: *بلى، إلّا إذا تمّ استدعاؤهم من قِبَل الإنس*

فقالتْ عاليا: *وهل استدعاهم أيّ منّا؟*

أطرقتْ هدى ثمّ قالت: *لا*

فأردفتْ عاليا قائلة بحنْق: *فلا وجودَ لهم إذًا، وهذه مجرّد خيالاتٍ وأوهام من أثر الإجهاد*

ثمّ تنهّدت قائلة: *أرى أنْ تتخلّيا عن تلك المُعتقدات، فمثلُ هذه الأمور إنْ وجدت فهي بكلّ تأكيد معقّدة للغاية، ولا تنتشر هكذا بلا سبب*

ثمّ أبطأت بنبرةٍ خبيثة قائلة: *خاصّة لمَن كانوا دائمي الذّكر*

لم تنتظرْ عاليا ردًّا؛ لا مِن هذه، ولا من تلك، وتركتهما غارقتيْن في صمتهما يتبادلان النظرات قائلةً لآمنة: *سأذهب إلى الحمّام، ومن ثمّ سأتجهّز للرّحيل، فالنّهار على وشك الانْبلاج، أسرعي بتحضير الإفطار، فيجب أنْ أغادر مبكّرًا، فمكانُ عمل كلّ منّا يبعد كثيرًا عن الآخر، ولا بدّ من أخذ أجازة جماعيّة، فلدينا الكثيرُ لنفعله في هذه المغارة حتّى تعود منزلًا يليق بسُكْنى البشر*

(قاسيةٌ هي كقسوة الأيام، ولا يولَد الإنسان قاسيًا، ولكنّها طعناتُ الخذلان المتكرّرة تقتل ما فُطِرَ عليه قلبُه من الرّحمة، ولكلّ منّا سعةٌ من الاحْتمال، فليسَ كلّ مَن فقد شيئًا قادرًا على إعطائه.. عاليا ولطالمَا كانت عاليا، فتاةٌ لا تعترف بالخسارة، ولكنّها لا تقوى على تحقيق المكاسب أيضًا)

* * *

دلفتْ عاليا إلى غرفتها، وأزاحت متعلّقات السكّان السابقين التي بعثرتْها ليلة أمس بقدمِها، ثمّ رفعَتْ حقيبتها فوقَ السّرير لتخرج فستانها وبعض أدوات التجميل والصابون ومشط الشعر ومنْشَفة، ثمّ تركتهم على طرف السّرير وخلعتْ ملابسها، فسقطت البطاقة التي أعطاها لها النّقيب زين من صدريّتها، فأسرعت بإخفائها تحت وسادتها وتوجّهت بالمنشفة إلى الحمام كي تغتسل..

دخلتْ عاليا الحمّام موصدةً الباب، وقد نسيت أنّه خَرِب، ثمّ بحثتْ عن أيّ مسمارٍ لتعليق منشفتها فلمْ تجد، فتركتْها على طرفِ حوض الماء، ودخلت حوضَ الاسْتحمام المجاور، وأغلقت ستارته ثمّ فتحت الصّنبورَ وتركت الماءَ ينسابُ على بدنِها ليزيحَ آثار الإجهاد ورائحة الحجز الكريهة ومأساة ليلة البارحة بالكامل.

وبينما هي توزّع الصّابونَ على بدنها انْقطعت المياه، فتأفّفت بصوت مسموع وهي تلعن سوء الحظّ، فمازال الكثيرُ من الصّابون عالقًا على وجْهها، ولا يُمكنها فتح عينيها، راحت تزيحه قدرَ المُستطاع فأصابها شيءٌ منه في عينيْها، فشعرت بحرقةٍ شديدة وصرخت على آمنة.

انْفتح بابُ الحمّام، ولم ينطقِ القادم بكلمة، فقالت عاليا: *أحضري لي بعض الماء يا آمنة بسرعة، الصابون ألهب عيني*

تراجعتِ الأقدام التي دخلت للتّو ولم توصدِ الباب، مضتْ بضعُ ثوان، صرخت بعدها للمرّة الثّانية على آمنة بصوتٍ أعلى، فأجابتها آمنة هذه المرّة قائلة حينما دخلت: *ماذا بكِ؟*

قالتْ لها عاليا بغضب: *ألم أخبرْك أن تحضري لي القليل من الماء، المياة انقطعت!*

انْدهشت آمنة قائلة: *لا، لم تخبريني من قبْل، ثمّ إنّ المياه ليست مقطوعة، لعلّ شيئًا سدّ الصّنبور*

غضبتْ عاليا بقوّة، وصرخت قائلة: *يا غبيّة، هل ستناقشينني وأنا في تلك الحالة! اذهبي في الحال، وأحضري الماء*

ذهبتْ آمنة وعادتْ على الفور بزجاجة مياه، وناولتْها إيّاها من خلف الستار، وخرجت مستاءة.

***

فرغتْ عاليا من حمّامها، وما أنِ انْتهت من تنظيف نفسها حتّى باغتتها دفقةٌ قوية من المياه انْدفعت للتّو من صنبور الاسْتحمام، فأصابها شيء من الفزع، فلعنَتِ الأمر، ثمّ الْتقطت منشفتها وتلفّحت بها، وخرجت من الحمّام نحو غرفتها مباشرة.

ارتدَتْ ملابسها وهي غاضبة لاعنة، وتزيّنت بالقليل من مواد التجميل ثمّ توجّهت نحو غرفة الاسْتقبال لتجدَ الفطور جاهزًا فوق الطاولة الخشبيّة الصغيرة التي تتوسط المقاعد.

كانت تعابيرُ آمنة مستاءة، وهدى مازالت تجلسُ هادئة، بينما لم تنتظر عاليا أحدًا، وبدأت في تناول الطعام دون أن تدعو أيًّا منهنّ.

وبينما هي كذلك، حاولت إصلاحَ الأمر على طريقتها، فقالت: *هل تردنَ شيئًا من الخارج لأحضره معي؟*

لم ينطقن..

فتنهّدت كالذي شعر أخيرًا بسوء فعلِه، وقالت لآمنة: *أعتذرُ منكِ يا أختاه، الصابون أحرق عينيّ، حتّى أنّهما مازالتا حمراواتيْن، لم أقصدْ إهانتك حقًّا، لقد فقدت السّيطرة على أعصابي، خاصّة بعدما تجاهلتِ طلبي أوّل مرّة*

أردفت آمنة قائلة: *بل أجبتُك من المرّة الأولى*

سكتةٌ قصيرة قبل أن تقولَ لها عاليا: *بل إنّ أوّل مرّة ذهبتِ ولم تعودي إلّا عند النداء الثاني*

قالت آمنة: *لا، كانت مرّة واحدة التي دخلت فيها عليكِ*

التفتت لهدى سائلة: *كانت أنتِ إذًا يا هدى!؟*

أومأت هدى بالنّفي، فقالت آمنة: *هدى لم تبرحْ مقعدها قطّ، فمازالت تشعر بتوعّك، هل سمعتِ صوتَ إحدانا؟*

ابتعلتْ عاليا شكّها، فهي تظنّ أنهنّ تتلاعبان بها حتّى يقنعونها بخيالاتهن، فأردفت قائلة: *يبدو أنّه خُيل إليّ*

ثمّ نفضت راحتيها وتركت الطاولة، وراحت تلتقط حقيبة يدها لتغادر..

وعند الباب التفتتْ لهنّ التفاتةً أخيرة لتجدهنّ مازالتا يتبادلن النّظرات الصامتة.

***

ما أنْ غادرت عاليا وأوصدت خلفَها الباب، حتّى قفزت آمنة بجوار هدى قائلة: *لقد كان الجاثوم يا هدى، صحيح!؟*

أطالتْ هدى النظرَ في عينيها، متردّدة، غير واثقة، ثمّ قالت: *هوَ أو لا؛ داومي على الذّكر، ولن يمسّك شيء بسوء*

أردفت آمنة قائلة: *معكِ كلّ الحقّ... ثمّ*

هدى: *ثمّ ماذا؟*

آمنة: *ماذا سنفعل في تلك الحظيرة؟*

هدى: *آه.. أعتقد... يجب أنْ نبدأ بغرف النّوم فهي الأهمّ حاليًا، يمكنك البدء بغرفتنا، وسأهتمّ أنا بغرفة عاليا*

انفرجت أسارير آمنة فوْر ما علمت أنّ هدى ستشاركها نفسَ الغرفة، فمازال الخوف يعتريها جرّاء ما باغتها أثناء الليلِ.

ثمّ قالت هدى: *ألا يجدر بنا أن نتحمّم أوّلَا كي نستفيق ونتخلّص من آثار اليوم الفائت؟*

فقالت لها آمنة: *دعينا نتحقّق من وجود الماء الذي قالت الأخت عاليا إنّها كانت مقطوعة*

وحينما اخْتبرت آمنة وجودَ الماء في صنبور الحوض تحقّق لديها أنّ المياه مقطوعة بالفعل، وتعجّبت أنّها مقطوعة في الحمّام بينما تعمل في المطبخ..

قالت لها هدى: *لعلّ مواسير الحمّام بها سَدَد، حسنًا.. لا بأس، هيّا لنبدأ العمل حتّى تعود عاليا وتحلّ تلك المشكلة*

بدأ يومُهن الثّاني بأعمال النّظافة، وشرعت آمنة في تنظيف الغرفة الصغيرة، بينما توجّهت هدى لغرفة عاليا، وأخذت تلملمُ ما بعثرته ليلةَ أمس من ملابس ومتعلّقات السّكان القدامى، وبينما هي تفعل ذلك فإذا بشيء ما يلمع من تحت كومة الملابس، نفس الشيء الذي لاح لها ليلة أمس ونسيتْ أمره، مدّت يدها والتقطته؛ فإذا به صورة!..

صورةٌ تجمع أربعةَ شبّان مختلفي الطول والعرض ولون البشرة، بدوْا كأصدقاء مقربين متشابكي الأذرع، يحمل أحدُهم فرش التّلوين بيده الملطّخة بالألوان في أقصى يمين الصورة، ولم تعلمْ ما السرّ في كوْنها أطالت فيه النّظر أكثر من غيره رغم أنّه ليس أوسمَهم!!

في نفس اللّحظة، دلفت آمنة إلى الغرفة وهي تقول: *نحتاج إلى أدوات تنظيف وأكياس لجمع القمامة*

فُزِعت هدى وذكرتِ الله، فاعْتذرت منها آمنة إنْ كانت روّعتها، فقالت لها هدى: *حسنًا، هل تذهبي أنتِ أم أذهب أنا لابْتياع تلك الأغراض؟*

قالت آمنة: *بل سأذهب أنا*

* * *

فتحتْ آمنة بابَ الشّقة، وشهقت شهقةً عالية سمعتها هدى من الدّاخل، ولمّا ركضت نحوها وجدتْها تقفُ أمام السيدة ثريا، اعْتذرت آمنة عن فزْعتها فهي لم تتوقّع أن تجد أحدًا يقف على الباب.

فأجابت ثريا قائلة: *كنت على وشك أنْ أطرق الباب لولا أنكِ فتحتيه*

تدخّلت هدى على الفور قائلة: *تفضّلي سيدة ثريا.. يمكنك الذّهاب الآن يا آمنة، ولا تتأخّري رجاءً*

أطاعتْ آمنة وذهبتْ في صمت، ودلفت ثريا للدّاخل بخطوات متأنية وهي تفرك راحتيها ببطء، حتّى وصلتْ لمُنتصف صالة الاسْتقبال تقريبًا بما يسمح لها بكشْف الممر، ألقتِ نظرة غير محسوبةٍ على الممرّ، وبالأخصّ على

الغرفة المغلقة لا إراديًّا.

نظرةٌ مُلتاعة وكأنّها تتحرق شوقًا لشيء ما بات انتظارُه شاقًّا..

انتظرت هدى أنْ تبدأ الزائرة بالحديث، ولكنّ ثريا أطالت صمتها الغريب.

فبادرت هدى كسرًا للصّمت قائلة: *كنّا على وشك بدء عملية التنظيف*

انتبهت ثريا قائلة: *أعتذر لكُنّ عن عدم اهتمامي بتنظيفها، فقد كان مجيئكنّ مفاجئًا، لذا فكّرت في جلب عاملٍ إصلاحات ليفحصَ الأجهزة ويُخبرنا بما سيحتاج إلى إصلاح، ولا تقلقنَ سأتكفّل بالمصروفات لأنّها مسئوليّتي؛ لذا أردت استئذانكنّ إذا كانت السّاعة السابعة مناسبة لزيارته أم لا؟*

(شعورٌ متبادَلٌ بالارتياب هو ما يشكّل حاجزًا نفسيًّا بين هدى وثريا، تعلم سرّه الأخيرة ولا تعلم هدى مصدرَه ولا أسبابه، فقط لا تستريح لثريا ولا لنبراتها ونظراتها، لم تلمسْ هدى في روحها صفاءً، وكأنّ ما بداخلها عكرٌ أو غارقٌ في وحْل، شيء ما ينزع من وجْهها القبول، وقلبها يحدّثها بأنّ الأمور ستسوء، وأحاديثُ القلوب لا تكذب، ولا سيّما القلوب النقية)

لم يطلْ صمتُ هدى فأجابت باقْتضاب: *مناسب*

بدتْ على وجْه ثريا الرّغبة في إضافة شيء، ولكنّها تراجعت، واسْتأذنت بالرّحيل، همّت هدى بمشاركتها تلك الخطوات القليلة، ولكنّ ثريا اسْتوقفتها بلمسةٍ حانية، وخطت خطواتها بمفردها نحْو الباب، وقبل أن ترحل الْتفتت لهدى بنظرةِ شفقة تفضح صراعًا معقّدًا مشتعلًا بقلب وعقل ثريا، كأنّها تقف على الجمر، ولا حلول بديلة أمامها سوى أن تتحمّل وهي كارهة، وما بيدها حيلة.

* * *

أوصدتْ ثريا خلفَها الباب وهي تقاومُ فرار تلك الدّمعة من مقلتيها، أسرعت للأعلى وركضت لغرفتها وارْتمت فوق سريرها، ثمّ أجهشت بالبكاء تاركةً العنان لدموعها كي تنْساب كيفما شاءت وهي تنظرُ لصورةِ زوجها المهندس رفعت المعلّقة على الحائط يلتفّ حولها شريط أسود وبصوتٍ ذبيح قالت: *سامحني يا رفعت، سامحني... لا أستطيع... لا أستطيع*

وهنا، لاح لها طيفُ رفعت على باب الغرفة، وتقدّم نحوها بهدوء، وبنظرات حانية كما اعْتاد أن يفعلَ طيلة حياته.. دائمًا ما يظهرُ لها طيفه بهيئته الأخيرة التي كان عليها يومَ وفاته، يرتدي بنطالًا أسودَ وقميصًا أبيض، بعينين احتلّهما الحزن.

تنبّهت لطيفِه ورائحة عطره المميّزة، خجلت أن تنظر إليه وهي على وشك أن تكرّر فعلتها الدّنيئة للمرة الثالثة..

فأتاها صوتُه معاتبًا يقول: *لماذا؟.. لماذا يا ثريا وقد اتّخذتُ عليكِ عهدًا؟*

قالت باكية مخزية: *جَبُنت*

قال: *ولكنّه المصير، ولا مفرّ*

قالت: *جَبُنت*

قال: *وإلى متى؟ أنتِ تحملين أوزارًا على أوزارك، ولا طاقة لكِ بها*

قالت: *جَبُنت.. جَبُنت*

ولمّا التفتتْ نحوه، كان قد اختفى.

***

لمْ تستطِعْ هدى صرفَ النّظر عن صورة الشبّان الأربعة، ظلت تدقّق النظر أكثر وأكثر حتّى خُيّل إليها أنّ أعينهم تتحرّك، وأنّ شفتي الشّاب الممسك بفرش التّلوين الواقف في أقصى يمين الصّورة تتمتم، فأصابها الذعر، وألقت بالصورة على الأرض.

وفي نفس اللحظة، سمعت صوتَ فتح باب الشّقة، ثمّ صوت ارْتطام أشياء على الأرض، ثمّ صوت آمنة تقول: *يا فتاةَ الكهف، هلّا أتيتِ لمساعدتي؟*

فهُرِعت هدى نحو الباب بأنفاسٍ متلاحقة.. ولكنها لم تجد أحدًا!

تصلّبت أمام الباب لدقيقة تحاول اسْتيعاب الأمور، وأخذت تذكرُ الله، وتستجير به بالدعاء والتّحصين، ثمّ عادت للغرفة وللصّورة المُلقاة على الأرض، ولكنّها لم تجدْها هي الأخرى!

هنا، شعرت هدى بشيء غريب.. شعرت وكأنّها مُحاطة بمجموعة من الناس يرونها ولا تراهم ولكنّها تستشعر وجودَهم حولها، كاد الخوف يفتك بها لولا أنْ سمعت صوتَ فتح الباب ثمّ صوت ارتطام أشياء على الأرض، ثمّ صوت آمنة تقول: *يا فتاةَ الكهف، هلّا أتيتِ لمساعدتي؟*

كان ركضُ هدى بهذه السّرعة مستغرَبًا من قِبل آمنة، وعلامات الارتعاب الثقيلة على وجهها أيضًا كانت سببًا كافيًا في أن تستلهم منها الشعور بالخوف قائلة: *ماذا بكِ يا هدى؟*

كانت هدى ترتجف بقوّة، وتهزّ رأسها هزّات هيستيرية، ولا تقوى على النّطق، ولوْلا تفاني آمنة في تهدئتها وعدم التخلّي عنها كما تفعل عاليا لما استطاعت هدى أنْ تثبُت على قدميها للحظة، ثمّ راحت تروي لها كلّ ما حدث أثناء غيابها..

(آمنة تختلفُ عن عاليا كونها اسْتشعرت رحماتِ الله في ابتلاءاته، فلم تجزع لكونها تربّت يتيمة على يد عمّها القاسي وزوجة عمّها التي لم تُحسن إليها

يومًا، وأدركت نعمة الله عليها يوم مكّنها من الوقوف بثبات أمام تلك المحن بقلبٍ عامرٍ باليقين به، وبرحمته، فمنّ عليها برفقة كرفقة هدى التي لطالما شجّعتها وعلّمتها من الدّين ما أشرقت به حياتُها من جديد، وخلق بداخلها الأمل والأمان، وها هي اليوم تقفُ بجوارها وتُعينها على ما ابْتلاها به الله لتردّ جميلها وحسن صنيعها)

أخبرتها أنّها تصدّقها ولا تكذّبها في حرف، فلطالما كانت هدى صادقة ومتّزنة وذات شفافية عالية، رزقها الله الحدسَ القويّ والقدرة على الاستبصار.

وهدأت هدى وكأنّ شيئًا لم يكن، فأحيانًا لا يحتاج الإنسان منّا ليشعر بالأمان سوى لشخص يُخبره أنّه يصدّقه، وسيُعينه على تخطّي المِحَن حتّى وإن لم يفعل.

ثمّ قالت لها آمنة: *أنا أثقُ بإيمانك وثباتك، ولا أشكّ بقدرتك على مواجهة الأمر، فلو كان هناك شيء حقيقيّ فادْعي الله أنْ يكشفه لكِ، فلعلّ الخير فيما يتراءى لكِ وليس شرًّا كما تظنّين، أمّا الآن فاطْردي كلَّ هذه الخَيالات من عقلك حتّى يتأكّد لكِ الأمر*

رنّت هدى بنظرةٍ شاردة جاهلة بما ينتظرُها، ولكنّها تثقّ بالله الذي لم يخذلْها يومًا..

ثمّ اقْترحت آمنة أنْ يواصلن العمل تجنّبًا لغضب عاليا الأبشع من غضب ألف عفريت وجان، وحتّى تصرف تفكيرها عمّا خُيّل إليها أنّها رأته.

***

خرجتْ ثريا من غرفتها تجرّ قدميها جرًّا نحو الهاتف في صالة الاسْتقبال لتتّصل بمولانا الذي لم يجب..

أعادتْ محاولة الاتّصال أكثر من مرّة، وفي كلّ مرّة كانت تبوء المحاولة فيها بالفشل كانت تباغتها ذكرى قديمة من تلك الذّكريات المغبونة التي لطالما جاهدت لمحْوها بلا فائدة.

وكانت أولى الذّكريات تعود إلى اليوم الأوّل الذي جاء فيه عادل لاسْتئجار الشّقة.. تتذكّر ثريا أنّها لم تشعر بارْتياح تجاه ما كانت تتنصّت عليه من الحوار الدّائر بين رفعت وعادل في صالة الاستقبال، بينما كانت تختبئ هي خلفَ ستارة الممر، والأسباب التي تعذّر بها لينتقل أو بمعنى أدقّ ليهرب من بلدته المنصورة إلى القاهرة وحيدًا وبلا أهل أو أي من أفراد عائلته وما زاد من قلقها ما قاله وقتها..

(كان عادل يجلسُ منكّس الرأس قُبال رفعت، يَغشى الحزن صوتَه المتلعثم بين الجملة والأخرى بانكسارٍ شديد ودفقاتٍ متقطّعة من الدموع الحارّة وهو يقول: *تركتني.. تركتني ورحلتِ بعد عشرة أعوامٍ من الحب والزواج!..

كان أوّل لقاءٍ جمع بين قلبيْنا محفوفًا بالفرح، التقيتُها في عرس أعزّ أصدقائي، وكانت هي الصّديقة المقرّبة للعروس، كانت جميييلة جدًّا، كالبدرِ المُنير الهارب من فلكِه ليخالط عامّة النّجوم في تواضعٍ وعلى اسْتحياء، كانت هي الحياءَ متجسّدًا في امْرأة، تتورّد وجنتاها إذا خطأ التقت عينانا، فهوى قلبي في هواها وأسِر، كانت هي الشّمس والقمر، وكلّ سنا ضوء في حياتي وأجمل قدر...

لم أنمْ ليلتَها حتّى عرفت مَن هي، ومِن أين أتت، وسمعت فيها وعنْها ما ملأ قلبي هيامًا، كيف هي حنونة ونقيّة وطاهرة.. وعرفت أنّها من بلدةٍ مجاورة وابنة وحيدة لأسرة بسيطة.

طيلة الطريق.. طيلة الطريق وأنا ذاهبٌ إلى بيتهم المتواضع برفقة أبي وأمّي لأطلب يدها، كنت أرى مستقبلنا، أتخيّل ضحكاتنا ولمساتنا وهمساتنا، أرانا نركض بين الرّبوع فوق التلال على سطح جزيرة لا تحتضن سوانا، ألمسُ كفّيها وأغفو بين راحتيها فتتراءى لي أجملُ الأحلام، وأجملها تلك التي أراها فيها.. كنّا في قلب الشتاء بينما قلبي يحيا الرّبيع وحده، وتتفتح زهوره إذا ما ذُكر اسْمها.

وكلّما اقتربنا كانت دقّات قلبي تزداد دقّة فدقة ودقّات حتّى كاد يفرّ من بين ضلوعي، كنت كالظّمآن في قلب صحراء جدباء تراءى له نبعٌ من ماء مقطّر في قلب جنة خطراء يانعة نمت بين ذراعيها..

وجلسنا.. ولم تكنْ حاضرة.. وساد الصّمت الحزين وخيّم الأسى على وجه أمّي وأبي بعدما انْفجرت تلك القُنبلة في وجهيْهما، حين صارحنا أباها أنّ *سميحة* مريضة بعلّة في القلب قد تجعل قدرتها على تحمّل الحمل والولادة مستحيلة.

قلب سميحة مريض؟ هذا القلب النّقي كيف تجرّأ أن يمرض، كيف هان عليه أن يغدر بها وبي ويحطّم أحلامي على صخرة علّته؟

*والله ما يفرقُنا إلّا الموت وكفى بها نعمة هي الزّوجة والابنة * هكذا صرخت قائلًا حينها، ولم ألقِ بالًا لنظرات أمّي الحامية، ولا لوكزات أبي التي طالتني مرارًا بالتّريث، بينما أنا أتوسل نظرةَ رضا من أبيها كي يسمح لها أن تتجلّى من خلف الستار وأنظر في عينيها.. وأخيرًا ناداها، وكأنّه فتح لي بابَ الجنة.

وحضرت وكان لحضورها جلالٌ وهيبة، لم تكن قدماها تضرب الأرض بل كانت تضرب في جدران قلبي، فيهتزّ ويخفق ويستفيق ويعود ليهتزّ وأنا في هذا لا حول لي ولا قوّة.

وتمّت الخطبة ولم أنلْ منها كلمة تهدهد قلبي المُلتاع، لم تكن من هذا النوع الذي يحتقر نفسه فتمنح حلو الكلمات بلا ثمن، وكان الثمن الوحيد هو أن أعجل بعقد القرآن كي تسمح لي أميرتي أن أرشف منها رحيق الحبّ متى شئت وكيفما شئت.. وتمّ الزواج.

وفاقت متعتي بها كلّ متعة تصوّرتها يومًا ما، واختبرتها مع فتاة قبلها، فالوجبة التي تأكلها ببطء وتتذوّقها باتّئاد ليست كتلك التي تلتهمها في قضمةٍ واحدة خشية أن يكتشف أمرها أحد، فلا يمكن أن يستوي مالك الشيء وسارقه أبدًا.

ولومت نفسي، لو أنّني كنت قد ادّخرت نفسي لها كما أدخرتنفّسها لي، لما شعرت بكلّ هذا الفارق في عذوبة المشاعر بيننا ولقلّ إحساسي بالضّآلة بجوارها، وصرت أبذل كلّ ما في وسْعي لإرضائها وهي التي كانت ترضى بأقلّ كلمة وأبسط هدية، كانت طفلة كبيرة.

كانت حياتنا أشبه بجنة صغيرة تعتلي وجه الأرض، ومرّت السنوات دون أن نشعر بها حتّى أتممنا منها عشرة، وجاء اليوم المشئوم، اليوم الذي تسلّل فيه الشيطان إلى نفسي، وفاقت رغبتي وشهيّتي في الولد رغبتي فيها وحبّي لها، ولم أستطعْ إخفاء الأمر فصرتُ أصبو لكلّ طفل صغير، وكبرت هي في عيني، ولم تعدْ طفلتي، وصبوت لكلمات أمّي لأوّل مرّة، تلك الكلمات التي كانت تشمئزّ منها مسامعي باتت لحنًا عذبًا يشجيني، وتهتزّ له أوتار قلبي، قالت لي تزوّج وسمِعت هي حديثنا قدرًا وكنّا نحسبها نائمة.

لم تنبس ببنت شفة، أخفتْ ألمها في قلبها، وكان حبّها لي أعظم فلم تعقّب، وبعد أشهر قليلة زفّت إليّ البشرى..

أخبرتني أنّها حبلى في شهرها الرابع، تخبطت مشاعري، وتداخلت رغباتي وأفقت.. أفقت من غفوتي وفهمت.. لقد قرّرت صمتًا أن تضحّي بحياتها كي أشبع رغبتي في الأبوة، قالت لي إنّي أردّ لك الجميل، وأي جميل هذا وهي التي منحتني سعادة الدنيا وما فيها...

كتمت حملها حتّى تَبُتَ وبات أمر التخلّص من الجنين محالًا، وأظلمت الدنيا في عيني، فما فائدة الولد وما فائدتي أنا بدونها، طفل يتيم وأب وحيد بدونها... ما الفائدة ؟ مَن سيشملنا بحبّه ورعايته غيرها؟ مَن سيمنحنا كلّ هذا بلا مقابل أو تأفّف.. غيرها؟!

ويوم المخاض كانت تتألّم، ألمًا فاق ألم الولادة، إنّه ألم الاحتضار، روح تأتي وأخرى تغادر يا للألم يا للعذاب، شُتّت حالي ومُزّقت أوصالي، إنّه يوم غريب، يوم كان من المفترض أن أصير فيه أسعد خلق الله لحلول رابطٍ جديد يجمع بيننا، فأصبح يوم فراقنا الأبدي، وعاد فجأة حبّي القديم لها، عاد بعنف، بقسوة فاقدَا لذّته الأولى وحلّت محلّها غصّة بشعة، وشعرت بأنّ الله عاقبني على طمعي بأن أخسر زوجتي وحبّي الوحيد...

وزُهِقت نفسها وتبعتها نفسُ ولدي، وصرت وحيدًا.. قبّلتُ قدم الزمن كي يعود ولم يعد.. فنحن لا نندم على الأشياء إلّا حينما نفقدها..

حاولت الانتحار كي ألحق بهما وفشلت، ومرّت سنة على فراقهما ومازلت جريحًا، لا لقمة تسد جوعي، ولا شربة ماء ترويني، ولا عين يقرّها النوم،

وشعرت أن كلّ مكان وكلّ أرض وطئناها تجسّد أمامي الذّكريات، فقرّرت الهروب عَلّ روحي تستكين ولو ليوم واحد*

كان رفعت شديدَ التّأثر بما قاله، كما لو كان قد عاش ما عاشه بدلًا منه في دقائق معدودة، فهو يحبّ ثريا بنفس قدر حبّ عادل لزوجته ويخشى فقدانَها كثيرًا، وتركه وحيدًا، فيا لقسوة الأيام التي كانت تمرض فيها ثريا، وكيف كان رفعت يفقد فيها متعة كلّ شيء حتّى تشفى، وكم اشتاق للولد، ولم يشأ الله له ذلك، ولكنّه حمدَ الله على ما رزقه واحتسب أجره عنده، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون ولعلّه خير.

بينما كان القلق ينهش قلبَ ثريا مع كلّ كلمة زادها عادل، كان قلبها يحدثها أنّ الرجل لم يأتِ ليهرب من آلامه بل جاء لينفرد بها ويموت ببطء مكفّرًا عن ذنبه كما يعتقد، وهذا بالطبع أمر لا ترجوه ولم يكن خوفها على الرّجل بل على البيت، وكيف من الممكن أن تشمئزّ نفوس الناس من سكناه إذا ما علموا بوفاة أحد فيه، هي نفسها لا يمكن أن تسكن بيتًا كانت ترقد فيه جثّة يومًا ما..

وما أن اتّفق زوجها مع عادل وتسلّم الأخير مفاتيح الشّقة ورحل، أظهرت نفسها قائلة: *رفعت، لا تروقني فكرة أنْ نؤجّر الشقة لرجل أعزب*

قال لها وكان مازال متأثّرًا: *أعلم أنّه لم يكن مبدأنا ولكنْ لهذا الرجل ظروف مختلفة*

قالت: *سمعتها، وقلبي غير مطمئنّ، وقلب المرأة لا يخطئ*

كان رفعت ينظر لثريا دومًا على أنّها امرأة قاسية إلى حدّ ما، رغم فيض الحنان التي كانت تشمله به إلّا أن إنسانيّاتها مع الآخرين كانت ضعيفة للغاية، فلم يعهد فيها الحنان المطلق، لم يرها تطعم حيوانًا أو تعطف على مسكين، وشعر أنّه لا يجب أن يجاريها في تلك القساوة، وأن يكمل هو الجزء المفقود في شخصيتها.

فقال لها بنبرته العطوفة دائمًا: *لعلّ حالته المضنية تبدو مخيفة نوعًا ما، لكنْ صدّقيني لو كنت مكانه ولا أتمنّى ذلك وليجعل الله يومي قبل يومك، لكنتُ شعرت بما يشعر، وأكثر، ولتمنّيت أن أهربَ إلى آخر العالم، ولو أنّني لن أفعل ذلك أبدًا، ولبقيتُ عاكفًا على قبرك إلى آخر العمر... ولكنْ دعينا نمنحه بعضَ الوقت مع نفسه، وما أن أشعرُ بأنّه تحسّن، سأطلب منه أن يغادر*

صمتتْ ثريا وهربتْ منها الكلمات والرّدود، واستسلمت للموافقة..

***

فشل الاتّصال

وحضرتها ذكرى جديدة..

اليوم الذي دخل عليها رفعت شاردًا كأنّه غارقٌ في بركة من الوحل، ولا يعرف طريق الخلاص منها..

ارتمى على كرسي مكتبه الصغير بالغرفة الصغيرة المجاورة لغرفة النوم، واعتكف فيها لساعات حتّى غلبه النوم..

وحينما دخلت عليه متسلّلة، وجدت أمامه على المكتب وريقاتٍ تحمل نقوشًا عجيبة وطلاسم بحروف وأرقام مرسومة داخل دوائر ومثلثات غير مفهومة..

وبينما هي تقلب في تلك الوريقات، انتبه لها وفُزِعَ لمّا رآها تمسك بها، فاختطفها من يدها قائلًا: *احْذري يا ثريا، لا تعرّضين نفسك لشيء لم أفهمه بعد*

سألته بانْدهاش: *ما هذا يا رفعت؟ ومِن أين لك بها؟!*

ارتمى رفعت من جديدٍ فوق كرسيه في شتات وهو لا يعرف كيف ولا من أين يبدأ حديثه وهي التي حذّرته من قبل مِن هذا الرجل، وأفاضت إليه بحديث قلبِها حياله، ثمّ تنهّد قائلًا: *أصبتِ يوم أن حذّرتني من هذا الرجل، وأنا أخطأت وباتَ من واجبي تحمّل تبعات هذا الخطأ بمفردي*

قالت بانْدهاش أكبر: *أيّ خطأ! وعن أيّ رجل تتحدّث؟*

أجابها بنبرة مخزية: *عادل*

سألت بتأفّف: *ما به؟*

أجاب: *يبدو أنّه يمارس نوعًا من أنواع السّحر الأسود، وهذه الوريْقات الْتقطتها خلسةً من شقّته*

اتّسعت عيناها وهي تسأله: *وما الذي دفعَك لأخْذها؟ وما الذي دفعك للدّخول عنده من الأساس؟ لقد وعدتني أن تظلّ علاقتك به سطحيّة*

قال لها ملطّفًا: *إنّه جورج.. شاهده أكثر من مرّة يفعل أمورًا غريبة، ويحادث نفسه فخشي أن يتدهور أكثر ويحاول الانتحار مرّة أخرى، فصبوت إلى اقتراحه بأن نعرض عليه المساعدة في جلب طبيب نفسي يعينه على تخطّي الأمر*

احتدّت ثريا أكثر وهي تقول: *ياإلهي، أنت فنّان في حياكة المصائب ثمّ الاعتراف لاحقًا بالخطأ... وماذا قال لكما؟*

أطال رفعت النّظر إليها بخوف كما لو كان طفلًا صغيرًا على وشك الاعتراف

بكارثة لأمّه..

وروى لها بالفعل كلّ ما حدث، وكيف كان عادل مريبًا، وما قاله سعد الحارس عنه وعمّا يشعر به وعن الشيخ رابح الذي سيأتي مساء الغد، قال لها كلّ شيء، وتحمّل ثورتها وكلمات لومها الجارحة..

***

فشل في الاتّصال

وكانت هذه آخرَ ذكرى رادوتها قبل أن يجيبَ الطرف الآخر، حينما سمعت صراخ إيفون فور بزوغِ الفجر وهُرِعت نحو النّافذة تستطلع الأمر، بينما رفعت كان مازال نائمًا لأوّل مرّة، ولم يستفقْ للتجهّز للصلاة كعادته.

ورأت جورج غارقًا في دمائه وإيفون تصرخ بأنّ عادل هو القاتل.. هرولت ثريا لتطلب الإسعاف، ثمّ أيقظت رفعت الذي كان نائمًا نومًا ثقيلًا على غير عادته بصعوبة..

وما أن اسْتفاق حتّى ركض على الفور نحو جورج المسجّى على الأرض غارقًا في حوض من دمائه، صديق عمره وجاره منذ الصبا، من شاركه لحظات الحزن قبل الفرح وسانده وقت الشدائد قبل الانتصارات والانفراجات، الرجل الخلوق صاحب الابتسامة الهادئة والوجه البشوش الذي صار ملطّخًا بالدم، انهمرت دموع رفعت وانتحب، كم هو الفراق صعب وأصعب ما فيه هي تلك اللحظة التي ستدرك بعدها أنّك صرت وحيدًا، لا خِلّ ولا سند ولا عودة بالزمن.

رفعت لا يصدّق ولم يستوعب بعد أنّ صديقه قدْ رحل إلى العالم الذي لا يعود منه أحد، ظنّ أنّه جريح غفا قليلًا ليستريح من الألم، ولكنّها غفوة لن يستيقظ منها أبدًا، ولكنه سيستريح.

وجاءت عربةُ الإسعاف وحملت جثمانه، ورافقه رفعت رغم محاولات بعض الجيران في إبعاده حتّى لا يزداد حاله سوءًا، إلّا أنّه صرخ فيهم قائلًا: *لن أترك صديقي، والله لن أترك صديقي الذي ما تركني يومًا*

واحتضنت ثريا إيفون التي سقطت على الأرض تلملم دماء زوجها، تلملم ما تبقى منه وأخذت عهدًا بألّا تمحو آثارها حتّى تلحق به..

كانت ثريا مفطورةَ القلب ليس لأجل إيفون وإنّما لأنها تخيّلت للحظة لو أنّه كان رفعت، وأدركت حينها شيئًا لعلّه في غمرة السنوات قد نُسي وهو حبّها الكبير لرفعت، والذي تجلّى بروعة يوم أنْ علم أنّه لن يكون أبًا أبدًا؛ لأنّها تعاني من تشوّهات بالغة في الرحم، وتذكّرت كلماته عندما نظر لها بعينيه الحانيتين ونبرته الرّحيمة قائلًا: *لا تحزني يا حبيبتي، فأنا ولدك وأنتِ ابنتي فليعِنْكِ الله عليّ وليعينني على إسعادك*

أجاب فجأةً الطرفُ الآخر، فمسحت ثريا قطراتِ الدّمع التي سالت على وجنتيها بينما كانت تتذكّر الماضى..

وقالت: *مولانا، أردت تذكيرَك بموعدناعند السابعة، أرجو ألّا تتأخّر*

قال: *هل سيكون ثلاثتهن حضورًا؟*

قالت :*نعم*

قال: *حسنًا، موعدنا السابعة*

***

كان نصفُ النّهار قد انقضى ومالت الشّمس نحو الغروب، ومازالت آمنة وهدى تجاهدان في نظافة هذا المكان، وقد تمكّنتا من تنظيف الغرفتين تمامًا، ولملمة أغراض السكّان القدامى في شنط بلاستيكية، وتنحيتها جانبًا حتّى تقرّر عاليا عندما تعود أين سيضعونها.

وبينما كانت آمنة تكسي الوسائد عثرتْ على بطاقة النّقيب زين، فابتسمت قائلة لهدى: *انظري ماذا وجدت؟*

تقدّمت هدى نحوها واطّلعت على البطاقة، ثمّ قالت لآمنة: *أعيديها كما كانت*

فتساءلت آمنة بتلقائيّة: *متى أخذتها منه هذه؟*

قالت هدى: *لا شأن لنا بالأمر، اتْركيها مكانها حتّى لا تحتدّ عليكِ*

أعادتها آمنة كما كانت، ثمّ ارتمت فوق السرير من فرْط التّعب قائلة: *لم أعد أستطيع الوقوف بعد الآن، لقد بذلنا جهدنا خرافيًّا في الغرفتين، ومازال أمامنا الكثير*

قالت هدى: *أرى أن نتوقّف عند هذا الحدّ ونكمل غدًا، لا شيء يجب أن يبدأ وينتهي في اللحظة عينها*

أردفت آمنة قائلة بقلق: *عاليا سوف تنهرنا وستتّهمنا بالتكاسل*

قالت هدى ضاحكة: *هل صدّقتِ أنّ عاليا هي ربُّ الأسرة فعلًا؟ عاليا مجرّد صديقة ثالثة لنا نُطيل عليها صبرَنا لأنّها في أمسّ الحاجة إلينا كما نحتاج إليها.. يا آمنة لا تصنعي لنفسك آلهة من البشر مهْما ظننتِ نفسَك ضعيفة، أو مازلتِ تحتاجين إلى مساعدتهم فلتطلبيها بعفاف نفس ولا تحني رأسَك إلّا لله، فلن يُقضَى شيء إلّا بإذنه هو*

نظرتْ آمنة لها بنظرةِ إكبار فهى ترى في هدى الحكمةَ ورجاحة العقل والقوة، حتّى وإن كانت ترضخ لعاليا ولتحكّماتها أحيانًا فذلك لأنّ هدى تعلم كم أنّ عاليا ضعيفة من الداخل وتحتاج دائمًا لمساعدة حتّى وإنْ لم تفصح عن ذلك، فالقوي مَن كانت له القدرة الأكبر على التحمّل، ولا يجزع صارخًا وقت الأزمات.. القويّ هو الذي استطاع أن يصمت حينما اشتدّت المحن وليس الهارب بسخطه ولعنه على الجميع، القويّ هو من اسْتعان بالله وحده عندما خذله الناس ولم يجزع.

وفي تلك الأثناء، دقّ جرس الباب، فتلكّأت آمنة قليلًا لتفتح بينما كانت هدى في المطبخ ترتب بعض الأدوات.. فتحت آمنة الباب لتستقبلَ عاليا التي

وصلت معفّرة تلعن الحرّ والمواصلات والزّحام والطريق وكلّ شيء..

قالت لها آمنة باستنكار: *الناس يلقونَ سلامَ الله وأنتِ تدخلين علينا بلعناتك؟ *

ارتمت عاليا على أحد مقاعد صالة الاستقبال متأفّفة دون رد، ولمّا خرجت هدى من المطبخ إلى الصّالة قالت عاليا: *لقد أخذت لنفسي أجازة أسبوع، أمّا بالنسبة لآمنة فقد رفضوا إعطاءها أي أجازات في الوقت الحالي فهم يعانون من نقص في طاقم الممرّضات ويحتاجونها، أمّا أنتِ يا هدى.. فللأسف تمّ فصلُك*

صُدمتْ هدى وقالت: *فُصلت؟ لماذا؟*

قالت عاليا آسفة: *أحدُهم أبلغ مديرة المدرسة أنّه قد شاهدكِ تخرجين من الحجز بالأمس بتهمة مخلّة بالشرف بما لا يتناسب مع مهنة التّدريس فقرّروا فصلك*

انفعلت آمنة قائلة: *فصلوها؟!! هكذا دون سماع دفاعها عن نفسها قاتلهم الله، ومن معدوم الضّمير هذا الذي لم يتورّع في نقل أخبار كاذبة دون التحقّق من صدقها، فقط بالظّاهر يتهمون الناس في أعراضهم، إنّه والله لذنبٌ كبير، كان لا بدّ أن تستعلمي عنه وتكشفي هويّته حتّى نلقنه درسًا لا ينساه، أو نحجز له غرفةً في هذا النّزل الموبوء فيذوق مرارةَ الظّلم*

أشارتْ هدى لآمنة بأنْ تهدأ، وجاهدت كي لا تسقط من عينيها الكثير من الدموع ثمّ قالت: *الحمد لله على كلّ شيء، لعلّه خير. (ثم نظرت لآمنة وقالت) لا أريد أن أعرفه يكفي أنّ الله يعرفه، ولا أريد الانتقام حتّى وإن أعانتني قدرتي على ذلك ، فمهما كانت قوة يدي فيدُ الله أقوى وعنده ستجتمع الخصوم، فقط أقول حسبي الله ونعم الوكيل، فليس بينها وبين الله حجاب*

حاولت عاليا تهدئةَ الأجواء فقامت واحْتضنتها هامسة: *أتعلمين ما الخيرُ في الموضوع فعلًا؟، أنّكِ مَن ستقومين بالطّهي؛ فطعام آمنة لا يصلح للاستهلاك الآدمي*

ابتسمت هدى وربّتت عاليا على كتفها وشاركتها الابتسام..

قاطعت آمنة همسَهم قائلة: *حسنًا، بما أنّي سأضطرّ للنزول إلى العمل الليلة فستتسلمين أنتِ يا عاليا مهامّ التنظيف*

رمقتها عاليا بنظرةٍ حادّة قائلة: *بكلّ تأكيد لن أقوم بالتنظيف*

قالت آمنة: *حسنًا، فلنستقدم سيدةً تساعد هدى في ذلك*

قالت عاليا: *لو تعرفين طريقها استقدميها*

قالت آمنة: *دلّني بائعُ المخبوزات على سيدة تأتي لجارة تقطن أمامنا تدعى السيدة إيفون فلتذهب إحداكنّ إليها بعد الغداء*

قالت عاليا: *جيد، وهل يوجد غداء؟*

قالت آمنة: *تناولا ما تبقّى من الإفطار يا عاطلات، أمّا أنا فسأخلد قليلًا إلى النّوم بعد الاستحمام فلديّ عمل ينتظرني*

تركت آمنة كلّ ما كان بيدها وتوجّهت إلى غرفتها لتجهّز ملابس النوم وأدوات الاستحمام تاركة التأفّف لعاليا ونثر الكلمات المحتجّة.

* * *

ما أنْ وطئت آمنة عتبةَ الغرفة وشرعت في تحضير ملابس نظيفة حتّى شعرت بقشعريرة تسري في جسدها ولكنها لم تلقِ للأمر بالًا، وقالت إنّها لربّما متأثّرة بما قالته هدى، ثمّ حملت أدوات استحمامها الخاصّة والملابس النظيفة وتوجّهت للحمّام، وفعلت كما فعلت عاليا من قبل، بحثت عن أيّ مسمار لتعليق ملابسها ولم تجد فتركتهم على طرف حوض الماء، وشرعت في فتح صنبور الاستحمام وتركت الماء ينساب على بدنها وهي تدندن بكلمات إحدى أغنياتها المفضّلة..

وبينما هي كذلك وفي ذروة الاندماج شعرتْ بشيء كالأصابع تتحسّس ظهرها برفق، اختلط عليها الأمرُ للوهلة الأولى وظنّت أنّها خيوط من الماء المنسابة على ظهرها ولكن الأمر ازداد تجسيدًا، وباتت اللمسات أكثر جرأة ووضوحًا، ففزعت عن آخرها وصرخت صرخات مدوية وخرجت سريعًا من تحت الصنبور لتلتقط ملابسها التي وجدتها ملقاةً على باب الحمام على مسافة ليست بقريبة من مكانهم الأصلي!

هُرِعت نحو الباب تحاول فتحه، ولكنّه أبى أن يُفتح، وكانت تشعر كأنّ أصابعها تلامس أصابع خفيّة تمسك بالمقبض..

وجاءت النجدة من الخارج حينما قامت عاليا بمحاولات عنيفة لفتحه حتّى نجحت في النهاية، وما أنْ فُتح الباب حتّى ارتمت آمنة بين ذراعي هدى مرتجفة مذعورةً باكية متلعثمة وهي تروي ما شعرت به وتقول: *كانت هناك يدٌ تحسّستني وأمسكت بمقبض الباب لتمنعني من الخروج، لقد صدقتِ يا هدى*..

وقفت عاليا للحظاتٍ تتأمّل الحمام بنظرات مرتابة بعض الشّيء فقد راودها شيء من القلق أثناء اسْتحمامها أيضًا، وتركته مواربًا.

ثمّ دلفت للبنات في الغرفة المقابلة، وبيدها ملابس آمنة التي كانت في الحمّام قائلة: *أيتها المخبولة، لقد علمتِ أنّ مقبض الباب به مشكلة وقد واجهتها البارحة، وحذّرتك وقتها ألّا تحكمي غلقه، فلمَ فعلتِ العكس؟*

قالت لها آمنة باكية: *وماذا عن اليد التي شعرت بها؟*

قالت عاليا متأفّفة: *أيّ يد؟*

قالت آمنة: *يد.. يد كيدي ويدك، ولكن أضخم تحسّستني، وشعرت بها على مقبض الباب*

قالت عاليا: *الخوف يخلق الأوهام ويغذّيها حتّى تبدو شديدة الواقعية، ويبدو أن عقلك الْتقط إشارةَ خوف انتابتكِ للحظة، وبنى عليها بحرفيّة وهمًا أكبر، لو أنّكِ فقط تفكّرين بهذه الطريقة ولا تستسهلين اعتناق الخزعبلات لارتحتِ*

أخذت هدى تقرأ عليها بعضَ آيات الذكر ونصحتها ألّا تغنّي وتتراقص في الحمّام مجدّدًا كما اعتادت أن تفعل..

قالت لها عاليا مستخفّة بما قالت: *كما قُلتِ هي معتادة على ذلك، ولم تعاني شيئًا من قبل، كفاكِ خرافات أنتِ الأخرى*

قالت لها هدى: *ليست البيوت كلّها سواء يا عاليا، لكلّ بيت عُمّاره، لا بدّ أن نتريث حتّى نختبر روح البيت الجديد*

ألقت عاليا بالملابس لآمنة التي شرعت في ارتدائها وهى ترفع حاجبيها باندهاش ساخر تقول: *أللمنازل أرواح مثلنا؟*

أجابت هدى بجديّة: *بلى، لكلّ مخلوق روح، حتّى وإنْ كان جمادًا، ليست كأرواحنا ولكنها تشعرُ مثلنا، نحن لا نعيش على هذا الكوكب في حالة جفاف يا عاليا، بل نحيا في عالم زاخر بالعديد والعديد من الأطياف والظواهر والمخلوقات..

وفي العلم الذي لا تؤمنين إلّا به تمّ اكتشاف كائناتٍ غاية في الدقة لم تكن تراها العين ولو كنت أخبرتك بها قبل اكتشافها ووصفت لك أشكالها وأحجامها ما كنتِ لتصدّقيني، وأنا أقول لكِ إن هناك ملايين المخلوقات الحيّة الأخرى التي تحيا معنا جنبًا إلى جنب، بل كانت تحيا قبلنا بملايين السنين، وتعرف أسرار هذا العالم أكثرَ منّا، وتشعر أنّها المالك الأصلي ونحن الدخلاء ويجب احترامها والاحتراز منها، وهي أمّة مثل أمّتنا، متعدّدة الأعراق والأفكار والأديان أيضًا وما يسمح به بعضهم في مكان قد لا يسمح به غيرهم في مكان آخر*

قاطعتها عاليا باستخفاف قائلة: *تقصدين الجنّ؟*

أردفت هدى قائلة: *ويخلق ما لا تعلمون*

قالت عاليا بحنق: *هل تعلمين أنكِ تزيدين الأمور تعقيدًا!*

قاطعت آمنة قائلة بنبرةٍ هادئة لم تخلُ من الارتجاف: *كفى يا عاليا، ما شعرت به كان حقيقيًّا لا يحتمل الشكّ، وما قالته هدى صحيح، يجب أن نحترم

هذا المكان حتّى يتّضح لنا أمره جيدًا*

تأفّفت عاليا ثمّ تركتهما وغادرت تجاه غرفتها قائلة: *خلل*

ربّتت هدى على كتف آمنة ونصحتها بأن تخلد إلى النوم بعد أن تتلو أذكارها ولن يمسها سوء، وظلّت بجوارها حتّى نعست عيناها، ثمّ أدركت هدى لتوّها أنّها لم تصلّي منذ جاءت إلى هذا المنزل.

وقرّرت أن تتحمّم هي الأخرى، وتعجّبت كثيرا كيف تحمّلت أن تمكث كلّ هذا الوقت بلا استحمام! وكيف نسيت الصّلاة وهي التي لم تنفكّ تتحدّث عن الله منذ ليلة أمس؟ فاستغفرت الله على السّهو والنسيان..

***

دخلت عاليا غرفتها لتبدّل ملابسها فوجدت الغرفةَ نظيفة تمامًا، وتذكرت بطاقة النقيب زين فهُرِعت تطمئنّ على وجودها تحت الوسادة، ولمّا اطمأنّت أعادت إخفاءها في نفس المكان من جديد وبدّلت ملابسها.

ثمّ بعد لحظات سمعت خطواتِ هدى تدلف إلى الحمام..

فتوجّهت عاليا نحو باب الغرفة المغلقة تحاول فتحه، ولمّا شقّ عليها الأمر راحت تبحث عن أيّ أداة حادّة تعينها على ذلك، وحاولت مرّات ومرّات بالسكين، وباءت كلّ محاولاتها بالفشل، فنفخت وتأفّفت ولعنت ثمّ شرعت في العودة إلى غرفتها.

في نفس اللحظة، خرجت هدى من الحمّام بمنشفةٍ كبيرة ملتفّة حول بدنها وتوقفت على عتبة غرفتها ثمّ سألتها: *ماذا بكِ؟*

قالت عاليا بحنق: *هذا الباب اللّعين الصّدئ استهلك كلّ طاقتي، وفي النهاية لم يُفتح*

نظرتْ هدى نحو الباب، ثمّ نظرت إلى عاليا ثمّ أعادت النّظر نحو الباب قائلة: *هل أنتِ متأكدة أنّه لم يُفتح؟* وعلقت نظرها نحو الباب بعينين متّسعتين.

فاستدارت عاليا فوجدت الباب مفتوحًا بالفعل..

وقفت عاليا في حالة صمتٍ وتسمّر، تغالب شعورها بالارتياب.. ووقعت بين فكّي الرّحى، لا هي تستطيع الاعتراف بوجودِ شيء خارج عن المألوف ولا التّشكيك في قواها العقلية، فآثرت الصّمت وتوجّهت على الفور نحو الغرفة، وركلت الباب فانْفتح على مصراعيه.

وما أن تجلّى أمامها ما رأته حتّى تراجعت على الفور شاهقةً بصرخة مكتومة منكفئة على ظهرها، وجحظت عينا هدى فوْر ما رأت نفس الشيء، وكتمت قهرًا شهقتها وأبدلتها بذكر الله..

وكان لصرخة عاليا تأثيرُها على آمنة التي استفاقت على الفور، وأهابها الرّوع البادي على وجه هدى، ولمّا هرْولت نحوها ووقع نظرُها على الغرفة المقابلة، شاهدوا صورة مرسومة بالحجم الطّبيعي لامرأة مشوّهة الملامح لا يبدو منها سوى فمها المبتسم، تقف بثبات وتحدٍّ في وجه شيء مجهول، متهتّكة الأحشاء يسيل الدمُ من أوصالها.

كانت مرسومة بحرفيّة شديدة حتّى أنّها تبدو حقيقيّة تمامًا لمَن تقع عينه عليها للوهلة الأولى، تمالكت عاليا نفسها بعدما استوعبت الأمرَ وما فيه، وأسرعت بلملمةِ شتات نفسها ونهضت على الفور، قائلة بثباتٍ زائف: *إنّها لوحة لعينة، سحقًا لمَن رسمها وتركها هنا*

ثمّ تجرّأت على اقتحام الغرفة وتبعتها كلّ مِن هدى وآمنة على حذرٍ لرؤية محتوياتها...

كانت الغرفة صغيرةً نسبيًّا، لكنّها جيدة بالنّسبة لعاليا ولمختبرها الصّغير الذي تودّ تأسيسه لإجراء تجاربها المتعلقة برسالة الماجستير التي تسعى إليها، ولكن الغرفة كانت عبارة عن مستودع للنّفايات المتعلقة بالسكان القدامى، من أغراض وأدوات للرّسم وبقايا قطع خشبية لأثاث متهالك وكتب عن الخرافات والجنّ ونقوشات في دوائر وطلاسم على الجدران والأرضية ورأتْ عاليا أنّ جزءًا من الغرفة سيكفي لوضع طاولتها وأدواتها، بينما في المستقبل القريب ستتخلّص من باقي نفاياته بما فيها تلك اللوحة القميئة الكريهة..

اقتربت هدى من اللوحة وتمعّنت في النظر إليها، ثمّ وقع نظرها على توقيع الرسام في النهاية (صفي) وربطت بينها وبين الشابّ الذي يحمل فرش التّلوين في الصورة التي عثرت عليها واستنتجت اسمه..(صفي).

كانت آمنة تتجوّل في الغرفة وتعبث بالأغراض والكتب، وطوّعت لها نفسها التقاط أحد تلك الكتيّبات وقرأت من باب الفضول سرًّا عنوانه والذي كان *التخاطر*، شيء ما جذبها نحو هذا الكتاب فهي لم تسمع من قبل بمصطلح التخاطر هذا.

أخذت الكتاب خفية، وفي غفلة من عاليا المنشغلة بتخيّل الغرفة بعد تنظيفها ورسم ديكورها الجديد، وهدى الشاردة في اللّوحة الكئيبة، توجّهت به نحو غرفتها وأخفته أسفل وسادة سريرها..

وفجأة دقّ جرس الباب...

تذكّرت هدى لتوّها موعد ثريا مع عامل الإصلاحات، فقالت: *يا الله لقد نسيت إخباركنّ أن السيدة ثريا أبلغتني بزيارتها في هذه الساعة برفقة عامل الإصلاحات، لأنّها كما ادّعت تشعر بالمسئولية، عاليا عليكِ باستقبالهما حتّى أرتدي ملابسي*

وانطلقت نحو الغرفة على الفور موصدةً الباب.

***

أسرعتْ عاليا نحوَ الباب لاسْتقبال الزّائرين، فكانت ثريا بالفعل برفقة رجلٍ مَهيب القسمات يبدو أسمرَ البشرة من شدّة احْمرارها، طويل القامة عريض الكتفين في منتصف عقده الرابع على أقصى تقدير..

قابلتها ثريا بابتسامة عريضة قائلة: *أسعدتني رؤيتك يا عاليا*

ابتسمت عاليا مرحّبة بها بشدّة: *أنا أسعد سيدة ثريا، مرحبًا بك*

ثمّ وجّهت حديثها للضيف الذي مدّ يده مصافحا فصافحته قائلة: *وبالضيف*.

دلفَ الضيفان إلى صالة الاستقبال وتساءلت ثريا عن الفتاتين (هدى وآمنة) فأخبرتها عاليا أنّهما في الغرفة الصغيرة ترتديان ملابسهما.

وقفتْ ثريا صامتةً لثوان، فقد كانت تتمنّى أن يراهنّ *مولانا* مجتمعات، وشعرت عاليا بخطب ما في الأمر فقالت: *هل تحتاجيناهنّ في شيء يا سيدتي؟*

أجابت ثريا بارتباك: *أمممم، كان باديًا عليهنّ الإرهاق حينما رأيتهنّ في الظهيرة وكنت أودّ الاطمئنان عليهنّ*

هزّت عاليا رأسها بالامْتنان ودعتهما للجلوس للضّيافة أوّلًا: *استريحا رجاءً لتقديم واجب الضّيافة*

ولكنّ ثريا قاطعتها قائلة: *لا داعي، فـ مو.. فالعامل يودّ الانتهاء من عمله سريعًا، إممم.. هل يمكنك استدعائهنّ لألقي عليهنّ التّحية*

كان إلحاح ثريا غريبًا نوعًا ما، فأردفت عاليا قائلة: *التّحية؟*

فتداركت ثريا الأمرَ قائلة: *وحتّى يعاين العامل الغرفَ لعلّ بعض الأثاث يحتاج هو الآخر لإصلاح*

تساءلت عاليا: *هل هو نجّار؟*

أجابت ثريا بضحكة مفتعلة: *إنّه يقوم بإصلاح كلّ شيء، فلديه طاقم كامل من العمّال، فهو لا يعمل بيده، فقط يقوم بالمعاينة ويترك العمل لموظّفيه*

نظرتْ له عاليا واستمالها هذا الغموض المثيرُ الكامن في قسماته وهيئته التي لا تدلّ أبدًا على أنّه مجرّد عامل إصلاحات.

لحظاتٌ وخرجت عليهم آمنة، فقالت عاليا: *ها هي آمنة*

تفحّصها الرجل بعينيه سريعًا، ومدّ يده لمصافحتها فصافحته، ثمّ أجرتْ معها ثريا نقاشًا بسيطًا فسألتها عن حال عينِها الآن، فأجابت آمنة ممازحة: *إنّها

بخير.. نوعًا ما، وتقوم بوظيفتها على مضض، ولكنّها تعمل*

فسألت ثريا عن هدى مرّة أخرى، فأجابتها آمنة أنّها مازالت ترتدي ملابسها، لم تتمكّن ثريا من المُمطالة أكثر من ذلك، فأشارت للرّجل بالبدء في المعاينة واحتجزت الفتاتين وأخذت تبادلهنّ أحاديثَ غير ذات قيمة..

توجّه الرجل على الفوْر نحو الممر، ووقعت عينُه على الغرفة المقابلة، وحين رآها مفتوحة لمعتْ عيناه وهرول نحوها على الفور، ثمّ استلّ قارورة صغيرة من جيبه بها سائل عديم اللون كالماء، وأخذ ينثر بعضَ النقاط بداخلها، ثمّ أعاد إخفاءها في ملابسه، ثمّ انسحب على الفور وما أنْ خرج من الغرفة حتّى وجد هدى تقف أمامه مباشرة.

انتظر لثانية استشفّ خلالها أنّها لم تلحظ ما كان يفعله لتوّه، ولكنّه شعر بقشعريرة بسيطة ما أن نظرَ في عينيها، وظلّ ساكنًا حتّى سألته هى: *مَن أنت؟*

قال: *عامل الإصلاحات*. ثمّ مدّ يده لمصافحتها ولكنّها أشارت بأنها لا تصافح الرجال.

ثمّ قالت: *وماذا تفعل في هذه الغرفة الفارغة؟*

قال: *لم أكن أعلم أنّها فارغة، هذه أوّل زيارة لي للمكان وأجهله*

قالت: *وماذا تريد أن ترى؟*

قال: *كلّ ما تظنّون أنّه تالف من أجهزة وأثاث*

قالت: *لا يوجد شيء في هذه الغرفة، فهي فارغة كما رأيت إلّا من بعض النفايات*

فأومأ برأسه تصديقًا لقولها فاستدارت نحو غرفة عاليا مشيرة له باتّباعها..

ثمّ أشارت له أن يدخل الغرفة وظلّت عاكفة على متابعته خشية أن يكون عديم الأمانة، وظلّ هو يدّعي معاينته المكان، ويحاول ملامستها بشكلٍ غير مقصود ليختبر شيئًا ما ولكنّها كانت حذرة للغاية.

ثمّ توجّه معها نحو الحمّام، وما أن خطتْ قدمه خطوة واحدة بداخله، وقع نظره على زاوية جانبيّة بالقرب من حوض الاستحمام، وبدت في عينه نظرةٌ حادّة، ثمّ تراجع ببطء.

تعجّبت هدى أنّه لم يدخل واكتفى بنظرةٍ خارجية فقالت: *ألن تعاين الباب عن كثب؟*

قال: *إنّه يعمل*

قالت: *ولكنّنا اختبرناه ولم يكن يعمل، المقبض يَعلّق*

قال بنبرة ثابتة: *لن يعلّق مجدّدًا*

أصابتها نبرتُه بارتجافة لحظية، وبينما هو يستدير تعمّد أن تصطدم يده بيدِها فأصابها شيء يشبه الماس الكهربائي، فانتفضت ممسكةً بيدها وقد أفلتت منها صرخة بسيطة.

ركضت على إثرها آمنة لترى ما يحدث وتبعتها عاليا وثريا، فتدارك الرجل الأمر قائلا: *يبدو أنّنا نحمل شحنات كهربائية زائدة، أعتذر منكِ لم أقصد*

قالت عاليا ملطّفة للأجواء: *نعم، هذا يحدث كثيرًا، لا داعي للقلق يا هدى*

اهتمّت آمنة بهدى، وأخذت تفحص يدها وكانت بخير..

ثمّ توجّه الرجل في عُجالة صوب المطبخ وفتح باب الثلاجة مدّعيًا فحصها، ثمّ أوشك على دخول غرفة هدى وآمنة، ولكنّ هدى منعته قائلة: *عفوًا، لا نحتاج لمعاينة غرفتنا*

قالت ثريا على الفور: *لعلّها تحتاج*

قالت هدى: *لا، هي بأفضل حال*

فغادر الرجل على الفور عائدًا لصالة الاستقبال وبدا أنّه لم يتمّم عمله كما ينبغي، لحقن به على الفور، بينما تخلفت هدى.

قال لهنّ الرجل: *كلّ شيء يبدو في أحسن حال*

وطلب الإذن بالمغادرة، فشكرتْ ثريا حسن استقبالهنّ وغادرت برفقته..

وما أنْ أوصدت عاليا الباب، حتّى عادت آمنة على الفور لهدى التي كانت قد دلفت إلى غرفتها وجلست على طرف سريرها تفحصُ يدها، وسمعت صوت آمنة من بداية الممرّ وهي تقول بصوت مرتفع: *لماذا لم تتركيه يعاين غرفتَنا، فسريري يصدر أزيزًا مزعجًا*

وقفتْ آمنة أمام هدى مندهشة، فكفّ هدى قد أصابته زُرقةٌ عجيبة كما لو كانت اصطدمت بشيء صلب، ثمّ قالت: *يا الله! ما الذي حدث؟*

فى اللحظة نفسها كانت عاليا قد وصلتْ إلى باب الغرفة ورأت هي الأخرى تلك الزُّرقة المفاجئة.

كانت هدى شاردة في استعادة تلك اللّحظات التي حاول فيها هذا الرجل لمسها أكثر من مرّة، كما استدعت تلك اللحظة التي نجحَ فيها أخيرًا، وكم لمعت عيناه حينما شعرت بتلك الوخزة، ولم تكن لمعة استمتاع بل لمعة ارتياب وكأنّه كان يريد التأكّد من شيء ما، وأخيرًا تأكّد له هذا الشيء.

وما قطع عليها شرودها سوى لمسات عاليا ليدها وهي تقول: *هل تشعرين بألم؟*

فهزّت رأسها في صمت أنْ لا..

فقالت عاليا: *إذًا لا مشكلة، يبدو أنّكِ شديدة الحساسية*

حمدت آمنة الله ثمّ قالت ملطّفة: *بما أنّ النوم قد طار من عيني فلا مانع عندي من تحضير الطّعام لنا، على أنْ تلتزم عاليا بالذّهاب للسيدة إيفون لتّتفق على استئجار الخادمة*

فوافقت عاليا على الفور فهي تضوّر جوعًا..

وأخيرًا تخلّصت هدى من شرودها واستجابت للحديث مع عاليا التي شرعت في نسج أحلامها وطموحاتها بالنسبة للغرفة الصغيرة وما تنتوي عمله فيها.

***

وفي شقّة ثريا التي بدا عليها القلق الشديد، جلس مولانا المدّعي كذبًا أنّه عامل الإصلاحات يتحسّس لحيته بأنامله، فقالت ثريا: *هل تراءى لك؟*

مولانا: *نعم كان يقبع في زاوية الحمّام، ومازال ضعيفًا ينتظر الإمداد بنَهَم*

ثريا: *وكيف وجدت هدى؟*

مازال مولانا يتحسّس لحيته قائلًا: *ليست كالشّاب، بل أشدّ وأقوى منه كثيرًا*

قالت ثريا: *وهل سيؤثر ذلك على إتمام الأمر يا مولانا؟*

مولانا: *الجيد في الموضوع أنّها تجهل قدراتها تلك، وما يمكنها فعلُه بها، ولكن الخوف إذا اكتشفتها وقتها سيفسد كلّ شيء*

ثريا: *وهل من حلّ؟*

مولانا: *الخسوف القادم باتَ وشيكًا، وسينتهي الأمرُ سريعًا، وسيهدأ كلّ شيء، والأمل معقودٌ على عاليا*

ثريا باندهاش: *كنت أظنّها آمنة، فعاليا تبدو قويّة*

مولانا مبتسمًا بسخرية: *هكذا يبدو الأمر من الخارج، ولكنّ أمثال عاليا ممّن يظنون أنهم أعلم من العليم تفتكُ بهم أضعف الأزمات، عاليا أكثرهم عنادًا وليس علمًا؛ بل هي أجهلهم بل أشدهم جهلًا على الإطلاق؛ لذا فهي ضآلتنا المنشودة، أمّا آمنة فهي فتاة نقية على سجيتها وفطرتها والفطرة النقية تؤمن بالله*

ثريا: *وهدى؟*

أطرق مولانا ثمّ قال: *لن تملك الكثيرَ من الوقت لاكتشاف الأمر*

***

انتهت الفتيات من تناول الطّعام في صالة الاستقبال ومع أفول الشمس تمامًا قالت آمنة: *سوف أتجهّز للذّهاب إلى العمل ولا تنسي يا عاليا أن تسألي السيدة إيفون عن خادمتها، فالمنزل مازال بحاجة إلى نظافة، خاصّةً غرفتك الجديدة تلك*

عاليا ضاحكة: *ضعي في بطنك بطيخة صيفيّة، فقط اهتمّي بمرضاكِ ولا تبالي*

وغادرت آمنة بعدما ارتدت ملابسها، وأخفت كتيّب *التخاطر* في حقيبتها، تاركة عاليا وهدى تتبادلان أطراف الحديث حول ما الذي سيفعلانه بنفايات الغرفة الصغيرة.

قالت عاليا: *أوّل شيء أودّ التخلّص منه هي تلك اللوحة البشعة المعلّقة على الجدار في الداخل، ثمّ تلك الكتب المتكومة في زاوية الغرفة*

وافقتها هدى فاللّوحة بشعة بالفعل، ولا تسرّ النظر، فطلبت منها عاليا مساعدتها في حملها أولًا وإلقائها خارج الشقة حتّى تستريح نفسيًّا..

ولمّا حاولتا حملها اكتشفتا كمْ هي ثقيلة للغاية رغم أنّها لوحة مرسومة على قطعة من القماش الأبيض داخل برواز من الخشب الخفيف، فكيف يكون وزنُها ثقيلًا إلى الحدّ الذي يصعب معه حملها؟!!

حاولتا مرّة بعد مرّة ولم تتزحزح، لم تنكرْ عاليا في تلك اللحظة أنّها بدأت ترتاب بينما لم تكن هدى كذلك على الإطلاق، وهذا هو الشيء الأكثر غرابة في الموضوع، وكأنّ شيئًا ما بداخل هدى يخبرها أنّه لا يجب إزاحتها من هذا المكان، وهذه إشارة من الله.

فقالت لعاليا بهدوء: *لعلّها مُثبّتة بمادة لاصقة قوية، أو شيء من هذا القبيل*

رغم أنّه التفسير المنطقي الأوّل لهدى حيال أمر غريب إلّا أنّ عاليا لم تتقبل فكرة وجود تلك اللّوحة معها في غرفة واحدة أثناء قيامها بعملها الذي سيحتاج إلى الكثير من التركيز، فقالت: *لن أتمكن من الاندماج في عملي وأنا أنظر إليها ليلًا*

هدى: *فلنغطّها إذًا، ما رأيك؟*

وجدت عاليا أنّه حلّ جيدٌ حتّى تُحضر أحدهم لنزعها بأي طريقة فيما بعد، وبالفعل أسرعت هدى بإحضار ملاءة، وقاموا بتغطيتها بإحْكام حتّى لا يبدو منها شيء، وأثناء قيام هدى بذلك وقعتْ عينها على أصبع المرأة في اللّوحة، ولفّت نظرها شكل الخاتم الذي كانت ترتديه، كان يشبهُ الوردة المتفتحة.

ثمّ ساعدت عاليا في حمْل تلك الكتيّبات الغريبة إلى الخارج، وتشاركا حملها وتركها على باب الشقّة تمهيدًا للتخلّص منها في الصباح.

ولمّا عادتا إلى الغرفة وجدْنها قد أظلمتْ للغاية، ولم يعدِ الضّوء القادم من مصباح الممرّ كافيًا لإنارتِها، فشرعتْ عاليا في إنارةِ مصْباحها، والذي لم يكنْ يعمل هو الآخر، وهنا اقْترحت هدى على عاليا أن تذهب لشراءِ مصباح جديد، وتمرّ في طريقها على السيدة إيفون تلك لتوصيتها على خادمتها حتّى تأتي في الصباح لكنْس ومسح الغرفة وتنظيفها من أكوام التراب وبعض *الكراكيب* التي مازالت تقبع فيها.

ولكنّ عاليا تهربت كالعادة متعللة بالكثير من الحجج وأنها متعبة من مشاوير اليوم

فلم يكنْ أمام هدى حلّ آخر سوى أن تذهبَ هي بنفسها، بينما ستستلقي عاليا قليلًا لتنال قسطًا من الرّاحة حتّى عودتها.

ولمّا خرجت هدى من باب الشّقة لم تجدِ الكتيّبات التي ألقتها منذ قليل!، فافترضت أنّ شخصًا ما قامَ بسرقتها، ورغم أنّ السّرقة ليست شيئًا محمودًا إلّا أنّها اعتبرتها خدمة جليلة، وخلاصًا من عبء حملها في الصباح وإلقائها في صندوق النفايات.

ثمّ راحت تسأل أحدَ المارة عن أقرب محلّ كهربائي فدلّها على واحد في آخر الشارع.

* * *

لم تكنْ عاليا تنتوي أن تغطّ في نومها، ولكنّها غُيّبت في الحال ولم تسمع صوتَ أزيز باب الحمّام حينما انفتح وانغلق، ولا صوت هبوب ما يشبه الريح الغبارية في الممرّ وصولًا للغرفة الصّغيرة المجاورة.

هاجت تلك الرّيح الخفيفة في الغرفة وتقهقرتْ لخارجها، ثمّ تسلّلت إلى حيث ترقد عاليا، وراحت تحوم حولها برويّة وتأنٍّ كأفعى تتراقص بخبثٍ ودهاء حتّى تنقضّ على فريستها.

ثمّ شكّلت تلك الرّيح الغبارية ظلًّا أسود، ثمّ بدأ هذا الظلّ يتجسّد شيئًا فشيئًا حتّى تحول إلى كيان شديدِ السّواد اقترب على مهلٍ من عاليا وأطبق على عينيها وفمها بأذناب تدلّت من فمه وقيد ذراعيْها بذراعيه وقدميها بقدميه..

بدأتْ عاليا تشعر بخفقان في القلب وشعور بالاختناق الشديد كأنّ أحدهم يحاول خنقها، هاجمها إحساسٌ بالسخونة الشديدة ثمّ اجتاحتها برودةٌ قاسية كما لو كانت تحتضر وتُنتزع روحها ببطء، جاهدت لتفتح عينيها رغم شعورها بالخدر القوي والشّلل التام!

كما لو كانت عالقة في عالم ثالثٍ بين عالمي الأموات والأحياء، كلّ شيء مظلم حولها كظلمة القبر، وبرودة عنيفة تغلف المكان كما لو كانت داخل ثلاجة حفظ الموتى، جاهدت باستماتة لتباعدَ جفونها فتراءى لها ذلك الظلّ

الأسود بدمامته وبشاعته، والذي بدا مستمتعًا وهو يجتاح بدنَها وهو في ذورة نشوته.

وكاد الفزعُ يفتك بها ويحرّر روحها الأسيرة بين مخالب هذا المسخ، ولم تتمكّن من أن تشهق في محاولة مستميتة لالتقاط بعض الأنفاس لتبقيها على قيد الحياة، ولكن.. كان أرحم بها أن تُسلم روحها لله على أن تعافر من أجل الحفاظ على هذه الحياة.

كانت كلّما شهقت كلّما تسلّل ذَنَابه من فمها إلى حلقها، ثمّ إلى جوفها ثمّ إلى عمقها، وشهقة تلو الأخرى حتّى تمكّن منها، ومن كلّ منفذ في جسدها حتّى صارا جسدًا واحدًا..

وهنا شهقت شهقتَها الأخيرة بقوّةٍ وعنف وخُيّل إليها أنها تحرّرت واستفاقت من نومتها البشعة وصرخت على رفيقتها صرخاتٍ مدوّية، سمعتها إيفون التي تجلس على كرسيها الخشبي بجوار النّافذة ككلّ مساء.

* * *

انتفضت إيفون من جلستها وتطلّعت نحو نافذة الشّقة المقابلة لها، اتّسعت عيناها وذرفت الدموع السّاخنة بقلب مفطور، وقد علمتْ مصير أهل هذا البيت الذي بات وشيكًا، كان الألم عظيمًا، ذاك الذي طعن قلبها للتّو فأمسكت بصدرها وهي تدعو الله بتعجيل السّلام لروحها المعذّبة، ولكنّ القدرَ لم يشأ ذلك بعد..

وبعد لحظات دقّ جرس بابها، فتحاملت على نفسها حتّى وصلت اليه وفتحته لتجد أمامها هدى، كان جليًّا أنّ السيدة تعاني من ألم شديد وتترنّح، فأسرعت هدى على الفور بإمساك يدها ومساعدتها على الجلوس فوق أقرب مقعدٍ وهي تقول: *بسم الله الرحمن الرحيم، هل تعانين من شيء يا سيدتي؟*

كان الألم قد خفّ قليلًا وهدأت نبضاتُ قلبها العليل، ثمّ سألتها بصوت خفيض: *من أنتِ يا بُنيّتي؟*

قالت هدى وهى مازالت تمسك بيد السيدة بعدما أفلتت كيس المشتريات: *أنا هدى جارتك التي تقطن في الشقة الأرضية المقابلة ببناية السيدة ثريا*

ارتعشت يدُ السيدة ثمّ قبضت على يدِ هدى بقوّة وقد عاودها ألمُ القلب بعنف حتّى أنّها لم تعدْ قادرةً على التقاط أنفاسها، ودارت مقلتاها في محجريهما، فأصاب هدى الخوف الشديد وهي تقول لها: *سيدتي، سيدتي.. هل أنتِ بخير؟ هل أطلب الإسعاف؟*

ولكنّ السيدة لم تقوَ على النّطق، فأخذت هدى تدور حول نفسها في المكان تبحث عن الهاتف حتّى عثرت عليه فوقَ طاولة جانبية، وطلبت الإسعاف التي وعدتها أنّها ستأتي على الفور.

كانت السيدة إيفون تصارع الألم المتزايد حينما عادت اليها هدى لتمسك يدها المتراخية من جديد وتدعو الله لها بالسلامة، وفجأة قبضت إيفون على يد الفتاة بقوّة، وقالت لها بصوت متقطع: *بات قوى*

لم تميّز هدى ما قالته لضعف صوتها فقالت: *ماذا يا سيدتي؟*

كرّرت إيفون: *بات قوى*

لم تفهم هدى المقصود وظنّت أنّ السيدة تهذي فقالت لها: *من؟*

قالت إيفون بصعوبة: *اهربي..*

ولكنّ هدى لم تنتبه مجدّدًا، وألحّت عليها أن تهدأ حفاظًا على حياتها، ولكنّ إيفون استمرّت في الهذيان بكلمات متفرّقة لا معنى واضح لها بتلعثم: *القمر.. الخسوف.. اهربي.. اهربي*

وما انتبهت إلّا بعد أن سكنت أنفاسُ السيدة وقد اعتلت وجهها ابتسامة هادئة وهي تقول: *جورج*

ثمّ ارتخت يدها الارتخاء الأخير، ونالت روحها السّلام الذي كانت تنشده.

بكت هدى.. بكت بحرقة فما أشبه اليوم بالأمس، وما أشبه تلك اللحظات باللحظات الأخيرة التي عاشتها بجوار أمّها وهي تحتضر..

وجالت الذكرى أمام عينيها..

حينما كانت ترقد أمّها فوق سرير المستشفى تعاني ويلات الألم من مرض سرطان العظام وتدعو الله أن يرحمها من عذابها، وأن يُلحقها به وبرحمته في جواره المكرّم.

كانت هدى تجلس حينها مُمسكة بيدها تتوسّل إليها ألّا تتمنّى الموت فقالت لها أمّها: *إن الموت ليس بشعًا لنكرهه ونشمئزّ منه، فكلّ نفس ذائقة الموت لا محيص، والمؤمن الحقّ هو من أحب لقاء ربّه، فما الموت إلّا انتقال من دارٍ إلى دار، وربّهما واحد، فلم الخوف وهو الرّحمن الرحيم إينما ذهبنا!*

قالت لها هدى والدّمعُ ينهمر من مقلتيْها: *ولكنّه الفراق يا أمّي، الفراق مؤلم جدًّا*

قالت لها أمّها بابتسامتها العذبة المعتادة، ووجهها المنير كالبدر في كبد السماء: *لن نفترق ستبقى روحي بجوارك دائمًا تحرسك وترعاك بأمر الله، فالموت الحقيقي لا علاقة له بفناء الأجساد، ولكن حينما تهجر الذكرى العقولَ وتُنتزع من القلوب يموت الإنسان ولو كان على قيد الحياة..* ازدردت ريقها بصعوبة، ثمّ أكملت بصوت ضعيف: *استعيني بالله دائمًا يا هدى، ولا تنسني من دعائك*

حملت هدى يدَ أمّها ووضعتها على قلبها وهي تبكي قائلة: *لن أنساكِ يا أمّي، لن أنساكِ ما حييت، أنا منكِ، دمائي من دمائك، ولحمي من لحمك، وعظامي من عظامك، أنا أنتِ ولا ينسى الإنسان نفسه، أنتِ نفسي يا أمّي، لن تغيبي عنّي مهما ابتعدتٍ، وستشفين وتعودين أفضل ممّا كنتِ، و...*

شُلّ اللّسان وانقطع الكلام.. ارتخت يدُ أمّها بين راحتيها، وهوتْ من بينها معلنةً إسلامها الروح لبارئها.

وشعرت هدى بالضّياع.. ضياع الروح، فالأمّ هي روح الحياة ومنبعُها، وهي وتد الدار، هي سندُ زوجها وحامية بيتها، هي التي إن قست الدنيا على أسرتها صفعت الدنيا وقوّمتها.

واستفاقت هدى من صدمتها صارخة أنْ: *يااااااالله اغفرْ لأمّي وارحمها فإنّها كانت من عبادك الصّالحين، وحرّم جسدها على النار يا أرحم الراحمين*

لم تشعر هدى بنفسها، وحلّت السيدة إيفون محلّ أمّها إلّا حينما اقتحم عليهما الشّقة رجلان من رجال الإسعاف، وأسرع أحدُهما لفحصها وتبيّن له بما لا يدع مجالًا للشّك أنّ السيدة قد توفّاها اللهُ منذ قليل..

وتركوهما ورحلا، ومازالت هدى لم تدرك بعد الموقفَ الصّعب الذي تواجهه، فلا جار لها في المنزل، فهو منزل من طابقٍ واحد، ولم تجد أمامها سوى أن تستجير بالسيدة ثريا..

ركضتْ على الفور إليها واستماتت على جرس شقتها حتّى فتحت لها بعد مماطلة، وكان باديا عليها الارتباك الشديد كأنّها قطعت عليها أمرًا عظيمًا، كانت تنظف يدها بقطعة من القماش الملطّخة باللون الأحمر.. ولكنّ هدى كانت في وادٍ آخر ولم تلقِ بالًا لما رأته ولا لتعابير ثريا المُريبة ونظراتها الحادّة وصمتها وثباتها.

وأخبرتها على الفور بأمر السيدة إيفون، فكسا الحزن عينيها على الفور، وسألتها وهي تغلق الباب لترافقها: *كيف عرفتِ؟*

قالت لها: *ذهبت لاستئذانها في استعارة خادمتها لتساعدنا، وبدا عليها التعب الشديد ولم تحتمل أكثرَ من بضع دقائق ماتت بعدها*

كانتا قد وصلتا إلى الشّارع فسألتها ثريا: *هل أنتِ متأكّدة؟*

أجابت هدى: *نعم، الإسعاف حضرت وأكدت الوفاة*

توقّفت ثريا عند مدخل منزل إيفون، وقالت: *لا يجبُ أن تحضري هذا الموقف مرّة أخرى، أرى أنْ تعودي إلى شقّتك، وسوف أتدبّر أنا الأمر، سأهاتف أولادها وسأظلّ بجوارها حتّى يأتون*

شعرتْ هدى بالإحراج ولم تستطعِ المجادلة، ثمّ تراجعت نزولًا على رغبتها،

وعادت إلى الشقة وهي تمسح دموعها التي تأبى أن تتوقف.

***

دخلتْ هدى الشقة في حالةٍ من الأسى على مصير تلك السيدة الوحيدة، وكان الليل قد ضرب جنبات المكان فأصبح مظلمًا للغاية، حاولت إنارة مصابيح الصّالة، ولكن يبدو أنّ جميعها قد تعطّلت، فدلفت نحو الممرّ تختلس قبسًا من نور مصباحِه، ولمّا أنارته فوجِعت من وقوف عاليا صامتة ثابتة في الغرفة الصّغيرة أمام الصورة المرسومة وقد كشفت عنها أغطيتها..

اقتربت هدى بخطًى هادئة نحوها وهي تقول بتوجّس: *عاليا.. عاليا*

لم تتلقّ أيّ ردّ حتّى أعادت نداءها من جديد.

وبدا أنّ عاليا كما لو كانت نائمة واستفاقت لتوّها قائلة بعد لحظات من الإدراك: *هدى؟ متى جئتِ؟*

أجابت هدى: *حالًا*

تعجّبت عاليا كثيرًا قائلة: *وكيف لم أشعرْ بكِ، ولم أركِ؟*

أجابت هدى: *أنا التي تحتاج إلى جواب*

تنهّدت عاليا فليسَ لديها جواب، ثمّ قالت بعد تفكير: *لم أنمْ جيدًا، ومرهقة للغاية، اضطرابات النّوم قاسية إلى أبعد حدّ، حتّى أنّ الإنسان قد يفقد الكثير من حواسّه*

قالت هدى وقد هدأ روْعها كثيرًا: *لا عليكِ، ستنامين وتتحسّنين، ولكن.. لماذا تقفين هكذا؟*

تلفّتت عاليا حولها ولمّا اكتشفت أنّها تقفُ في الغرفة الصّغيرة المظلمة كبقية الشقة، ظهر عليها الاندهاش والتوتّر فهي لا تتذكّر متى دلفت اليها، ولماذا؟ ولَمّا لم تجدْ ردًّا مناسبًا لا يدفع هدى للمزيد من الأسئلة حوّلت دفّة الكلام على الفور قائلة: *ماذا بكِ؟ أباكية أنتِ؟*

لعقت هدى شفتها السفلية بلسانها في محاولة لربط جأشها قائلة: *واجهت موقفًا صعبًا حينما ذهبت للسيدة إيفون.. كانت متعبة للغاية عندما طرقت على بابها ثمّ ترنّحت وهوت على مقعدها ولم تُطلِ البقاء أكثر من دقائقَ معدودة أسلمت بعدها الرّوح*

قالت عاليا بصدمة: *ماتت؟*

هزّت هدى رأسها أنْ نعم، فقالت عاليا بأسى: *يا للهول.. وكيف تصرّفتِ؟*

هدى: *لجأت للسيدة ثريا والتي أشارت عليّ بالعودة حتّى لا أحضر ذات الموقف مرّة أخرى لمّا لاحظت انهياري، وهي معها الآن*

عاليا: *لا بأس، هذه الأمور تحدث دائمًا، هل اشتريتِ المصباح؟*

هدى: *يا إلهي! لقد نسيت أغراضنا في شقتها*

عاليا: *لا عليكِ يمكنك ابتياع غيرها*

هدى: *لا.. لا، سأذهب على الفور وأعيدهم... إممم.. هل تروق لكِ الصّورة الآن؟*

عاليا: *أي صورة؟*

هدى باستغراب: *تلك، التي تقفين أمامها لقد كشفتِ غطاءها*

فركتْ عاليا جبهتها في محاولة لتذكّر الأمر وفشلت، آخر ما كانت تتذكّره هو تمدّدها فوق السّرير منذ قليل.. كما لاحظت هدى عودة الكتيّبات التي ألقوا بها خارج الشقة منذ قليل فسألتها: *وتلك الكتيبات مَن الذي أعادها؟*

باغت عاليا شعورٌ بالصداع الرهيب كما لو كان منشارًا صدئًا ينشُر رأسها نصفين فأمسكت بها ثمّ قالت بضيقٍ لهدى: *اذهبي يا هدى ولا تطرحي المزيد من الأسئلة فأنا متوعّكة كثيرًا*

ولمّا همّت هدى بالاقتراب منها كي تطمئنّ عليها نهرتها عاليا بقوّة قائلة بغضب: *قلت لكِ اذهبي أيّتها المتطفّلة*

ذمّت هدى على شفتيها ثمّ استدارت راحلة..

***

خطّت ثريا أولى خطواتها داخل شقّة إيفون وقلبُها ينبض بقوّة، تاركة الباب موارَبًا، ثمّ استقرّت بجوار جثمانها الملقى على المقعد في سكون وسلام، وقفت ثريا صامتة وهي تنظر إليها بأسى.. ثمّ جثت على ركبتيها، وأمسكت يدَ إيفون الباردة وهي تجاهد كي لا تذرف الدمع.

وقالت: *أهكذا يكونُ الوداع الأخير يا إيفون؟*

ولم تتمكّن من احْتجاز الدّموع أكثر من ذلك فتساقطت رغمًا عنها وهي تقول: *أعلم أنّكِ غاضبة منّي مثل رفعت تمامًا، ولكن... الأمرُ صعب.. صعب، أنا أهابُ الموت كثيرًا، ولست شجاعة كرفعت*

صمتتْ تجفّف دموعها ثمّ استكملت قائلة: *أنا لستُ بهذه البشاعة التي اعتقدتها في يومٍ ما ولست بهذه الأنانية التي نعتني بها رفعت، ولكنّي إنسانة وحيدة تخشى وتَخاف كسائر البشر، هل يحب البشر الموت ويسعون إليه!؟ ردّي عليّ.. هل يفعلون؟*

نكّست رأسها واستسلمت للبكاء ثانيةً..

شعرت أنّ ثمّة طيفَ أحدهم قد تجلّى بجوار الجثمان، رفعت عينيْها بخوف وحذر ليُخيل إليها أنّه طيفُ إيفون، وبنفس الملابس التي ترتديها الآن وماتت فيها، فهابت المشهد وتراجعت فسقطت ثمّ ابتلعت الصّدمة قائلة بعينين متّسعتين مشدوهتين: *إيفون؟*

كان طيفُ إيفون يقف صامتًا ينظر اليها غاضبًا، تعاتبها وتُجرّمها وتزفّ اليها النبأ اليقين بأنّ المصير الذي ينتظرها مشئوم ومظلم، لا رحمة فيه ولا تهاون.

لم تُرِدْ ثريا أن تصدّق ما رأته في عينيها، وقالت بتتعْتع: *م.. ماذا؟ م.. ماذا يا إيفون؟ ماذا رأيتِ*

مازال الطيف يقف صامتًا، وبدأت ثريا تفقد رباطة جأشها وهي تُعيد عليها السؤال: *ماذا يا إيفون؟*

ثمّ بدا من خلف طيف إيفون طابورٌ من الأطياف الناقمة على ثريا، بداية من رفعت، جورج، سعد الحارس، رجل وطفل وطفلة وامرأة وأربعة شبّان، يرمقونها جميعًا بنظرات نارية غاضبة... فجعها المشهدُ وتراجعت زاحفةً على الأرض حتّى التصق ظهرها بالحائط بفم مفتوح عن آخره ودموع مُنْهمرة، أخذت الأطيافُ في الاقتراب منها برويّة قاتلة، وأحاطوا بها في نصف دائرة وثريا شاهرة ذراعيها في وجوههم لتحتمي..

وبينما هي تشهق من الخوف ولا سبيل من النجاة اقتحمت عليها هدى الشّقة وصُعقت من منظر ثريا، فركضت نحوها وجثتْ بجوارها قائلة: *سيدة ثريا، ماذا بكِ؟*

أمسكت ثريا بكفّي هدى بقوّة شديدة كأنّها طوق نجاة في قلب المحيط، وتشبثت بها كما لو كانت على وشك الغرق، فمسحت هدى على رأسها وتلتْ سورة الإخلاص والمعوذتين، وأخذت ثريا تهدأ مع كلّ آية، واختفت الأطياف إلّا طيف رفعت الذي بدا على عينيه أنّه يستحسن هدى ثمّ اختفى..

دفنتْ ثريا رأسها في صدر الفتاة، وبكت بحرقة وعكفت هدى على تهدئتها حتّى هدأت تمامًا، ثمّ قالت لها: *أكنتما صديقتين إلى هذا الحدّ!، لتبكينها بهذا الشّكل؟*

لملمتْ ثريا حالها وجفّفت دموعها والتقطت أنفاسها واستوت في جلستها ثمّ اتّكأت على هدى كي تعينها على الوقوف، ثمّ قالت: *كنّا أفضل جارتين رغم أنّنا لم نكن صديقتين لفارق السنّ بيننا، ولكنّ ما يؤلمني أنّني أغضبتها منذ ٤ سنوات، وتخاصمنا بعدها، ولم يمهلني القدر الفرصة لإصلاح الأمر بيننا*

ثمّ انتبهت ثريا لهدى وسألتها: *ما الذي أعادكِ إلى هنا؟*

قالت هدى: *لقد أفلتّ حقيبة مشترياتي بجوار الباب وعدت لأخذها*

هزّت ثريا رأسها متفهّمة، ثمّ قالت: *حسنًا، خذيها وارحلي*

فأطاعت هدى على الفور، واستعادت حقيبتها ثمّ رحلت عائدة إلى شقتها.

***

عاليا.. عاليا

صوتٌ هامس دافئ أخذ يداعب أذني عاليا الممدّدة فوق سريرها تقاوم ألم الصداع، تكرر النداء الهامس أكثرَ من مرّة حتّى لم تعدْ تقوى على تجاهله، كأنّه سحر يقتادها دون أدنى إرادة منها، ووجدت نفسها تنهض من نومتها ببطء وتسير نحو الغرفة الصغيرة وهي مازالت تسمع النداء..

تتبّعت الصوت حتّى وقفت أمام اللوحة، وبدا الصوت أوضح، وبعد التنصّت جيدًا، اكتشفت أن الهمسَ يأتي من خلف اللوحة مباشرة.

شملت الجدارَ بالنظر المتفحّص علّها تجد شيئًا، وبدا كأنّ هناك طرفَ شرخ بادٍ من خلف اللوحة.. راحت تتحسّس الظاهر منه والذي لم يكنْ مرئيًّا من قبل.. وكلّما لمسته بأناملها تشعر بقوّة سحب وجذب قوي كأنّ مصدرًا للجاذبية الخالصة يقبع خلف الجدار.

كانت عاليا مأخوذةً بقوّة، ولا تشعر بنفسها على الإطلاق، حتّى أنّها لم تشعر بهذا المسمار المثبّت في قطعة خشبيّة مُلقاة على الأرض من كومة النّفايات حينما ثقب كعبها ولكن الأعجب من ذلك أنّ الدّماء التي سالت منه كانت تُمتصّ على الفور ولا يعدْ لها أثر.

وكلّما نزفت كلّما شعرت هي بنشوة داخلية غريبة كأنّ روحها تتغذى عليه وترتوي..

وكلّما زادت نشوتها كلّما أضاءت تلك النقوش المرسومة على بقية الجدار والأرض من تحتها، أنوار بيضاء تبهج النفس كأنها بعضٌ من أشعة الجنة، امتلأت نفس عاليا بالانشراح والابتهاج وبدتْ لها الغرفة قطعة من عدن من فرط نقاء ضيائها وجمال رائحتها..

كانت هائمة مُغمضة العينين وهي تتنشق هذا العطر الخلّاب المثير، ثمّ شعرت بحضور عجيب جعل قلبها يخفق، ولمّا فتحت عينيها تراءى لها شابٌّ غاية في الوسامة عاري الصدر، مفتول العضلات، يستر نصفَه السفلي بقطعة طويلة من الحرير الأسود الفضفاض.. ذو شعر أسود ناعم طويل متدلٍّ على كتفيه، وعينيْن سوداويْن واسعتيْن يملؤهما السّحر والجاذبية، برونزيّ البشرة، مفْعم بالرّجولة والفحولة والقوة، تعتلي وجهه الهيبة، فلم تملك أمامه سوى أنها ركعت على ركبتيها من هول عظمة حضوره.

اقترب منها على مهل، ثمّ مدّ يده يتحسّس وجهها وذقنها، ثمّ رفع وجهها لتقابل عينيها عيناه، وبتحفيز من لمسته وقفت وتبادلَا نظراتٍ عميقة وقوية.

اجتاحتها العديد من الأحاسيس المضطربة والمتناقضة، الخوف والاطمئنان.. القلق والهدوء.. الرّغبة في الاستسلام ومحاولة الإفلات والمقاومة، كان الأمر

مرتبكًا ومربكًا..

وبعد عناء استطاعت أن تُفلت الكلمات من بين شفتيها سائلة: *من أنت؟*

ابتسم ابتسامة ساحرة أثّرت لبّها وجعلتها تقف تتأمّله كالمسحورة، ثمّ قال بنبرة رخيمة: *ماردخاي*

قالت: *وماذا تريد؟*

قال: *أنا لا أريد، بل جئت لأحقّق لكِ مرادك*

قالت: *أيّ مُراد؟ أنا لم أرد شيئًا*

تحجّرت نظرات عينيه وعبسَ قائلًا بصوت مخيف: *كذبتِ، وأنا لا أحبّ الكاذبين*

احمرّت جفونها وتفتلت أشفارها من الفزع، فأكمل قائلًا: *لطالما تمنّيتِ هذا الشيء طيلة حياتك*

ثمّ استدار خلفها ولمّا أرادت أن تتبعه بالنّظر ثبّت وجهها للأمام صوب دائرة الطلاسم المرسومة على الجدار الذي تلاشى لتوّه كما تلاشت الغرفة كلّها، ووجدت عاليا نفسها تقف في شقة متواضعة.

لم تكنْ شقة غريبة، كانت شقّتها التي عاشت فيها في كنف أبيها وأمّها..
وجدت نفسها ابنة الرّابعة عشرة، المكان هادئ وأبوابُ الغرف مغلقة، وبينما كانت تمرّ بجوار غرفة أبويها إلى غرفتها سمعت حديثًا قصيرًا بينهما..

كانت أمّها تبكي، وأبوها يعنّفها ويتّهمها بتدنيس اسمه قائلًا: *وقفتِ وتحدّثتِ معه على قارعة الطّريق، لقد دنّستِ شرفي*

قالت أمّها الباكية: *أقسم بالله كان الأمرُ مصادفة، وهو الذي استوقفني وألقى التحية*

صفعَها على وجهها قائلًا: *حينما تقبَل امرأةٌ متزوجة أن تقف وتتجاذب أطراف الحديث مع رجلٍ كان يبادلها الحبّ قديمًا؛ فهي امرأة ملوّثة، ليتكِ تموتين وأستريح منكِ*

ثمّ فجأة تغيّر المكان لتجد عاليا نفسها في غرفة أبيها الممدّد فوق السرير ميتًا، وأمّها تجلس بجواره ترتدي الأسود وتبكي..

ارتمت فوق صدره صارخة: *أبي، أبي*

ولمّا حاولت أمّها تهدئتها نهَرَتها وأطاحت بيدِها بعيدًا عنها قائلة لأمّها بغضب: *أنتِ من قتلتِه، لقد سمعتكما بالأمس وأنتما تتشاجران، ثمّ نام حزينًا ولم يستيقظ بسببك*

حاولت الأمّ أن توضّح لها الأمور وأن تقنعها أنّه أمر الله النّافذ في كلّ الأحوال، ولكن عاليا لم تقتنعْ وكرّرت كلمات أبيها الأخيرة: *ليتكِ أنتِ التي ماتت وليس هو*

ثمّ ركضت خارج الغرفة تبكي بحُرقة غير عابئة بنداءات أمّها وتوسّلاتها..

ثمّ تغيّر المكان مجدّدًا ور،أت نفسها في سنّ السابعة عشرة تجلس بين خالاتها وهنّ يقنعنها بأن عليها الموافقة على زواج أمّها فلا يصحّ أن تكمل حياتها أرملة وحيدة لا تجد مَن ينفق عليها في الكِبر، صرخت عاليا قائلة: *سأعملُ أنا وأنفق عليها، هي لا تحتاج إلى رجلٍ، سأكون أنا رجل البيت*

ولكنّها لم تُقنع أحدًا...

ثمّ تغيّر المشهد مجدّدًا ورأت نفسها حبيسةَ غرفتها تتنصّت على صوت أمّها وهي تضحكُ مع زوجها الجديد بغرفة أبيها، وعلى سريره، ولم تحتملْ هذا الألم فبكت طويلًا..

وكانت تردّد: *ليتها هي التي ماتت وعاش أبي، لماذا يا ربّ؟ لماذا فعلت هذا بي؟ أعدْ إليّ أبي وسأفعل أيّ شيء في المقابل*

لم تشعرْ عاليا أنّ البثّ المباشر لأحداث الماضي قد انتهى، وأنّها عادت للغرفة الصغيرة كما عاد الجدار ذو الطلاسم، فقد كانت الدموع المنهمرة بحرارة تحجب الكثير من رؤيتها، ولم تستفق إلّا حينما اخترق صوت ناصور أذنها هامسًا: *هل ستنكرين بعد الآن؟*

هزّت عاليا رأسها بالنّفي، واستسلمت لتوجيهات *ماردخاي* لجسدها، فأدارها نحوه قائلًا: *لم يستجبْ لكِ من كنتِ تعبدين، أليس كذلك؟*

هزّت رأسها بالإيجاب..

فقال: *لكنْ أنا سأستجيب لكِ*. ومسح لها دموعها المنهمرة بحنوّ ولين..

ثمّ أكمل قائلًا: *ولكن اعْلمي أنّ لكلّ شيء ثمنًا، وقد يكون باهظًا*

فقالت بصوت مرتجف: *مستعدّة لأي شيء*

ابتسم ابتسامة ماكرة، ثمّ قال: *أواثقة؟*

أومأت بالإيجاب....

فقال: *إذًا، فلتؤمني بي*

قالت: *وكيف أؤمن بك؟*

قال: *أن تشهدي لى بالقدرة دون سواي، أنا.. وأنا فقط مَن يستطيع أن يحيي الميت ويميت الحي*

صمتَ لبرهة كي يمنحها بعضَ الوقت للتفكير مُخيّلًا لها بعضًا من ذكرياتها برفقة أبيها وراسمًا مشاهد مخزية لأمّها مع زوجها كي يُزيد من حنقها، وقد نجح في ذلك، نجح في إشعال حربٍ ضروس من الكراهية والرّغبة في الانتقام العارم، ولم تُطلْ عاليا التفكير بل أومأت بعد لحظات بالموافقة.

ثمّ بدأ في التّقهقر نحو الشّرخ الجداري، وتلاشى شيئًا فشيئًا في نفس اللحظة التي انفتح فيها بابُ الشقة.

***

في المستشفى..

كانت آمنة فاقدةً للكثير من الطّاقة، فهي لم تنمْ ليلتها جيدًا، ولم تنلْ قسطًا وفيرًا من الرّاحة قبل أنْ تبدأ عملها فأصابها التعبُ سريعًا، خاصّة وأنّ عينها مازالت تؤلمها وفمُها أيضًا من كثرة التّبريرات التي اخترعتها لغلْق أفواه زميلاتها اللاتي لم يتوانينَ في سؤالها المتكرّر عمّا أصاب عينها..

وفي غفلةٍ من الزميلات تسلّلت إلى غرفة الممرّضات، خاصّة وأنّ اليوم كان هادئًا ولم تكن هناك حالات طارئة ولا حرجة أي أنّ الوضع مستتبّ.

دلفت إلى غرفة الممرضات واستلقت فوق السرير المكتنز، وراحت تستعيد أحداث يومها الأخير مشهدًا مشهدًا، حتّى وصلت للّحظة التي شعرت فيها بالاختناق أثناء نومها، وكيف كان الأمر حقيقيًّا للغاية كما لو كان أحدهم كان جاثيًا بكامل ثقله فوق صدرها، فاقشعرّ بدنها، وزاد قشعريرة حينما استحضرت اللّحظة الأكثر فزعًا وهي مستفيقة، وبكامل إدراكها في الحمام وتلك الأصابع التي تحسّستها وأمسكت بمقبض الباب.

شعرت لحظتها بما لا يدع مجالًا للتّكذيب أنّ ما باغتها وقتها كان حقيقيًّا... لم تكنْ آمنة من المثقّفات العارفات ولا المتديّنات قلبًا وقالبًا حتّى يُكشف لها ولكنّها كانت ذات فطرة نقية مؤمنة لا يزعزع إيمانها شيء، فمالت إلى شكوك هدى، ولفظت تفسيرات عاليا المبتورة.

ولم تجدْ مهربًا من تلك المخاوف سوى أنْ تحاول القراءة وتشتيت عقلها بشيء آخر فأخرجت الكتيّب الذي أخفته عن التّخاطر من حقيبتها، وأخذت تقرأ وتقرأ، وعلمت في مدّة زمنية بسيطة أحدَ الأسرار الروحانية الغريبة، وعرفت أنّ التخاطر هو إمكانية التواصل روحيًّا مع شخص آخر حي قد يفصلك ويبعدك عنه بضعة أمتار إلى ملايين الأمتار شريطة أن تصُبّ جُلّ تركيزك عن طريق رياضات روحانية معينة، وكلّما كان المتصل يتمتّع بروح شفافة وجريئة كلما استطاع إجراء هذا الاتّصال أسرع وأيسر.

ثمّ فكّرت من باب الدّعابة أن تمارس هذه اللعبة مع هدى، فإن لم تكن آمنة على ثقة كبيرة من نفسها في مسألة الشفافية إلّا أنّها تثق بإمكانية هدى في ذلك.

ظلّت تفكّر بها وتتبع خطوات التّخاطر المكتوبة بدقّة وساعدتها الأجواء الساكنة وروح المكان الهادئة..

(لطالما كانت آمنة من هذا النوع المهدّد بالانقراض، الصديقة حسنة النية، ذات اللسان النظيف والقلب الأنظف، لا تحمل غلًّا ولا حسدًا ولا تتلفّظ الكلمات الجارحة في وجه الآخرين وتسميها صراحة، تعلم أنّ كلماتها تسقط على القلوب قبل الآذان فتنتقي أجملها، فكلّ الموازين تزن الجمادات

والأشياء إلّا ميزان الله يزنُ الكلمات والأفعال، وكلّ الذنوب مغفورة إذا شاء الله إلّا ما كان في حقّ عباده، فهي بين عباده فاحذروا يا أولي الألباب..

كم عانت آمنة من مرارة اليُتم فعرفت قيمة اللّمة والصحبة.. ذاقت القسوة فعرفت معنى الرحمة وكان هذا هو السبب في اختيارها لمهنة (التّمريض) تلك المهنة التي ينظر إليها قصار النظر على أنّها مهنة قليلة الشّأن ولأصحابها، بينما هُم الذين يسهرون على راحتهم عندما يملّ الأهل أو يباغتهم النومُ ويهلكهم التعب، نعم قد تجدُ بعض النماذج السيئة لكنْ دائمًا توجد آمنة ومن يشبهونها..)

ولمْ تدرِ آمنة الآمنة بنفسها إلّا وهي غارقة في سبات عميق ثمّ تراءى لها منام غريب، رأت عاليا تقف على شفا حفرةٍ من النار كالمغيّبة لا تدري إلى أيّ مصير مشئوم سيؤول بها الحال، بينما هدى مُلقاة على أرض صحراء جدباء بجوار صخرة صمّاء مقيدة اليدين والقدمين تتوسل من الله أن ينجيها فركضتْ آمنة نحْوها وضمّتها وهي تتحسّس وجنتيها وتطمأنها..

واستفاقت شاهقة تلتقطُ أنفاسها عنوةً من صعوبة المشهد فاكتشفت أنّها غفت بينما كانت تقرأ في كتيّب التخاطر الذي مازال نائمًا فوق صدرها هو الآخر.

وتبيّنت الصّبح وانقضاء مناوبتها الليليّة، فنهضت على الفور من فوق مرقدها بشعور بالغُصّة يعتصر قلبها..

* * *

قبلها بساعات...

حينما عادت هدى إلى شقّتها بعدما استعادت أغراضها من شقة السيدة إيفون، فتحت هدى الباب بهدوء، فآخر مرّة قالت عاليا إنّها تشعر بصداع شديد، ودلفت نحو الممرّ لتجد عاليا وللمرة الثّانية تقف داخل الغرفة الصّغيرة المعتمة بطريقة مخيفة ومريبة، وحينما اقتربت هدى أكثر شاهدت شيئًا عجيبًا..

صورة بالحجم الطبيعي لوالد عاليا معلّقة بجوار اللوحة المرسومة!

كيف أتت تلك الصّورة؟ ومتى؟ هي لا تدري..

أسرعت نحو عاليا التي مازالت لا تشعرُ بها على الإطلاق، وأمسكت بها من كتفها قائلة: *عاليا، عاليا*

انتبهت عاليا بهدوءٍ لوجود هدى ولندائها، ونظرت إليها وإلى عينيها المتّسعتين التي نقلتها بينها وبين صورة أبيها..

قالت هدى بخوف: *مِن أين أتت هذه الصورة.. وكيف؟ ومتى!؟*

أجابت عاليا بهدوء شديد: *ألم أخبركِ؟*

قالت هدى: *لا*

قالت عاليا: *اليوم.. وأنا في الخارج.. مررتُ على أستديو تصوير وأعطيته صورة أبي الصّغيرة الوحيدة التي تبقّت لي، وطلبت منه أن يجعلها بالحجم الطبيعي، وتركت له العنوان، فحضرت منذ دقائق قليلة عقب خروجك مباشرة*

هدأتْ هدى قليلًا، ولكنّها مازالت متوجّسة قليلًا ثمّ قالت: *لم تفكّري يومًا ما في فعل ذلك، ما الجديد؟*

تنهّدت عاليا بتأفّف ثمّ قالت: *الجديد هو أنّكِ صرتِ تنحشرين فيما لا يخصّك، وأنّه أمر لو تعلمين سخيفٌ ومرفوض، والآن اغربي عن وجهي؛ فأنا أريد الانفراد بذاتي وذكرياتي*

ثمّ رمقتها بنظرة حادّة غريبة للغاية وكأنّها ليست عينا عاليا المعتادة ولا نظرتيهما ولا حدقتيهما، حتّى ردّها كان غريبًا وغير معتاد، حتّى وإن كانت عاليا تسيئ الرّدود أحيانًا، ولكن كان جليًّا أن هذه الطريقة لا تنتمي إليها أبدًا، فهدى تعرفها منذ الطفولة وتحفظها عن ظهر قلب.

ولم تشأ هدى الاشتباك معها فلم تزد، وتركتها وخرجت تاركة إيّاها لتنفرد بنفسها قليلًا حتّى تهدأ.. ولمعت عينا عاليا فوْر ما استدارت هدى، بينما الأخيرة تجاهد حتّى تدلف سريعًا إلى غرفتها، وتترك العنان لخوفها وفزعها الذي

أصابها في اللحظات القليلة الفائتة.

وما أنْ دلفت إلى غرفتها أوصدتِ الباب سريعًا، وزفرت أنفاسها بهدوء، ثمّ جثت على الأرض خلفَ الباب تشاور قلبها..

كانت مشاعرها متقلّبة، وأفكارها متداخلة ومشوّشة للغاية، قلبها مشغول بعاليا وبتحولاتها المُريبة، بينما عقلها تخالطه كلماتُ السيدة إيفون الأخيرة، وحديثها عن هذا الذي صار أقوى ونصيحتها لها بأن تهرب.

ثمّ ألحّت عليها رغبة شديدة في دخول الحمّام، فنهضت من جلستها وتنصتت على الباب لتسمع ما إذا كانت عاليا تتجوّل في المكان أم لا، ولمّا بدا لها الممرّ هادئًا تجرّأت على فتح الباب وما أنْ فتحته حتّى أصابها الهلع..

كانت عاليا تقفُ في مواجهة الباب بثباتٍ مُخيف وصمت مُطبق، تسمّرت هدى ولم تستجمع كلماتها سريعًا، وفي النّهاية لم تجدْ بدًّا من بدأ الحديث فعاليا مازالت تؤثر الصمت.

هدى متلعثمة: *م.. ماذا؟ لماذا تقفين هكذا؟*

عاليا بنبرةٍ ثابتة خالية من المشاعر: *كنت على وشك أن أطرق الباب*

هدى بنبرة مرتجفة: *هل تريدين شيئًا؟*

عاليا: *أردت أن أسألك.. لماذا؟*

تعرّق جبين هدى التي لا تدري تحديدًا لماذا يساورها كلّ هذا الخوف قائلة: *لماذا ماذا؟!*

صرخت عاليا بصوتٍ عال، ونظرات شرسة وهي تتقدّم نحو هدى بغضب: *لمااااذا؟*

تراجعتْ هدى بسرعة كبيرة وقلبُها يكاد يتوقّف وهي تقول: *أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يا ربّي، ماذا بكِ يا عاليا أفيقي، أفيقي بالله عليكِ*

ولكنّ عاليا لم تتوقّف، بل مدّت أصابعها تحاول أن تُطبق في عنقها وهي تقول: *لماذا تصرّين على مراقبتي، لماذا تصرّين على تقييد حريتي*

دافعت هدى عن نفسها باستماتة ودارت معركة حامية بينهما، حتّى لم تجد هدى بُدًّا من ضربها في وجهها بقوّة فنزف أنفُ عاليا، فتراجعت هدى على الفور لمّا تراءى لها الدم وشعرت أنها قد أجرمتْ في حقّها، فاقتربت من عاليا التي بدا عليها الضّعف والدوار لبرهة، ولكنّ هدى تراجعت من جديد لمّا رأت الدم يختفي كأنّ شيئًا ما قد امتصّه..

وهنا أطلقت هدى النّداءات إلى ربّها، واستغاثت به قائلة: *بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم*.. كرّرتها

كثيرًا حتّى بدأت عاليا تترنّح، وسقطت مغشيًّا عليها في النهاية.

***

ولمّا عادت آمنة في الصّباح إلى الشقة، دقّت جرس الباب عدّة مرّات حتّى فُتح لها لتجدَ عاليا في استقبالها..

كان واضحًا على عاليا القلقُ الشديد حتّى أنّها لم تردّ تحية الصباح التي ألقتها عليها آمنة، فتعجّبت الأخيرة وانتقلت إليها عدوى القلق..

آمنة: *ما هذا الاستقبال الجاف؟*

تمشّت عاليا قليلًا نحو صالة الاستقبال ثمّ جلست على المقعد صامتة، فزاد قلق آمنة وهي تتلفّت حولها قائلة: *ماذا بكِ يا فتاة! وأين هدى؟*

قالت لها آمنة بنبرةٍ جادّة: *هدى نائمة، اجلسي فلديّ شيء أقوله لكِ، وأرجو أن تكوني مستفيقة حتّى تستوعبيه جيدًا*

اعتلت الجدية وجهَ آمنة وجلست منتبهة، وكلّها آذان مصغية، ثمّ تنحنحت عاليا قائلة: *الحقّ أقول لكِ، إنّ هدى تعاني من خطب ما..*

اشتعل القلق أكثرَ داخل آمنة فاستكملت عاليا حديثها قائلة: *بعدما رحلتِ، خرجت هي لتبتاع لنا بعض الأغراض ومرّت على السّيدة إيفون، ولسوء حظّها داهم الموت السيدة في حضرتها، ومِن لحظتها وأعصاب هدى متعبة للغاية.

(ابتلعت عاليا ريقَها لتحافظ على صدق نبرتها، ثمّ أكملت).. *وعادت مشدوهة مصدومة، ولمّا اكتشفتْ نسيانها الأغراض في شقة السيدة عادت إلى هناك لتحضرها، ولكنها لم تعدْ أفضل ممّا كانت؛ بل أسوأ بكثير، حتّى أنّها أوّل ما رأت صورة أبي التي أوصيت عليها مصوّرًا بالأمس حينما كنت بالخارج ليكبّرها أصابها الفزع بلا مبرّر، وحاولت نزعها فنهرتُها، فاستاءت منّي وركضت نحو غرفتها، وأغلقت الباب، ولمّا حاولتُ إصلاح الأمر وتقديم الاعتذار بدتْ غريبة جدًّا.

وبدأت تتخيّل أشياء غير حقيقية، وظنّت أنّني جئت لأعتدي عليها.. أممم.. وأنتِ على علم بأمر خيالاتها تلك وادّعائها الشّعور بأشياء غريبة.. ثمّ فوجئت بها تنقض عليّ وتحاول خنقي، فَـ.. فلم أجدْ حلًّا سوى تقييدها في السّرير اتّقاءً لشرّها)

فزّت آمنة من فوق مقعدها قائلة: *أيّ خرف تحاولين إقناعي به؟ هدى ليست مُدعية ولا مجنونة ولا هي خطرة كي تقيّدينها، هدى صديقتنا منذ زمن، ولم تفعل ما تدّعيه هذا أبدًا، ولم يصدر منها أيّ فحش لا من قول ولا فعل*

ثمّ همّت بالدّلوف إلى غرفتها لتباشرها، ولكنّ عاليا أمسكت يدها بقوّة لتجبرها على التوقف قائلة: *كلّ كلامك صحيح، ولكن منذ وطئت قدماها هذا

المكان ولها أمورٌ غريبة وتفسيرات غير منطقية، وأعتقد أنّكِ لن تنكرين ذلك*

كادت آمنة تقع فريسة الشّك، فهدى فعلًا صرّحت لها ببعض الأشياء الغريبة ولكنّها لا ترقى أبدًا لما تدّعيه عاليا، ثمّ جال بخاطرها المنام الذي رأته عندما غلبَها النوم في غرفة الممرضات، فأفلتت يدها من قبضتها وتوجّهت صوب غرفة هدى على الفور.

دلفتْ آمنة إلى غرفة هدى لتجدَها مقيّدة اليدين والقدمين تمامًا كما كانت في المنام، هرولت نحوها وفكّت قيدها، بدت في حالة إعياءٍ شديد ونصف فاقدة للوعي وأثر ضربة على مقدمة رأسها، فزعت آمنة لرؤية هذه الكدمة، وتخيّلت مدى القسوة التي تعاملت عاليا بها معها.

كان وقْع رؤية آمنة على هدى مريعًا وكأنّها طوق نجاة، وارْتمت بين ذراعيها على الفور، بينما كانت عاليا تتابع المشهد بعينين فاترتين أثارتا شكّ آمنة، فطلبت منها أن تتركهما على انفراد حتّى تسمع منها..

ولم تستجب عاليا سريعًا إلّا حينما اضطرّتها آمنة لذلك، وأغلقت في وجهها الباب وعادت تحتضن هدى..

* * *

عقب إغلاق آمنة الباب، ومنع عاليا من الدّخول، ظلت الأخيرة واقفةً خلف الباب لثوانٍ إضافية، ثمّ انتاب بدنَها رعشةٌ قويّة، وبدأت تشعر بالاختناق صمتًا دون أدنى قدرة على إحداث صوت، ثمّ أخذت عظامُها تطقطقُ وتنفردُ وتنبعج كأنّها تتكسّر عضوًا عضوًا، كما لو كان بداخلها شيء ما يحاولُ الخروج منها.. كيان فقدَ قوّته فجأة ولم يعدْ يحتمل هذا الجسد الآدمي الضعيف، فكلما ضعف الجسد المضيف ضعفَ هو بالتّبعية.

وهوتْ عاليا على الأرض، وقبل أن تصل إليها حُمِلت بيدٍ خفيّة، وسبحت بجسدها في الهواء، ثمّ دلفتْ بها إلى غرفتها، ووضعتها فوق سريرها برفق بالغ.

* * *

مازالت هدى في حالة عدم اكتمال للوعي حينما همستْ في أذن آمنة قائلة: *أشكرك على حضورك الليلة لإنقاذي دون أن تشعرين*

قالت آمنة: *علامَ الشّكر، لقد جئت في موعدي المعتاد*

قالت هدى: *بل حضورك الأوّل عندما حاولت عاليا قتلي*

ثمّ غابت عن الوعي مرّة أخرى.. اتّسعت عينا آمنة التي لم تفهمْ جيدًا مقصودَ هدى بحضورها الأول، وكيف أرادت عاليا قتلها! ولماذا!!.

أسرعتْ آمنة لخارج الغرفة كي تجلب بعضَ الماء لإفاقتها، ولم تجد عاليا في

الجوار ولم تسمع لها حسًّا، فتلصّصت عليها يمينًا ويسارًا حتّى تتأكّد من أنها لا تسترق السمع، ووجدتها في غرفتها مستلقيةً على سريرها، غارقةً في نومها، اقتربت منها قليلًا حيث أن شكلها كان غريبًا نوعًا ما، بدتْ عظامُ وجهها أكثرَ وضوحًا، والطريقة التي تتنفّس بها أكثر عنفًا.

قد لا يلحظ الغريب هذا التغييرَ الطفيف، ولكنّ شخصًا مثل آمنة حتمًا سيلحظ الفرق، كانت الزّرقة في أنفها أيضًا واضحة من أثر لكمةِ هدى لها.

تراجعت آمنة عائدة إلى هدى برفقة كوبٍ من الماء، وحاولت بكلّ الطرق التي تعلّمتها بحكم مهنتِها إعادة الوعي لها، ونجحت أخيرًا، سقتها كوبَ الماء وهي تنتظرُ على أحرّ من الجمر أن تتكلّم هدى وتروي ما حدث.

ولمّا انتبهت هدى أصابتْها فزعة، وطلبت من آمنة أن توصدَ الباب على الفور ولكنّها طمأنتها أن عاليا غارقة في نومها، ولكنّ هدى أصرّت قائلة بصوت خفيض مرتعش: *ليست فقط عاليا، أغلقيه رجاءً، وفي الحال؛ هيّا*

بدتِ الدّهشة على وجه آمنة بقوة...

وما أنْ أغلقت الباب حتّى بدأتْ تشعر هدى ببعضِ الرّاحة، ثمّ بادرت قائلة: *يجب أن نرحل من هذا المنزل، وفي أسرع وقت*

آمنة: *حبيبتي سنفعل كلّ ما تريدين، ولكن أوّلًا يجب أن تهدئي، وتقصّين عليّ القصة كلها*

صمتتْ هدى للحظات، ثمّ روت لها كلّ ما حدثَ منذ غادرت آمنة إلى عملها حتّى اللحظة التي لكمتْ فيها عاليا وترنّحت الأخيرة من قوّة اللكمة والدماء التي تمّ امتصاصها من قِبَل قوة مجهولة، وسقوط عاليا في النّهاية مغشيًّا عليها.

قاطعتها آمنة قائلة: *ولكنّ عاليا روت قصّة مخالفة، نهايتها أنّها لكمتك أنتِ وقيّدتك كما وجدتك أنا، فكيف انقلبت القصّة؟*

أغمضت هدى عينيها وهزّت رأسها فهي على وشك أن تبدأ في رواية الجزء الأكثر إثارة ثمّ قالت مستحضرة المشهد: *بعد أنْ فقدت عاليا وعيها شعرت بالإشفاق الشّديد نحوها فهي صديقتي، وعِشْرة عمري، وبدا أنّها تعاني من خطب ما جديد عليها، كنت متأكّدة من أن هذا التصرّف لا يمكن أن يصدر عن عاليا التي أعرفها منذ سنوات طويلة، اقتربت منها على الفور واحتضنتها...*

احتضنت هدى عاليا وهي تبكي نادمة قائلة: *عاليا، عاليا، أفيقي بالله عليكِ يا حبيبتب، أنا آسفة لم أقصد صدّقيني، عاليا حبيبتي أجيبيني*

وبينما هي في ذرْوة المشاعر النّبيلة، تجلّى لها على عتبة الباب أقدام إنسان، ولكنه ليس إنسانًا حقيقيًّا بل شبحه، بدا كظلّ أبيض تخالطه الرّمادية كما لو

كان كيانًا (نيجاتيفيّا)

أصاب هدى الرّوْع، وتصلّبت الدّموع في مُقلتيها، وهي تجاهد كي ترفع نظرها وتكتشف أمر هذا الشّيء، ثمّ بدا لها كطرف قميص، ثمّ رفعت نظرَها أكثر ليتّضح لها أنّه شبح امرأة في منتصف عقدها الثّالث تقريبًا.

لم تكن بشعَةً بقدر ما كان وضعها، فقد بدت منحورةَ العنق من أوّله لآخره تتّكئ رأسها المائلة على كتفها متماسكة بقطعة ضعيفة من الجلد قاومت الذبح..

ثمّ أخذ شبح المرأة يقترب من هدى بخطوات بطيئة كادت تتسبّب في إصابة قلبها بأزمة حادّة، لوْلا أنْ تماسكت بذكر الله وهي تتقهقر زاحفةً للخلف تصرخ قائلة: *يا ربّ، يا ربّ، أعوذ بكلماتك التّامات من شرّ ما خلقت، أعوذ بكلماتك التّامات من شرّ ما خلقت*

فتوقّفت السيدة عن التقدّم، فانتهزت هدى تلك اللّحظة وفرّت من الغرفة إلى صالة الاستقبال أملًا في الوصول إلى باب الشقة، والخروج لتصرخ طلبًا للنّجدة، ولكنّها ما أن أنهتِ الممرّ ركضًا ووصلت إلى صالة الاستقبال انبثق شبحٌ آخر من الجدار المقابل للممر، ولكنّه كان بشعًا، كان رجلًا عظيم الجثّة جاحظَ العينين، قام من مرقده كما تقوم المومياء المحنّطة من تابوتها في أفلام الرّعب، شاهرًا سكّينه الحادّ في وجه هدى التي صرخت صرخةً مكتومة من فرط الفزع، وأخذ يلوّح بها في وجهها بجنون، كادتِ السّكين تنحرُ عنق هدى، ولكنّها جثتْ على الفور لتنجو..

ولمّا رفعَت نظرَها تلتمس لحظة الهروب.. وجدت شبح المرأة التي كانت بالغرفة في مواجهة الرّجل، وكان عنقها سليمًا، باديًا عليها الخوف وهي تشير للرجل برجاء ألّا يفعل ولكنّه لم يستجبْ لتوسّلها، ونحر عنقها من أوّله لآخره إلّا القطعة الأخيرة التي تشبّثت بالرقبة وأنقذت الرّأس من الانْفصال عن الجسد، ثمّ فجأة تراءى لشبحي الرجل والمرأة شيء ما أرعبهما بقوة وتبخّرا على الفور.

في تلك اللحظة تجهّزت هدى لإطلاق صرخة مدوّية، ولكنّ شيئًا ما ارتطم برأسها بقوّة جعلها تترنّح، وتبدأ في فقدان الوعي بالكامل، وقبل أن تطبق جفنيها رأت عاليا وبيدِها قطعة خشبية من بقايا نفايات الغرفة الصغيرة ولم تدر بشيء بعدها.

وبعدَ قليل شعرتْ بنفسها راقدة فوق سريرها ومقيّدة اليدين والقدمين ما بين النوم والصّحيان، ويد تتحسّس وجنتها تحاول إفاقتها فخُيّل إليها أنّها آمنة، وبالرغم من حالة الضياع التي كانت تعانيها إلّا أنّ رؤيتها لآمنة أشعرها بالاطمئنان حتّى وإن كانت وهمًا في عقلها..

ثمّ قالت هدى بعدما تلاشت تلك المشاهد البشعة من أمام عينيها: *هذا كلّ ما

حدث*

كانت آمنة شاردة في كلّ كلمةٍ وحرف، إنّ ما تقوله هدى دربٌ من دروب الخيال التي لم يسمع بها أحدٌ من قبل، حتّى في أعتى حكايات الرعب.

* * *

(وكأيّ إنسان لديه القليل من العقل، حاولت آمنة الاقْتناع بما يُمليه المنطق حتّى وإن كانت متأكدة أنّ هناك الكثير من اللامنطق الحقيقي كالجزء الخاصّ بالمنام، ولكنّها مؤمنة أنّ الرؤى هي رزق من الله، ولا تشكّ في صحّتها، أمّا عن الأشباح التي تظهر عيانًا بيانًا بهذا الشكل، فهي لا تملك الكثير من الاقتناع بصحّة وجودها، ويبدو أنّ هدى قد عانت من ليلة قاسية نفسيًّا بالذات عند رؤيتها لاحْتضار السيدة إيفون وحضورها الموقف بالكامل فيكون من الطبيعي والممكن أن يثيرَ هذا الكثير من الخوف والخيالات المتعلّقة بالموت، تمامًا كرؤية الكوابيس عقب مشاهدة فيلم مُرعب.

لذا آثرت آمنة ألّا تبوح لهدى في الوقت الحالي بأمر الكتيّب الذي قرأته عن التخاطر، وكيف أنها اقتحمت التجربة لتراسلها عن بعد، ورؤيتها المنامَ الذي كشف المشهد الأخير من ليلة هدى حتّى لا تصيبها بمزيدٍ من الخوف والاضطراب، وحتّى تتأكّد من بضعة أمور أوّلًا قبل أن تزيد طينة الأمور بِلّة في هذا الوقت المضطرب العصيب.

شردتْ آمنة طويلًا وهي تتذكّر أمر الحمّام واليد التي شعرت بها، وما قطع شرودها سوى صوت هدى تقول: *هذا المنزلُ مسكونٌ يا آمنة، وسكّانُه لا يرحّبون بنا، هذا المنزل ملعون..*

(المنزل الملعون!) تلك الكلمة التي قالها لها بائع المخبوزات، ها هي آمنة تتذكّرها، وها هو طرف الخيط الأول.

مسحت آمنة على وجْه هدى قائلة: *أعدُك أن نغادر هذا المنزل، ولكن.. يجب أن نتأكّد أوّلًا أنّها ليستْ أوهامًا انعكست على مخيّلتك عقب رؤيتك لاحتضار السيدة إيفون، كثيرًا ما يحدث هذا يا عزيزتي، كثيرًا.. صدّقيني*

عادت هدى تبكي قائلة: *لا يا آمنة لا، ما رأيته كان حقيقيًّا.. ثمّ حتّى لو كانت تهيؤات فما حدث مع عاليا لا يمكن أن يكون تهيؤات*

حاولت آمنة تلطيفَ الأجواء قليلًا قائلة: *لقد روت قصّة مختلفة تمامًا يا هدى، تظهر أنّكِ التي اعتديتِ عليها أوّلًا فوْر رؤيتك لصورة أبيها، على كلّ حال سأمكث معكنّ الليلة، وسأتغيّب عن العمل حتّى تهدأ الأوضاع بينكُن*

صمتتْ هدى مستسلمة، وما عادت تملك أيّ دفاع منطقيّ عن نفسها، في النهاية ستبدو هي المجنونة فآثرتِ الصّمت ليس اقتناعًا بشيء آخر غير الذي حدث بالفعل، ولكن حتّى تعثر على دليل قويّ على صدق كلامها؛ لذا فضلت

أن تكتمَ ما قالته لها إيفون بشأن الهرب والمخلوق الذي بات قويًّا.

مسحت هدى وجهَها براحتيها لتستفيقَ أكثر، فقالت لها آمنة التي جال في رأسها أمرٌ ما: *ما رأيك لو نخرج معًا نشتري بعض المأكولات*

هدى: *لا، اذهبي أنتِ، أمّا أنا فسأقوم لأصلّي، فلم أصلّ منذ وطأتْ قدماي هذا المكان رغم أنّني تذكّرت ذلك، ولكنّي سهوت من جديد*

آمنة: *هل ستكونين بخير؟ أخشى أن تستيقظ عاليا وتتشابكا من جديد*

هدى: *لا عليكِ طالما أنّني سأكون بين يدي الله، فلن يمسّني سوء أبدًا*

***

وصادف خروج آمنة ولوجَ السيدة ثريا إلى المنزل وهي ترتدي الملابس السوداء، فاستوقفتها مُعزّية: *البقاء لله سيدة ثريا*

ثريا بحزن: *هل علمتِ بالأمر؟*

آمنة: *نعم، البنات أخبروني*

أطرقت ثريا لتواري دموعها فقالت آمنة: *ربط الله على قلبك*

فأومأت ثريا قائلة: *كانت سيدة حسنة العِشْرة والجيرة، لا أصدّق أنّها رحلت ووارها الثرى منذ قليل*

آمنة: *هذه سنّة الحياة، ولا مهربَ من الموت، كلّ مَن عليها فانٍ مهْما طال الزمن*

كانت لكلمات آمنة الأخيرة وقعٌ شديدُ القسوة على قلب ثريا التي بدتْ شاردة تصارع شيئًا خفيًّا بداخلها، ثمّ أكملت سيْرَها نحو الأعلى دون تعقيب.

تابعت آمنة سيْرَها الحثيث بنظرةِ إشفاق على حالها، ثمّ رحلت هي الأخرى إلى وجهتها.

***

نهضتْ هدى من فوق سريرها بشعور بالثّقل والإجهاد، وفي رأسها فكرة واحدة وهي أنّها لن تجزع بعد الآن قائلة لنفسها في نفسها: *لن يضيّعني الله أبدًا*

ثمّ دلفت للحمّام بعدما استعاذت بالله من الخبث والخَبائث وتوضّأت ثمّ خرجت لتصلّي في غرفتها بين السّريرين ركعتين قضاءَ حاجة، ودعتِ الله- سبحانه وتعالى- أن يقيها شرّ كلّ ذي شرّ، وأنْ ينجّيها ممّا لا تعلم، وأنْ يكشف لها من عنده سبلَ السّلام.

وما أنْ فرغت من صلاتها وقامت منها شعرتْ براحةٍ كبيرة وطمأنينة شديدة،

وشعرت أنّ الله- سبحانه وتعالى- قد استجاب لدعائها، وأنّه بجوارها، فجلست تحمدُ الله على ما رزقها وما أن انتهت وشرعتْ في النهوض وقع نظرها على طرف السرير فإذا بصورة الشباب الأربعة التي كانت قد اختفت تتجلّى من تحت طرف السّرير، فالتقطتها على الفور، وشعرت أنّها رسالة ربّانية وطرف خيط.

التقطتها على الفور، وأخذت تحدّق بها، وبالأخصّ في الشّاب الذي كان يحمل فُرَش التلوين، وتمتمت قائلة بصوتٍ خفيض: *أشعر أنّك تودّ قول شيء.. يا ترى ماذا تريد أن تقول؟*

* * *

كانت آمنة قد وصلتْ إلى محلّ المخبوزات لتلتقي البائع الذي نعتَ منزل ثريا بالملعون، ولكنّه لم يكنْ متواجدًا، وكان هناك ولدٌ صغير يقف بدلًا منه، طفل لا يتعدّى الحادية عشرة..

ابتسمت له آمنة ابتسامة ودودة، ثمّ سألته: *مرحبًا، إممم.. أين بائع المخبوزات؟*

أجابها الصّبي: *ليس هنا*

آمنة: *نعمْ أرى ذلك، أقصد أين أجده الآن؟*

الصّبي: *أبي مسافر لبضعة أيام، وأنا أحلّ محلّه حتّى يعود، أي خدمة؟*

خاب أملُ آمنة وتردّدت في طرح السؤال الذي جاءت من أجله على صبيّ في مثل عمره، ولكنّها.. وبعدَ برهة من التفكير قرّرت أن تطرحه بشكل غير مباشر، قائلة: *أردت أنْ أوصي على بعض المشتريات، ولكنّي سأحتاج لشخص يقوم بإيصالها إلى المنزل، أممم المنزل ليس ببعيد، إنّه منزل السيدة ثريا الطابق الأرضي*

كانت هناك ارْتجافة واضحة على جسد الصبي فور سماعه باسْم السيدة ثريا ومنزلها، وقال في الحال: *لا، لا نوصل لهذا المنزل شيء*

آمنة مستفهمةً بسذاجةٍ مُصطنعة: *لماذا؟! سأعطيك *بقشيش* كبير*

قال: *لا، لا يجب أن أقترب من هذا المنزل الملعون*

اقتربت منه آمنة مضيّقة عينيها السليمة قائلة: *لمَ تنعته بالملعون؟*

قال متردّدًا، ولكنّها براءة الأطفال: *يقولون إنّه مسكون، و....*

قطع حديثه دخولُ امرأة ترتدي جلبابًا وحجابًا بوجه جادّ، يبدو أنّها سمعت آخر كلمات الصبي ثمّ قالت له بحدّة: *كريم، تنحّ أنت، وسأتسلّم أنا العمل بدلًا منك*

هزّ الصبي رأسه بطاعة قائلة: *حسنًا يا أمّي*

وجّهت المرأة حديثها الحادّ النّبرة إلى آمنة قائلة: *ماذا تريدين؟*

فأجاب الصبي قبل خروجه من المحلّ: *كانت تسأل عن منزل السيدة ثريا*

اضطرب وجهُ آمنة وهي تقول ملطّفة: *كان حديثًا عابرًا يا سيدتي*

قالت السيدة باحْتداد: *من أنتِ؟*

زاد اضْطرابها ولعثمتها قائلة: *أ.. أنا، أنا صديقة لمَن سكنوا هذه الشقة.. هناك في منزل السيدة ثريا*

احمرّت عينا السيدة واتّسعت قائلة بنبرة غاضبة، يخالطها الخوف: *اذهبي، اذهبي ولا تعودي إلى هنا أبدًا، اذهبي*

فُزِعت آمنة من صرخة السيدة وحملت حالَها على الفور وابتعدت عن وجهها..

التفتت الأمّ لابْنها قائلة بغضب: *ألم أنهِك عن ذكْر هذا المكان والحديث إلى الغرباء!؟*

قال الطفل خائفا: *بدتْ لطيفة يا أمّي*.

قالت بحنق: *لطيفة!!، كان من الممكن أن تقتلك يا أحمق، هذا المنزل يحوّل سكّانه إلى قتلة، لا أحدَ في الحيّ كلّه يتجرّأ على الحديث عنه أو الاقتراب منه*

***

ظلّت هدى تحدّق في الصورة أكثر وأكثر، وخُيّل اليها أن الشّبان الأربعة يتحركون إلى اليسار قليلًا، وبدا لها كطرفِ لوحة، ثمّ أخذت اللّوحة تتّضح أكثرَ فأكثر حتّى ظهرت كلها كاملة، هي بذاتها اللوحة القابعة في الغرفة الصغيرة، ثمّ بدأ شيء ما يتغير في اللوحة ويتشكّل منظر جديد غير المرأة المرسومة فيها، شيء يبدو.... كالفوهة أو.. الثقب.

حملت هدى نفسها بصعوبة لتتوجّه نحو الغرفة الصغيرة مرورًا بغرفة عاليا التي مازالت غارقة في نومها كالقتيلة، فأوصدت باب غرفتها بهدوء شديد.

ودلفت إلى الغرفة الصغيرة، وأخذت تمعنُ النظر في اللوحة الحقيقيّة، وتقارنها بالتي في الصّورة، ولكنّ الحقيقة لا تشفّ ما تحتها، ولا يوجد أيّ أثر لوجود ثقب خلفها.

أخذت تتحسّس اللوحة فشعرتْ ببرودة عجيبة في منتصفها تقريبًا، ثمّ وقع نظرها على أثر صغيرٍ جدًّا لشرخ أرفع من شعرة الرأس، واصِلًا بين اللوحة وصورة والد عاليا المكبّرة، تلك الصّورة التي شعرت حيالها هدى بالارْتياب والخوف فقد خُيّل لها أنّ عينا والد عاليا تنظر إليها مباشرة عكس المرّة

الأولى التي رأتها فيها، ولكنّها ظنّت أنّ هذا الشعور ربما يكون طبيعيًّا لأنها تقفُ في زاوية مختلفة عن المرّة الفائتة، ولمّا تحركت خطوة لليسار خُيّل إليها مجدّدًا أنّ العين تنظر إليها، ثمّ أخذت خطوتيْن إلى اليمين فتبعتها أيضًا.

هنا، شعرت هدى بارتجافة الذّعر، وأخذت تستعيذ بالله..

ولم يجبرها عن التّراجع عن الهروب من تلك الغرفة سوى ذلك الصّوت الذي أتاها من خلفها فتسمّرت مكتومة الأنفاس كأنّ على رأسها الطير.

***

ابتعدت آمنة وهي تتنفّس الصّعداء، فلتوّها نفدت من بين مخالب فكّ مفترس، ورغم ما قاله الصبيّ عن المنزل وعن كوْنه مسكون، وردّ فعْل أمّه الحادّ والعنيف؛ إلّا أنّها قرّرت أن تتأكّد من شخصٍ آخر، وتوجّهت نحو الكُشك الصغير على النّاصية المقابلة لناصية منزلٍ ثريا، فهو حتمًا قدْ سمع عن هذا المنزل شيئًا ستودّ معرفته.

بخطى واسعة وسريعة وقلبٍ مرتجف مخافة أن يتأكّد لها الأمر، وصلتْ للكشك وتصلّبت أقدامها أمامه، كان البائع رجلًا كبيرًا في السّن يجلس فوق كرسيّ خشبيّ داخل الكشك يقرأ في المصحف.

وقفت أمامه كالبلهاء لا تعرفُ كيف، ولا من أين تبدأ الكلام، فكّرت في الكثير من الافتتاحيات والمقدّمات التي تستهلّ بها الحديث حتّى لا تتعرّض للصدّ مرّة أخرى، وأكّدت على لسانها ألّا يتسرّع ويكشف أنها من سكان هذه الشقة.

ولمّا طالت وقفتها الصامتة لم يجدِ البائع بُدًّا من سؤالها: *هل تحتاجين إلى شيء يا بنيتي؟*

بدا رجلًا لطيفًا وبشوشًا يحتلّ الشّيب كامل رأسه، وذا لحيةٍ بيضاء، حفر الزمن خطوطه الغائرة على قسمات وجهه..

حثّتْ آمنة نفسها بصعوبة على فتح الحديث، وفي النهاية قالت: *أريد علبة عصير*.. ثمّ أشارت بأنمل مرتعشٍ نحو علب عصير المانجو في الثلاجة الخارجية.

فتبيّن الرجل كذبها، وأنّها لم تأتِ لهذا الغرض، فابتسم ابتسامة هادئة ولطيفة، ثمّ خرج ليحضرها لها، وبينما هو يفعل سألها بنبرةٍ ودودة: *لم أركِ من قبل، هل أنتِ جديدة في الحي؟*

أومأت رأسها بالإيجاب..

فقال: *وأين تسكنين؟*

بدا عليها التّوتر والتعرق، ثمّ قالت بصوت مُرتعش قليلًا: *في هذا الشارع*

فقال ببشاشة: *الشّارع طويل، أين بالتّحديد؟ في أيّ منزل؟*

لم تحتمل آمنة فكرةَ اللفّ والدّوران وهي التي لم تعتدْ على ذلك قط، لطالما كانت صريحة نقية وواضحة، فأقرّت كالمتّهم المعترف بجريمته: *الحقّ أقول لك إنّي ما جئت لأشتري العصير*

هزّ الرجل رأسه باسمًا فهو يعرف ذلك، فأكملت قائلة لِمَا رأت منه من سماحة وتقبّل للأمر: *في الواقع.. وفي الحقيقة جئتُ بحثًا عن صحة معلومة ما*

قال لها الرجل: *كلّي آذان مصغية، وتأكّدي بأنّي لن أبخل عليكِ بما أعرفه*

تشجّعت فقالت: *هل صحيح ما يُشاع حول منزل السيدة ثريا بشأن الشقة الأرضية المسكونة؟*

انكمشت ابتسامته واعتلى العبوس وجهه ممّا زاد من توترها، وجهّزت نفسها مرة أخرى للطرد، وطالَ صمت وعبوس الرّجل الذي أطرق برأسه، علمت أنّها أخطأت لمّا اعتقدت أنّه سيساعدها، وهمّت بالرّحيل لولا أنّه استوقفها قائلًا: *نعم هذا المنزل مسكون*

رغم أنها سمعت ذات الكلمة من قبل، إلّا أنها شعرت هذه المرّة بجديتها وصدقها مما أوقعها في حالة خوف حقيقي، وشعرت أن الأرض تموج تحت قدميها، ودارت بها الدنيا لبرهة.

آمنة: *أرجوك أخبرني بكلّ ما تعرف*

الرّجل: *أنتِ حتمًا لا تسكنينه بمفردك صحيح؟*

هزت آمنة رأسها بالإيجاب ثمّ قالت: *أنا وصديقتيّ*

عاد الرجل لإطراقه ثمّ ازدرد ريقه قائلًا: *اسمعي، من الأفضل أن ترحلي ومَن معكِ من هذا المكان؛ فإنّه إذا تمكّن من إحداكن فلا خلاص لكُنّ منه*

عقدت آمنة حاجبيها في اندهاش قائلة: *مَن هو؟ وما قصّة هذا البيت؟ لماذا لا يريد أحد أن يتحدّث باستفاضة؟*

قال الرجل: *لأنّ مَن يتحدث باستفاضة ويكشف أسرار هذا البيت سيناله ما نال الحارس سعد، وقبل أن تسأليني مَن هو الحارس سعد سأروي لكِ قصّته....*

***

عاد الرجل بذاكرته عامَيْن إلى الخلف..

(بعدما انتهت قصة عادل التي تحفّظ في روايتها ولم يذكر عنه سوى أنّه أصل البلاء، ثمّ أتت بعد عامين من غلق الشقة أسرة صغيرة، وأيضًا تحفّظ في ذكر التفاصيل عنها، تحدث عن أربعة شباب عزاب أتوا قبل عامين، وبدأ الأمر سريعًا عكس المرتين السابقتين، وحينما اشتد الكرب عليهم بعدما تمكّنت روح المكان من أسْرِ أحدهم تدخّل الحارس سعد وكشف سرّ المكان الملعون لشابّ منهم ليساعده، ولم يمرّ على الرجل سوى بضع ساعات عانى فيها من فزع شديد حتّى إنّه كان يمزّق لحمه بأظافره، ثمّ بأداة حادة، وكان على وشك قتل نفسه قبل أن يتدخّل الناس ويقوموا بتخديره، ولما استفاق وجد نفسَه مصابًا بشلل رباعي، كما فقد النطق، ثمّ أتت أسرته وأخذته إلى قريته الصغيرة بالحرانية ليقضي ما تبقّى له من العمر بينهم)

ثم قال الرجل بعد لحظةٍ من الحزن المؤثر: *ومِن يومها ولا يجرؤ أحد على ذكر تفاصيل ما حدث، أو الحديث عمّا دار بين جدران هذا البيت الملعون، حتّى ولو بينه وبين نفسه، وكلّ ما أستطيع قوله هو أن تهربي ومَن معك، وإلا ستموتون جميعًا كما مات من قبلكم، إلّا إذا.....*

ولمّا طال تردّده عن البوح بما يُكِنّ، توسّلت له آمنة بنظراتها الخائفة المنكسرة أن يُكمل، فقال: *إلّا إذا كان قد تمكّن من أسْر إحداكُنّ، فوقتها لن تملكنَ سوى ترك الشخص الملبوس لأنكن لو حاولتُنّ إنقاذَه سيتعذب كثيرًا حتّى يموت*

آمنة بألم شديد: *وإذا تركناه في الشقة بمفرده؟*

أطال الرجل النظرَ إليها، ثمّ ترقرقت الدموع في مقلتيه قائلًا: *سيموت بلا عذاب*

آمنة دامعة: *ألم ينجُ أحدٌ من قبل؟*

نظرَ لها الرجل نظرة حزينة مُنكسرة ففطنت لمقصوده.. لم ينج أحد.

فقالت: *ألم يحاول أحدٌ ردْعَ هذا الشّيء القابع في الداخل؟*

قال مُتصعّبًا: *حاول أحدُ الشباب الأربعة بعدما أخبره سعد بكل شيء ولكنّه... لم ينجح*

قالت آمنة بنبرة جريحة: *والسيدة ثريا؟*

قال الرجل بتعابير مُستاءة: *امرأة مغبونة كريهة معدومة الضّمير*

اعتلى وجه آمنة الحنق، وباتت تفهم الآن سرَّ نفور هدى منها.. ثمّ تذكّرت هدى قائلة في نفسها *ياإلهي، كانت محقّة، والآن هي بمفردها مع عاليا*

ثمّ حملت حالها وركضت على الفور دون أن تشكرَ الرّجل أو تودّعه، ولكنّه لم يكن مهتمًّا لا بشكر ولا وداع، بل بمصير تلك الفتاة التّعيسة ومَن معها.

قبلَ أن تستدير هدى لتكتشفَ مصدر الصوت، عاشت بضع لحظات مريرة وهي تطرح على عقلها كافة الاسْتنتاجات كي تتهيّأ نفسيًّا لكلّ الاحْتمالات، هل هي عاليا؟ أم شبح الرجل والمرأة المخيفين؟ أم شيء جديد لا تعرفه ولا تحبّذ التعرّف عليه؟!!

كان الصوت أشبه بالهمسات الضّعيفة، ثمّ تحوّل إلى ضحكات طفولية مداعبة، فلم تجد هدى سوى أن تلتفت على حين غرّة مستعينة بالله وليقضيَ أمرًا كان مفعولًا قائلة: *باسْمك اللّهم*

وكانت المفاجأة..

لا يوجد أحد!

ولكن هذا كان الأمر الأقلّ أهمية في مقابل صورة والد عاليا الذي بدا مبتسمًا ابتسامة مخيفة لم تكنْ على وجهه منذ لحظات، وعينه مثبّتة على هدى التي لم تفكّر مرّتين وتقهقرت بظهرها في الحال، وبخطى واسعة خرجت من الغرفة، وأوصدت بابها اللعين، ثمّ عادت لغرفتها على الفور قبل أن يستيقظ الشيطان النّائم في الغرفة المجاورة.

وما أنْ دخلت غرفتها حتّى جحظت عيناها، فقد علمت للتّو مصدر الهمسات التي سمعتها منذ قليل.

***

كانت ثريا ترقد فوق الكرسي الجلدي بمكتب رفعت، مُغمضة العينين وكأنّها تصارع الذكريات المتزاحمة في عقلها..

هنا في هذا المكتب، وفوق هذا المقعد، كان يجلس زوجها رفعت عقب عودته من دفن جورج كما تجلس هي الآن بعد دفن زوجته إيفون..

ولكنّ حزنه لم يكنْ على نفسه مثلها الآن، وإنّما على فراق صديقه وجاره منذ صباه، وبالرغم من فارق العمر الكبير بينه وبين جورج، والذي تعدّى الخمسة عشر عامًا، إلّا أنّهما قد نجحا في بناء صداقة قوية.

راح رفعت يتذكّر المرّةَ الأولى التي تعرّف فيها إلى جورج منذ ثلاثين عامًا، كان رفعت ابن الخامسة والعشرين، بينما جورج كان على أعتاب الأربعين، وكان متزوّجًا من إيفون، ولديهم طفل وطفلة.

في ذلك اليوم، قرّر رفعت أن يباشر مرحلة رمي أساسات بنايته بنفسه، ولكنّه شعر ببعض الدّوار من سخونة الشمس، وفقَدَ وعْيَه، وحينما استفاق وجد نفسه بين ذراعي رجل بشوش شاهد الأمر أثناءَ عودته إلى منزله على

الناحية المقابلة، وعرّف نفسه بجورج وأصرّ على استضافته في منزله كي يستريح، وقدّم له واجب الضيافة حتّى استعاد قوته، ومن يومها وهُمَا صديقان.

في تلك اللحظة دخلت عليه ثريا لتواسيه فهي لا تحتمل أن ترى رفعت منهارًا بهذا الشكل حتّى إنّه لم يأكلْ ولم يشرب شربة ماءٍ واحدة، ولكنّه لم يستجب، وكان عدوانيًّا للغاية.

ثمّ خرج من صمته صارخًا: *لقد قتله شيطانُ هذه الشقة اللعينة، أقسم بأنّه هو مَن قتله، وسأنتقم منه، سأحرق المكان وسأحرقه*

ثمّ أفلت من ثريا وركضَ إلى الشقة الأرضية واقتحمها بغضبٍ شديد، ولم توقف غضبته سوى ما رأى..

اختفى..

كلّ شيء اختفى، صورة زوجة عادل العملاقة، الصّور الفوتوغرافية لها، وريقات الطلاسم والنقوشات والتعويذات السحرية..

صرخ رفعت على سعد الحارس فأتاه على الفور، وطلب منه أن يكسرَ له باب الغرفة الصغيرة الذي أبى أن يُفتح..

نفّذ سعد الحارس الأمر، ولكنّ الباب أبى أن يُفتح أو ينكسر، حتّى بكلّ المحاولات المضنية، فطلب منه رفعت أن يذهبَ ليحضر نجّارًا، وطلب من ثريا أن تبحثَ عن أيّ مفاتيح احتياطية في درج مكتبه.

وشعرَ رفعت بالحزن مجدّدًا، وصورة جورج الأخيرة تحوم في مخيّلته، فهاجت غضبته، وأخذ يركلُ الباب بقدمه لاعنًا عادل ونفسه والباب وكلّ شيء..

وفوْرَ ما تملّك منه اليأسُ سمع طقطقة فتح الباب من تِلقاء نفسه، فانتابته ارتجافة قوية، ولمّا كان حزنُه أقوى من خوفه هزمَ الحزن الخوف، ودلف إلى الغرفة يستكشفُ ما فيها، ورأى العجائب، طلاسم ونقوش على الأرضية والجدار وثقب عجيب بدا عميقًا أعمق من حجم الطوبة التي بنى بها بعشرات الطوبات، وربّما مئات، كما لو كان فوّهة لا نهاية لها، أو... ممرًّا ضيقًا وطويلًا ومعتمًا للغاية!

وحينما عاد سعد الحارس ليخبره أنّه لم يجدْ نجّارًا قريبًا، أصابته الرّجفة هو الآخر من منظر الطّلاسم بالغرفة، وألقى بنظرةٍ على الزاوية فوجد العديد من كتب السحر الأسود، ومن بينها كان كتاب (ماردخاي)، فوكز رفعت المتمعّن في الثقب العميق في كتفه، فلم ينتبه من المرة الأولى، فمدّ يده والتقط الكتيب، وقال اسم ماردخاي بصوتٍ مسموع.

فهاجت ريحٌ شديدة في الغرفة أتتْ من الثقب فلفحتْ وجه رفعت، وأطاحت به خارج الغرفة هو وسعد، وأُغلِقَ الباب بقوة...

كانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي حضرتها ثريا حينما عادت تحمل مجموعة من المفاتيح بيدها، والتي سقطت لاشعوريًّا من بين أصابعها، وشهقت شهقة عالية.

* * *

وقفتْ هدى على عتبة الباب مشدوهةً ترى طفلًا وطفلة لا تتعدّى أعمارهما الخامسة والسابعة يجلسان فوق السّريرين، كانا طبيعيّيْن لحم ودم، فزال الخوف من نفس هدى وبقي التّساؤل، كيف دخل هذان الطفلان إلى الغرفة؟

وقعَ نظرها على النافذة فكانت مفتوحةً فخمّنت أنّهما تسلّلا خلسة إلى الداخل..

كان وجههما ملائكيًّا للغاية، ونظراتهما وديعة وبريئة، ونجحَا في استمالة قلب هدى فابتسمت لهما، وبادلاها الابتسامة، فتقدّمت بضع خطوات بالقرب منهما، ثمّ قالت: *مَن أنتما يا صغار؟ وما الذي أتى بكما إلى هنا؟ ألا تهتمّان بقلق أمّكما إذا اكتشفت غيابكما؟*

قالت الفتاة بنبرةٍ شديدة الرقّة: *أنا منّة، وهذا أخي خالد، ولن تقلق أمُّنا بشأننا أبدًا*

تعجّبت هدى ثمّ قالت: *لن تقلق! أتعلم بوجودكما هنا؟*

قال الصبي: *نعم، تعلم*

هدى بمزيد من الاستغراب: *ولكنّ وجودكما هنا غير صحيح، هيّا تعاليا أعيدكما إلى منزلكما*

ثمّ اقتربت لتمسكَ بذراع الفتاة حيث أنّها الأقرب إليها فصرخت الفتاة قائلة: *أمّي، أمّي، أمّي*

ممّا جعل هدى تتراجع فزعةً من ردّة فعلها العنيفة، ثمّ شعرت بهواءٍ بارد يمرّ من خلف ظهرها، فاستدارت بردِّ فعل لا إرادي، فوجدت أمامها مباشرةً نفس السيدة مقطوعة الرقبة تقف بثبات، ففزعت هدى وتقهقرت إلى الخلف في اتّجاه الطفليْن وهي تذكر اسمَ الله كثيرًا.

ولكنّ المرأة أخذت تتقدّم وتتقدّم بتؤدةٍ وثبات يتبعها الطفلان بظهريهما ورقبتيهما المنحورتين والمتدليتين على كتفيهما وتحوّلا إلى هيئة شبحية كأمّهما يقولان: *انظري ماذا حدث لنا.. انظري*

زادت هدى من الذّكر والاستغفار، وانكمشت في زاوية الغرفة، وأغمضت عينيها من شدة الخوف، وصارت تذكرُ وتذكُر وتدعو الله حتّى زال الشّعور بالبرودة، ولكنّ يدًا أمسكت بكتفيها وأخذت تهزّها بقوة!

تملّك من هدى الخوف، وأدركت أنّه لا محيص من المواجهة، ففتحت عينيها

عن آخرهما لتجد أمامَها آمنة تحرّك شفتيها ويكسو وجهها الارتعاب، وبعد ثوانٍ من استعادة الإدراك بدأ صوت آمنة يتّضح لها وهي تقول: *هدى، أفيقي رجاءً، أفيقي*

تنفّست هدى بعمق، وحاولت لململةَ شتات نفسها، وأخذت ترتّب الحجج في رأسها كي تبرر لآمنة هذا المنظر، ولكنّها سمعت آمنة تقول: *يجب أن نغادر هذا المنزل يا هدى؛ إنّه مسكون*

***

فُتحت عينا عاليا عن آخرهما وهي مازالت راقدةً فوق سريرها، ثمّ شعرت بخفّة غريبة كما لو كانت عديمة الوزن، ثمّ قامت فاعتدلت في جلستها كأنّها محمولة على الهواء، وبدت لها الغرفة مختلفة قليلًا، ولكنّها تشبه غرفتها القديمة في منزل والديها، ثمّ بدأ يتجلّى لها ظلُّ رجل، وقبل أن يساورها الخوف تجلّت ملامحه فإذا هو أبوها..

لم تصدّق عينيها، ولكنّها كلّما أمعنت النظر فيه كلّما اتّضحت ملامحه أكثر، وتأكّد لديها أنّه أبوها، لم تصدّق أنّها تراه يقينًا، وقفزت من نومتها وارتمت بين أحضانه قائلة: *أبي، كم اشتقت إليك، قالوا لي إنّك متّ ولم أصدّقهم.. ولن أصدّقهم، فأنت لم تمتْ مادمت حيًّا في عقلي وقلبي*

نظر لها أبوها بعينين تشبهان عينيه، ولكنّهما مختلفتان قليلًا، ثمّ تحسّس وجهها قائلًا: *أنا أيضًا اشتقت إليكِ، وعرفت أنّني متّ، ولكنْ ها أنا أعود بفضله*

سألته لعينين دامعتين من فرْط السعادة برؤيته: *بفضل مَن؟*

أجابها قائلًا: *الإله الحقيقي، سيّدي ماردخاي*

ارتجفت جفونها فما عهدتْ أباها إلّا مؤمنًا بالله، ولكنّ الواقع الآن يقول إنّ الله لم يساعدها كما تعتقد، وأنّ ماردخاي قد أوفى بكلمته.

ثمّ قالت بصوت متقطع: *أ.. المهمّ أنّك هنا يا أبي*

عبسَ قائلًا: *ولكنّي لن أبقى إلى الأبد*

قالت بخوف: *لماذا؟*

قال: *لأنّ سيّدي لن يسمح لي بذلك، إذا أردتِ ضمان بقائي معك فعليكِ أنْ تُضحّي*

قالت على الفور: *أضحي يا أبي.. أضحّي حتّى ولو بروحي*

قال: *لا، يجب أن تضحّي بأرواح أعزّ الأشخاص على قلبك*

تسمّرت عاليا وتحجّرت كما لو كانت قد تحوّلت إلى تمثالٍ أصم، ماذا يقصد أبوها بأعزّ الأشخاص على قلبها؟ ولا يوجد أعزّاء عليها سوى صديقتيها، أيُعقل

أنّه يقصدهنّ!؟ أوَ يُعقل أنها ستستطيع قتلهنّ وتضحّي بأرواحهنّ من أجل استعادة روح أبيها؟!

ولمّا طال صمتُها تلاشت صورة أبيها، فصرخت تتوسّل له أن يعود، صرخت تتوسّل مردخاي أنْ يعيده فهي لم تشبع منه بعد، فظهر لها مردخاي في هيئته الملائكية الجميلة.

فقالت له بحنق: *أهذا ما جعلتني أكفر بربّي من أجله؟ مجرّد لحظات لخياله، وفقط؟*

قال لها باسمًا: *تتحدّثين كما لو كنتِ لا تبرحين سجادة الصّلاة، لكلّ شيء ثمن، أردتِ رؤيته حقيقة فأريتك إيّاه، أمّا عن استعادة روح كُتب عليها الموت وقُضيَ أمرها؛ فهذا له ثمن آخر*

قالت بخيبة أمل: *أتريدني أن أقتل؟*

قال غير عابئ:* لكِ حرية الاختيار*

قالت: *وإذا تراجعت عن قراري*

قال: *سأقبض روحَك أنتِ، فماردخاي لا يأتي ويذهب هباءً*

قالت غاضبة: *أنت مُخادع كذاب، ما ماردخاي إلّا مدّعٍ وأفّاق*

ضحكَ قائلًا: *كنتِ أراهن على غبائك ككلّ البشر أمثالك، فهذا طبعُ الإنسان الذي لن يتغير يحلُم بما لا يملك وإنْ أتاه حلمه ساعيًا يهرُب منه مهرولًا متحجّجًا بالأوهام، إنسان طمّاع كسول لا يريد أن يتكبّد أيّ خسائر مقابل تحقيق أمنياته لا يستحقّ أن يعيش*

ثمّ راح يتمشّى بضع خطوات حولها قائلًا بنبرةٍ خبيثة: *فكّري.. فكّري قبل أن تقرّري وتندمي في النّهاية، أتضحّين بأبيكِ، أم بصديقتيكِ؟ عن نفسي لا أجد وجهًا للمقارنة، فأبوكِ هو من منحك الحياة بلا مقابل وفنَى عمرَه في رعايتك، بينما صديقتاكِ لا تقدّمان لكِ أيّ منفعة بل على العكس يكنّان لكِ البغض والكراهية، ولوْلا أنّهما مُجبرتان على مرافقتك لتخلّصتا منكِ على الفور وهجَرَاكِ..*

رفع رأسَها المنكّسة بطرف أصابعه لتلتقي أعينهما قائلًا: *أنا لم أكذب عليكِ، وعدتكِ بشيء ووفّيت بوعدي، وأنتِ وعدتني أن تفعلي أيّ شيء وخلفْتِ وعدك.. صدّقيني للمرّة الثانية هنّ لا يحبّانك أبدًا، ولم يحبّانك مُسبقًا (ثمّ مال على أذنها هامسًا بنبرة ناعمة وحنونة) أنا الذي يحبّك يا عاليا (ثمّ رفع رأسها لتلتقي أعينهما مجدّدًا، وكانت نظرته ساحرةً وماكرة في آن واحد، ثمّ قال) أنا الذي أعمل من أجلك*

لم تعرفْ عاليا ما سرّ هذا الشعور الجارف نحوه، كما لو كان مَلكًا كريمًا،

وليس شيطانًا رجيمًا، وشعرت أنّها تصدّقه، أو أنّها أرادت أن تصدقه.

***

لم تقوَ هدى على النّهوض؛ فمازال الرّوْع يتملّكها، خاصّة بعد سماع جُملة آمنة الأخيرة التي كرّرتها في ذعْر: *يجب أن نغادر، هذا المنزل مسكون يا هدى، أتسمعينني؟*

هزّت هدى رأسها كالتي لم تستوعبْ بعد، ثمّ قالت بنبرةٍ متقطّعة: *لقد رأيت أشياءَ فظيعة، فظيعة*

خمدَ انفعال آمنة ووقَعَ في قلبها الرّوْع من أن تكون هدى قد أصيبت بمسّ، ثمّ سألتها بتوجس: *ما الذي رأيتِه؟*

أجابت هدى وهي تتلفّت حولها من الخوف: *امرأة منحورة العنق، و.. ورجل، نعم رجل هو من نَحَرَ عنقها، ث.. ثمّ طفلين كانا كالملائكة ثمّ تحوّلا إلى شبحين مذبوحين أيضًا*

أغمضت هدى عينها تحاول طردَ مناظرهم من مخيلتها وهي تبكي قائلة: *شعرت ببرودة شنيعة تجتاحني، إنّهم هنا، هنا الآن، أشعر بهم، وببرودتهم، ولكن لا أراهم*

ثمّ ارتجفتْ بقوّة فاحتضنتها آمنة بتوجّس، وعيناها تدور في محجريهما، فهي وإن كانت لا تشعر بما تشعر به هدى ولكنّها قد تأكدت من أمر هذا البيت.

توسّلت هدى إلى ربّها بخشية قائلة :*رحماك يا ربّي رحماك*

وكيف يذكر الله مَن كان به مَسّ!؟ استشعرت آمنة فيها النّقاء، وشعرت نحوها بالأمان، وتجلّدت ثمّ رفعت رأسَ هدى المدفونة في صدرها قائلة: *تماسكي يا هدى، فأنتِ محفوظة باسم الله، إن مَن ترينهم ما هم إلّا ضحايا هذا البيت الملعون.. نعم بائع الكشك أخبرني أنّ أسرة مكوّنة من أب وأمّ وطفليْن سكنت الشقة، وقُتلت فيها على يدِ الأب الذي انتحر بعد ذلك، وبالتأكيد لا يريدون لنا الشّر*

قالت لها هدى: *ماذا تقصدين؟*

آمنة: *أقصد أنّهم يريدون أن يطلعوكِ على شيء، إن كانوا مازالوا ها هنا، فلا تخشيْنَهم وحاولي الاستماع إليهم*

تلفّتت هدى حولها، ولم ترَ أيًّا منهم، وما عادت تشعر ببرودة وجودهم فهزّت رأسها بالنفي.

ثمّ تسمّرت عيناها فجأة صوب الباب، وببطءٍ حَذِر أدارتْ آمنة رأسها لتنظر إلى ما تنظر إليه هدى، لترى عاليا واقفةً في صمت وثباتٍ، بعينين يملؤهما الشّر، تُخفي أحدَ ذراعيها خلف ظهرها، فلُجمت ألسنتهنّ وارتابت قلوبهنّ

عندما أخذت عاليا تقترب وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة مُرعبة كأنّها دمية بلاستيكية بنظرةٍ شيطانية قائلة: *نعم، لم يعودوا هنا يا هدى، هُم في محْبسهم الأزلي يتعذّبون إلى ما لا نهاية*

أعانتْ آمنة على الفور هدى في النّهوض، ثمّ قالت لعاليا بهدوء: *عاليا، حبيبتي، أنتِ ممسوسة، هذا البيت ممسوسٌ وملعون، قُتِلَ فيه الكثيرون، ونحن على وشك أن نلحق بهم، لا بدّ أن نرحل، لا بدّ*

قاطعتها عاليا بجمودٍ قائلة: *أتعلمْنَ يا بنات؟ لقد كنت على وشك أنْ أختاركنّ، ولكن... قضيَ الأمر*

آمنة بارْتعاب وهي تراقب تجلّي سكّين حادّ في يد عاليا: *أيّ أمر!؟*

عاليا بنظرة واسعة شيطانية: *أمركُنّ*

ثمّ أشهرت السكين في وجه آمنة حيث أنّها المتصدّرة، بينما كانت تحمي هدى خلف ظهرها وطعنتها طعنة سطحيّة شقّت جزءًا من صدرها، ونزفت القليلَ من الدّماء على الفور فصُدمت وكذلك هدى..

وللحظة ارتجفَ جفنُ عاليا كأنّها لا تصدّق أنّها فعلت ذلك، وعلى غير رغبتها الحقيقية.. كانت دماءُ آمنة تتساقط على الأرض وتُمتصّ على الفور..

ثمّ عادت عاليا لجنونها، وكادت تُصيبها مرّة أخرى لوْلا أن برزتْ هدى من خلف آمنة وأمسكت يدَها بقوّة تحاول أن تُفلت منها السّكين، فقاومت عاليا وأطاحتْ بهدى عند طرف السرير، وأخذت تلوّح بعنف في وجهها بالسكين بغية إصابتها ولكنّ هدى راوغت.

في نفس اللحظة، هجمت عليها آمنة، وحاولت تقييدَ يدها، ولكنّ عاليا لكمتْها بيدٍ شديدة البأس في جُرحها، فخارت قواها، وجثتْ على ركبتيها ممسكة بصدرها..

وقبلَ أن تذكر هدى اللهَ وتستغيث به كالعادة استدارت لها عاليا وباغتتْها بلطمةٍ قوية على فمها حتّى إنّه نزفَ من شدّة اللطمة، ثمّ أمسكت برأسها وضربتها بسنّ السرير الخشبي ففقدت وعيها على الفور.

ثمّ التفتت لآمنة التي باتت قدرتها على الدّفاع عن نفسها أضعفَ من أثر الجُرح واللكمة فأصبحت صيدًا سهلًا..

***

جلسَ الحاج *فتح الله* بائع الكشك، الرّجل المسنّ؛ شاعرًا بالخزي والجُبن يتذكّر سعد الحارس وجلستيْهما ذات مرّة معًا بعد دفن جورج منذ ستّة أعوام، وجرى المشهد أمام عينيه كما لو كان يحدث الأن..

أتى سعد وجلس برفقته كالمعتاد لتناول الشاي، ولم يكن على طبيعته، وكيف

يكون ومنذ سويعات قليلة قد عمّ الحزن على الحيّ بأكمله لوفاة رجلٍ كجورج أحبّه الصّغير والكبير وسقوط جرحى آخرين على يد عادل!

فأعربَ له فتح الله عن جُلّ ألمه لما أصاب جورج وموته المأساوي، فلم ينطق سعد وبدا شاردًا في شيء بعيد، ولم يكن ينتوي أن يفضفض بما لديه كما أوصاه رفعت ولكنّ الأمر كان أثقل من أن يتحمّله إنسان، فأخذ يروي لفتح الله صديقه المقرّب ما دار في الشقة منذ قليل..

وبدأ من النّهاية حينما طردته الغرفة هو ورفعت وغلق الباب وكأنّ يدًا شيطانية هي التي أطاحتْ بهما، لم يصدّق فتح الله الأمرَ حتّى أقسم له سعد، ولم يكن سعد بالكذّاب أبدًا، ولكنّ الأمر عصيّ على التصديق بهذه السهولة، ولوْلا أنّ فتح الله على علم مُسبق بارتياب سعد القديم من المدْعو عادل ورؤيته له بنفسه وهو يحادث نفسه ذات مرّة في الحديقة؛ لما كان استساغ الأمر بسرعة.

وأخبره سعد أنّ المهندس رفعت طلبَ منه ألّا يشي بما دار في الشّقة حتّى يأتي الشيخ رابح مساءً، ويكتشفا سرّ هذا المكان.

وفي وقتٍ متأخّر من الليل وقبل أن يغلق كشكَه ويرحل، وجد سعدًا أمامه يقف مرتجفًا بعينين كادتا تنتأ من مقلتيها قائلًا له بصوتٍ مرتجف: *هذا المنزل مسكونٌ يا فتح الله!*

تسمّر فتح الله لحظتها، ثمّ حاول الاستيضاح قائلًا: *هل جاء الشيخ رابح الذي أخبرتني عنه؟*

هزّ سعد رأسه بالإيجاب، فأمسك فتح الله بيدِه المرتعشة وساعده على الجلوس على الكرسي الخشبي بجوار الكشك، ثمّ ربّت على كفّه قائلًا: *صلّ على النّبي، وارْوِ لي ما حدث، وأعدك أنّني لن أشي بشيء*

..... بدأ سعد يروي ما حدث عقب حضور الشيخ رابح.....

دلف الشيخ برفقة سعد ورفعَتْ والسيدة ثريا إلى الشقة، وما أن وطئت قدماه انتابته قشعريرة سرتْ في كامل جسده فاستعاذ بالله من شرّ كلّ ذي شرّ، وتوجّه مباشرة إلى الغرفة الصغيرة دون أن يدلّه أحدٌ عليها..

كانت الغرفة شديدة الظلمة رغم ضوء المصباح، كأنّ هالة من الغيم قد أحاطت بها وحوطتها، ولم يفتأ الشيخ يذكرُ اللهَ ويتحصّن بالذّكر وهو يتجوّل فيها ويمسح بيده على الجدار حتّى تحسّست أنامله الشرخَ الرّفيع العميق بها، ثمّ عَلا صوتُه بـ: *لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين* التي كرّرها كثيرًا طيلة فترة مكوثه بداخلها، ثمّ وقعت عيناه على كتيبات السحر وعلى الطلاسم والنقوشات المرسومة على الأرض فاستعاذ بالله من شرّ السحر والسحرة.

كانت عينُ رفعت متأهّبة تنتظر التّفسير، بينما سعد وثريا يرتجفان من الخوف، ثمّ طلب الشيخ رابح أن يتركاه قليلًا بمفرده في الغرفة ويبتعدا؛ فهو على وشك أنْ يُلقي بعض الآيات المستفزة لظهور الجنّ المتخفّي، والتي كثيرًا ما يقرؤها على الشخص الممسوس، ولمّا سأله رفعت ولِماذا ستقرؤها على الغرفة؟ قال له إنّه يريد التحقّق من أمر ما، وبالفعل تركه وحيدًا في الغرفة وتراجعا إلى صالة الاستقبال، فأوصدَ الشيخ رابح باب الغرفة، واختلى بها..

وبعد الكثير من الهدوء أتى صوتُ الشّيخ من الداخل يصرخ مستعيذًا بالله، مُكرّرًا: *أعوذ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهنّ برٌّ ولا فاجر، ومِن شرّ ما ينزل من السّماء، وما يعرج فيها، ومن شرّ ما ذرأ في الأرض، وما يخرج منها، ومن شرّ فتن اللّيل والنهار، ومن شرّ طوارق الليل والنّهار؛ إلّا طارقا يطرق بخير يا رحمن*

ثمّ خرج منها وكأنّما يدٌ ألقت به منها، وأوصد الباب من تلقاء نفسه.

هرولَ نحوه سعد ورفعَت، بينما لزمت ثريا مكانَها خوفًا ورهبًا، وتلقّفاه وساعداه على النهوض فما هو إلّا رجل مسنّ تخطّى السبعين من عمره، ثمّ اصطحباه إلى صالة الاستقبال حتّى تهدأ دقات قلبه المتسارعة..

وبعدَ هُنيهة هدأ الرّجل لا من الخوف وإنّما من المجهود، ثمّ قال ملبّيًا لنداء الأعين التي تتوسّله للحديث قائلًا لاهثًا بنبرة جادّة وثابتة: *هذا المنزل باتَ مسكونًا، وما أفظع سكّانه*

ازدردت ثريا ريقَها وتملّكها الخوف الشديد، بينما رفعَتْ كان ثابتًا يريد أن يستزيد فقال له متسائلًا: *كيف؟*

قال الشيخ: *قام أحدٌ من البشرهنا باستدعاء أحد ملوك الجان العتاة المعروفين بالكذب وألاعيب التّخييل، كيان شيطاني يهودي الديانة، ولكنّه قد كفر بكلّ دين فطُرد من قبيلته شرّ طردة، وتمّ نفيه إلى عالم الملعونين في شرعهم، يبدو أنّ هذا البشريّ الساذج كان يريد تحقيق أمنية غاية في الأهمّية والصعوبة، أمنية لا يقدر على حياكتها ببراعة سوى كيان عتيقٍ وعتيد، ولأنّ ذلك الإنسان لم يكن عالمًا قام بتحضير أبشع وأقذر الكيانات، ويدعى....*

كشفَ الشيخ الكتاب الذي وجده بالدّاخل وأخفاه تحت عباءته والذي يحمل اسْم (ماردخاي)، وقبل أن ينطق رفعت بالاسم أسكته الشيخ بإشارةٍ منه قائلًا: *إيّاك أن تنطق به، فإنّه يأتي حينما يُجهرُ باسمه*

قال رفعت: *كنّا نظنّ أنّ أمر المسّ هذا متعلّق بالإنسان الذي إذا ماتَ؛ مات أمرُه كلّه معه*

أجاب الشيخ: *هذا الكيان حينما يحضر مِن عالمه لا يغادر وإنْ مات أهلُ

الأرض جميعًا*

قال رفعت متلعثِمًا: *وكيف سنتخلّص منه؟*

تنهّد الشّيخ تنهيدة عميقة تدلّ على صعوبة الأمر، ثمّ قال: *لا أدري كيف أقولها ولكنْ يجب أن تعلموا أنّ هذا الكيان إن نجحنا في صرفه- وإنّه أمر لو تعلمون غاية في الصعوبة- فلن ينصرف فارغَ اليدين، إنّه كيانٌ يعشق القتل ويتلذّذ بتعذيب البشر، كذّاب لا يحقّق شيئًا من أمنيات الموهومين، يدفعهم للكفر ثمّ للقتل بعد إصابتهم بالجنون، ثمّ للانتحار في النهاية*

أعادَ رفعت سؤاله بثباتٍ وتحدٍّ هذه المرّة قائلًا: *أخبرني فقط ما يجب فعلُه وسأفعله مهْما كلّفني الأمر، فقد قتل هذا الملعون أعزَّ أصدقائي ولن يهدأ لي بال حتّى أقتصّ له*

أطال الشيخ النظرَ في وجه رفعت مستشفًّا مدى صدقه البادي عليه بوضوح، فامتزجت نظراته بالكثير من الحزن والألم والإشفاق على حاله، وعلى مصيره أيضًا.

ثمّ قال: *يا بني، هذا الكيان شديد البأس، يتغذّى على الدماء، مواجهته تعني الموت المحتوم فهو لا يأتي ويذهب هباءً، طقوس صرفِه ثقيلة ومُجهدة لن يتحمّلها إنسان حتّى وإن كان أعتى السحرة فلن يقبل أن يخاطر بحياته أبدًا*

قال رفعت: *وما الحلّ؟*

أجاب الشيخ: *رغم بأسه الشّديد ومكره العتيد، إلّا أنّ الوحدة كفيلة به قد لا تنجح في التخلص منه للأبد، ولكنها كافية لإضعافه، ارْحلوا جميعًا من هذا البيت، ولا تخاطروا بالبقاء فيه وإلّا ستعرّضون أنفسكم للخطر، ولن يهدأ إلّا بإشباع جوعه بالاستحواذ على المزيد من الأرواح والمزيد من الدماء، إن لم تكنْ دماءكم فستجبرون على التّضحية بغيركم كي يهدأ، ثمّ سيعاود الكرّة من جديد..

أمّا الحلّ الآخر فهو الأصعب، ويجب أن يضحّي فيه شخص بكامل إرادته ويقبل المجازفة والتّضحية بحياته لأنّ طقوس الصرف كما شرحت لكم قبل قليل ثقيلة، وقد لا يحتملها، ومن المُمكن أن تفتكَ بحياته، وفي هذه الحالة يجب على شخص آخر من نفس عَصبِه ودمه كأخيه أو ابنه أو أبيه أو حتّى عمّه أو من ذرية عمّه؛ أنْ يكمل الطّقوسَ والتي غالبًا ما تنتهي بنهاية حياته هو الآخر، فمَن ذا الذي قد يقبل أن يُسلم نفسه للموت هو ومَن معه؟*

خيّم الصّمت على الجميع ونُكّست الرؤوس، إنّ الموت حقّ، ورغم ذلك أكثرنا للحقّ كارهون.

شعر رفعتْ بالخذلان لمّا علم بما لا يدع مجالًا للشّك أنّه مهْما فعل لن يقدرَ عليه، وفتك الحزن بقلبه على ذهاب دماء صديقه هدرًا..

ورحلَ الشّيخ بعدما أوْصاهم بضرورة التخلّص من تلك الكتيبات وطمس الطقوس التي فتحت بوّابة عبوره، وضرورة الرّحيل من هذا البيت، وكلّ سكّان البناية*

..... قال سعد لفتح الله: *هذا كلّ ما حدث*

شردَ فتح الله كثيرًا، ثمّ قال: *أوَ لمْ يذكر لكم الشيخُ إن كان هذا الكيان قادرًا على التحرّر من المنزل، ونشر شرّه في كلّ مكان؟*

أجاب سعد: *بل قال إنّه قد أصبح أسيرًا له لأنّ بوّابة عبوره قد فُتحت فيه دون غيره، وأن التخلّص منه لن يتمّ إلّا فيه وليس في مكان غيره*

فتح الله: *وماذا كان قرار السيد رفعت؟*

سعد: *لم يقرّر بعد، ولكنّه أمرني بإبلاغ السكّان أنّ البيت آيلٌ للسقوط، وأنّه على استعداد لتعويضهم ماديًّا بأيّ مبالغ يطلبونها*

فتح الله: *إذًا قرّر إخلاء البناية؟*

هزّ سعد رأسه بالإيجاب.

(كان العمّ فتح الله يبكي وهو يتذكّر ذلك اليوم وتلك الجلسة وهذا الحديث، فلم تمرّ سوى ستة أشهر ولقي رفعت يكَن حتفَه بطريقة مأساويّة، وهو يحاول إصلاح الأمر..

ووجدَ نفسَه تحدّثه وتلومه عن تخاذله في مساعدةِ الفتاة التي ذكّرته بتخاذله القديم هو وكلّ أهل الحي حينما هابوا جميعًا الموتَ، ووقفوا يشْهدون ويُشاهدون إزهاقَ أرواح غيرهم.

وقال في نفسه: *كم تبقّى من العمر وقد شارفتَ على السبعين يا فتح الله!، تصلّي وتصوم وتمسك كتابَ الله بيديك، وتبكي من خشيته، بينما أنت قاتلٌ يصرّ على القتل وإراقة الدماء، أنت لا تقلّ بشاعةً عن هذا الشيطان، فصمتُك يعينه ويقوّيه.. لو فقط تتحدّث.. لو فقط تتخلى عن أنانيتك لحفظتَ دماء الأبرياء.. أنت قاتلٌ يا فتح الله.. قاتلٌ لن يغفر له اللهُ ولو جاء بملء الأرض حسنات، لن يغفر لك نقطة دمٍ واحدة سالت بصمتِك*

ثمذ راح يتذكّر الأسرةَ الصغيرة التي سكنت الشقة فيما بعد، وكيف انتهى بهم الحال، ثمّ الشباب الأربعة والأهوالَ التي عاشوها حتّى انْتهوا، ولم يحرك كلّ هذا فيه ولا في أهل الحي شيئًا من الرحمة، من النّخوة، من الإنسانية والدين.

ثم هتف بداخله ضميرُه: *قمْ يا فتح الله واجْعلها لله، فلن يضرك شيء إلّا بإذنه لعلك تكفّر عن ذنوبك الفائتة، قمْ يا فتح الله ولتجعلها للهِ فإن قطرة ماء قادرة على إذابة جبل، وليكن صوتُك أول صوتٍ يؤذّن بالحقّ، وليكن هذا حسنَ الختام*

وهنا، فزّ فتح الله من فوق كرسيّه الذي تحنّط فوقه لأعوام يشاهدُ في صمت ويحتمي بالجدران وقرّر أن يمد يد المساعدة لهنّ.

***

: *لا عاصمَ لكِ منّي* قالتها عاليا وهي تتأهّب لنحْر عنق آمنة بعدما أمسكت بشعرها وعصّبت به معصمَها كي تتمكّن منها أكثر، وباليدِ الأخرى أشهرتِ السكينَ وهوتْ على عنقها.

وقبل أن تنالَ منها، تألّمت عاليا بقوة، وأمسكت بمؤخّرة رأسها، ثمّ ترنّحت قليلًا، وسقطت على الأرض، وظهرت من خلفِها هدى بيدها قطعةٌ خشبية عثرت عليه أسفل السرير.

***

حلّت الظّهيرة، ومازالت ثريا متكوّمة فوق مقعدها الخشبي الهزّاز بجوار شرفتها تختلس النظر إلى السماء وهي تشعلُ سيجارتها الجديدة وتتنفس دخانها بعمق، ثمّ تفرّ من عينيها دمعة فتطفئها فتشعلُ غيرها.. وغيرها، حتّى امتلأت طفّايتها عن آخرها.

فتركتِ الأخيرة تهوي من بين أصابعها في يأسٍ وضيق، واقتربت من الشرفة تُدير عينيها في السماء تبحث عن رفيق.

وحضرها مشهدٌ قديم حينما كانت تقفُ برفقة رفعت مساءً في النافذة كالطفلة الصغيرة تعدّ النّجمات كما اعتادت أن تفعل معه، ولاحت لها ذكرى مزاحِهما الأخير أمام نفس الشرفة وهُما يتأملان نفس السّماء قبل ليلة من اكتمال البدر.

هذه نجمتي، وتلك نجمتُك قالتها ضاحكة.

ولماذا لا تكون هذه نجمتي، وتلك نجمتُك؟ قالها رفعت ممازحًا.

قالت: *لأنّ نجمتي أكبر وأكثر سطوعًا من نجمتك*

قال لها ممازحًا: *أمممم.. دائمًا ما تدخرين الأفضل لنفسك*

قالت متدللة: *أتغار منّي؟*

قال: *بل أغار منها*

ثمّ تنهّد رفعت تنهيدةً عميقة قائلًا دون أن ينظر إليها: *ماذا ستفعلين إنْ مِت يا ثريا؟*

التفتت له ثريا على الفور عابسةً مستاءة: *أطال الله بقاءك*

قال: *وإن لم تكن هذه إرادته؟*

قالت بجزْم: *أعدُك لا أنام ليلتها إلّا نومتي الأخيرة، فما معنى الحياة إن لم تكن أنت فيها وأنت الحياة وكلّ ما فيها*

نظرَ لها نظرة مطوّلة، ثمّ قال: *أثقُ بك حتّى وإن ضل وعدك الطريق*

***

وفي منزل سعد الحارس الكائن في قرية الحرّانية بالقرب من حي الهرم، جلس فتح الله منكّسَ الرّأس أمام زوج ابنة سعد، تذرف عيناه الدموع بعدما علم منه بخبر وفاة سعد منذ خمسة أيام، لا يدري على أيّهما يبكي، على رحيل صديق عزيز أمْ على مصير الفتيات الثلاثة، فقد كان أمله كبيرًا في مساعدة سعد، والآن مات سعد..

استأذنه صهرُ سعد في دقيقةٍ لتحضير واجب الضّيافة، وما كانت سوى حجّة لتركه ينفرد بحزنه قليلًا دون أن يشعر بكبت، ووجد فتح الله نفسَه يعود مرّة أخرى بالزّمن إلى الوراء، ويتذكّر اليوم الذي أتاه سعد مستغيثًا به ليساعده في إنقاذ السيد رفعت الذي دلفَ إلى الغرفة الملعونة ولم يخرج منها.

كان سعد مشدوهًا مذعورًا، جاءه مسرعًا وسحبه من أمام كشكه دون أن ينبس بكلمة، فتساءل فتح الله بقلق شديد: *ما الأمر يا سعد؟*

قال له سعد لاهثًا: *لا وقتَ للشرح، السيد رفعت في مأزق، ويحتاج إلى مساعدتنا*

رافقَه فتح الله على غير هدى حتّى وصلا إلى باب الشّقة، فرفض أن يخطو خطوةً واحدة للداخل قائلًا: *ويْحك يا رجل، أتريد أن تلقي بي في التهلكة؟!*

قال سعد مستغربًا: *لا حول ولا قوّة إلّا بالله، أخبرتك أنّ الرّجل في مأزق ويحتاج إلى مساعدة، دلفَ إلى الغرفة الملعونة وأغلق الباب على نفسه وتغيّب لفترة طويلة ولم نسمع له صوتًا منذ ذلك الحين، حاولت كسر الباب ولكنْ يبدو أنّ قوّتي وحدها لا تكفي فاستعنت بك*

قال له فتح غيرَ آبهٍ: *يمكنك الاستعانة بنجّار*

قال سعد: *أنت تعلم أنْ لا أحد سيأتي*

قال فتح الله بخزي: *اعذرني يا صديقي؛ فالعمر غالٍ*

أطال سعد النظرَ في عينيه التي امتلأت بالخذلان، ثمّ قال: *العمر سينقضي يومًا ما، أمّا السيرة فتبقى ولا يموت الإنسان إلّا إذا ماتت ذكراه، وأنت لن يذكرك الناس بشيء يا فتح الله لأنّك لم تمنحْهم شيئًا*

ثمّ تركه منكسَ الرّأس، ودلف إلى الشّقة بمفرده..

عاد فتح الله من تلك الذّكرى الأليمة يشعر بتعرّي النفس.. تذكّر كيف كان

جبانًا، لعلّه قال في نفسه أيضًا، لو أنّ الزمن يعود لما خذله، ولكنّه ها هو الآن ينفضُ غبار الجُبن ليترك أثرًا جميلًا يقتفيه النّاس بعد مماته.

ولكبرِ سنّه، وطولِ الطّريق، شعر فتح الله ببعض التعب والنعاس بعد هذا البكاءِ الطويل، ووجد نفسه يغفو فوق الأريكة التي يجلس عليها فاستسلم لغفوته وراوده حُلمٌ عجيب...

***

لم تهدأ أنفاسُ هدى طيلة الساعة المنصرمة وهي تقف أمام جسد عاليا الممدّد على الأرض فاقدة الوعي، ولا تدري كيف فعلتْ ما فعلت، تنساب الدموع من عينيها على ما اقترفته يدها، ولكن لم يكنْ لديها خيارٌ آخر، كانت آمنة قد ضمّدت جرحها ثمّ قالت لهدى: *لقد أنقذتِ حياتي يا هدى*

قالت هدى باكية بحرقة: *ولكنّني آذيتها، آذيت صديقتي*

نظرت آمنة صوبَ عاليا التي كانت مازالت تتنفّس ثمّ قالت: *لن نتركها، سنأخذها ونهرب من هذا البيت الملعون، هيّا، هيّا ساعديني في حملها والخروج بها من هذا المنزل*

اقتربتا منها على حذرٍ وخوف منها، وعليها، ثمّ حملاها بصعوبةٍ بالغة وكأنّ وزنها زاد ثلاثة أضعافٍ رغم نحافتها، ثمّ مدّداها فوق السرير، وبدتْ بشرتها شاحبة للغاية، ولكنّ آمنة قد اطمأنّت على نبضها وأنّه في معدله الطبيعي.

زفرتْ هدى أنفاسها بمشقّة قائلة: *يبدو أنّ الأمر سيكون أصعب ممّا تصوّرنا، نحن بحاجة إلى مساعدة*

تحيّرت آمنة فهي لا تدري بمَن يمكنهنّ الاستعانة، وجلستا يتدبّران الأمر حتّى صرخت آمنة قائلة: *وجدته، لا يوجد غيره*

قالت هدى بلهف: *من؟*

قالت آمنة: *النّقيب زين الذي تحتفظ عاليا ببطاقته*

وجدتْ هدى أنّها فكرة جيدة ولكنّها مُحرجة للغاية، فهو لم يراهنّ إلّا مرة واحدة، ولكنّ آمنة أخبرتها أنّ الرجل حينما يبادر بعرضِ مساعدة على امرأة لا يعرفها فلا يكون عرضًا للمساعدة بل للتقرّب، وبالتّأكيدَ لن يتردّد في المجيء.

وبناءً عليه أسرعت آمنة لغرفة عاليا، وأخذت بطاقته من تحت وسادتها، ثمّ قالت لهدى: *سأهاتفه من عند السيد ثريا حتّى لا أضطرّ للبحث عن هاتف بعيد وأتركك فترة طويلة بمفردك*

ولكنّ هدى منعتها لشعورٍ ما خالجها للتّو، وقالت لها: *بل سأصعدُ أنا*

***

وبينما كان فتح الله يغطّ في نومه فإذا بنمسة هواءٍ باردة تتخلّل جسده، حاول تجاهلها متقلبًا ذات اليمين وذات الشمال، ولكنّها ما انفكّت تداعب مسامّ جلده بين الفينة والأخرى حتّى بات تجاهلها مستحيلًا، فانْتبه ليجدَ نفسه طافيًا فوق صفحة ماءٍ هادر في فضاء بهيم.

كذّبت عيناه ما رأى، وأخذ يلكُم رأسه كي يستفيق، ولم يوقفه عن ذلك سوى صوتٍ أتاه من الغيب يقول له: *رابح.. اذهب إلى رابح، فهو مُعينك على ما جئت من أجله*

لم يكنْ هذا الصوت غريبًا، بل كان مألوفًا، أخذ فتح الله يتلفّت حوله باحثًا عن صاحب الصوت قائلًا بلهف: *سعد! أهذا أنت يا صديقي؟*

انقشع جزءٌ من هذا الظلام الفاحم ليتجلّى طيفٌ أبيض شفّافٌ تحيطه هالة زرقاء مبهجة، وقسى فتح الله على نظره ليميّز صاحب الطيف فإذا به سعد.. سعد الحارس في أبهى حُلّة وطلّة، معافى، سليم البدن.

بُهرت عينُ فتح الله فاتّسعت عنْ آخرها كالذي رأى ملكًا، ثمّ قال: *ما أبهاكَ يا سعد*

ابتسم سعد فاتّضحت أسنانه بيضاء لامعة زادت المكانَ نورًا، ودمعت عينا فتح الله اشتياقًا وخجلًا، فهو لم يزرْه سوى مرّة واحدة منذ أصابه الشّلل، وانتقل إلى قريته، ثمّ قال: *سامحني يا صديقي، أهملتك ونسيتُك ورحلت عنّي قبل رؤيتك ووداعك*

نظر له سعد نظرة تسامحٍ ولين، نظرة خالية من كلّ عتاب، ثمّ قال: *يا صديقي، لا تقسو على نفسك باللّوم؛ فالإنسان يموت إذا ماتتْ ذكراه وليس جسده، وأنا هنا لا أشعر بالوحدة، ولا بمرور الوقت، ولا بالوحشة؛ فعملي يؤنسني، وصالحه ينير لي طريقي*

دمعت عينا فتح الله بإشفاق ورهبة وهو يقول: *كيف وجدت الموتَ يا سعد؟*

سعد: *إنْ حَسُن عملك فهو الفرجُ من كلّ كرب، والحريةُ من كلّ أسْر، والشفاء من كلّ مرض، والرّاحة من كلّ ألم، الموت.. هو لقاءُ الأحباب، والأُنس بعد الوحدة، والهدى بعد الضلال، والنور بعد الظّلمة*

بكتْ عين فتح الله منتحبًا يقول: *أيَا وجعي على ما فرّطتُ يا ربّي*

قال سعد مطمئنًا: *أيَا صديقي، لا تقنط من رحمة الله، فالله لا يضيع أجرَ مَن أحسن عملًا*

قال فتح الله: *لم أُحسن عملي يا سعد*

قال سعد: *العبرة بالخواتيم، اجعل ختامها مسكًا يا فتح الله*

قال فتح الله: *كيف!؟*

قال سعد: *اجعلها لله*

فتح الله مستغربًا: *ما هي؟*

بدأ طيفُ سعد يتلاشى شيئًا فشيئًا، وهو يكرّر: *اجعلها لله*

ثمّ انتفض فتح الله من نومتِه مستيقظًا، وأثر الدّمع رطبٌ على وجنتيه، فتيقّن قلبه أن ما رآه كان رسالة حقيقية، وليست أضغاث أحلام، ولا خدعة عقلٍ مشتاق لرؤية صديقه.

ثمّ أخذ يسترجع كلماتِ سعد الأولى وتوصيتَه بالبحث عن الشيخ رابح، فقام مستأذنًا رجل البيت بالاغتسال، ومِن ثمّ الرحيل بحثًا عن الشيخ رابح، فأخبره رجل البيت أنّه يعرف منزله وسيصطحبه اليه.

* * *

كانت ثريا في طريقها إلى غرفة نومها بنفسٍ كسيرةٍ حزينة عندما دقّ بابها، ولمّا فتحته وجدت هدى تقف أمامها مصفرّة الوجه لاهثة، ورغم ذلك لم يدفعها الفضول لسؤالها عمّا أصابها فهي تائهة في بحرٍ من العذاب، لا أوّلَ ولا آخر له.

فبادرت هدى قائلة: *سيدتي، أحتاج لهاتفك*

لم تتردّد ثريا وسمحت لها بالدّخول مشيرة لها نحو الهاتف الموضوع فوق طاولة بالقرب من نافذة صالة الاستقبال، ثمّ تركتها ودلفت إلى غرفتها على الفور.

أدارت هدى قرصَ الهاتف بالرّقم المكتوب في البطاقة وانتظرت الرد..

أمّا ثريا فراحت تبحثُ عن علبة قطيفة حمراء في خزانتها كُتب عليها (عيد زواج سعيد)، ثمّ فتحتها والتقطتِ الخاتم الذي كان به، وارتدته في أصبع يدها.

أجاب هدى صوتٌ ما، ولمّا أخبرته أنّها تريد محادثة النقيب زين أخبرها أنّه في مأمورية خارج القسم، فطلبت منه ضرورة إخباره بالرّسالة التالية: *أنا هدى صديقة عاليا وآمنة اللاتي كنّ في القسم منذ يومين، نحن نحتاجُ إلى مساعدتك حتّى لا تزيد أمورُنا سوءًا، أرجوك احضرْ على جناح السّرعة في العنوان التّالي* ثمّ أملته العنوان تفصيلًا.

وأنهتِ الاتّصال...

* * *

كانت ثريا قد انتهت هي الأخرى، وعادت لهدى التي كانت قد أوشكت على الرّحيل، فقالت لها ثريا: *هل كلّ شيء على ما يرام؟*

أجابتها هدى بحيطة: *نعم، أردت فقط مهاتفة إحدى صديقاتنا*

كانتْ ثريا متوتّرة للغاية، وكانت تفرك راحتيها في بعضهما البعض بقوّة وهي تقول: *كيف حال عاليا؟*

تعجّبت هدى من سؤالها، ثمّ قالت: *ولمَ عاليا؟*

زاغت عينا ثريا التي كانت على وشكِ هدر بعض الدمعات، ثمّ قالت: *كان مجرّد سؤال*

أجابت هدى وهي تنظر بقوّة وثبات في عين ثريا، وبنبرةٍ تواري أكثرَ ممّا تُعلن: *ستكون بخير*

ثمّ وقعَ نظرُها على أصبع ثريا والخاتم الذي ارْتدته، فعُقِدَ حاجبيها وهي تتذكّر شكل الخاتم الذي خُيّل لها أنّه كان في أصبع السيّدة المرسومة في اللوحة، وكان هو نفسه.. الخاتم شبيه الوردة..

لاحظت ثريا نظراتِها غير المفهومة للخاتم، فانْتبهت هدى لنفسها واستأذنت للرّحيل على الفور.

***

توجّه فتح الله برفقة صهر سعد إلى منزل الشيخ رابح فاستقبلهما الشيخ بالتّرحاب، ولمّا جلسا عرّف فتح الله نفسه، وفيما جاء، وروى للشيخ كلّ ما حدث منذ وفاة المهندس رفعت الغامض مرورًا بالعائلة التي سكنت الشّقة بعد ذلك، ثمّ الشباب الأربعة وحتّى الفتيات الثلاثة، وأنّه أتى اليوم ليجعل مساعدته لهنّ خالصة لوجه الله طالبًا منه المساعدة في إتمام ذلك الأمر.

كان الشيخ ينصت باهتمام بالغ، وكلّما زاد فتح الله في حديثه كلّما عبس وجه الشيخ عبوسًا خالطَه الحزن، ولمّا انتهى فتح الله من حديثه، أغمض الشيخ عينيه وأخذ يستغفرُ الله كثيرًا..

ولمّا طالت المدّة أقدم فتح الله على مقاطعته لوْلا أنْ منعه صهر سعد مشيرًا له بالتزام الهدوء والصّمت فأطاعه.

ثمّ قام الشيخ وتوضّأ وصلّى ركعتين، ثمّ جلس يدعو الله سرًّا، ثمّ قال لهما: *سأدلف إلى خلوتي لساعةٍ واحدة، ثمّ سأعود إليكما بقراري*

***

عادتْ هدى إلى الشقة فوجدت آمنة قد قيّدت عاليا بنفس القيد الذي قيدتها به الأخيرة من قبل، فقالت لها هدى باستياء: *ما الذي فعلتِه بها!؟*

قالت لها آمنة: *احتراز*

قالت هدى باحتداد: *مِن ماذا؟!*

أجابتها آمنة: *أتتساءلين حقًّا؟!، عاليا ستستيقظ في أيّة لحظة، ومن الوارد أنْ تعيد الكرّة من جديد*

صمتتْ هدى، وبعينيها نظرة إشفاق على عاليا، فتنهّدت آمنة تنهيدةَ ألم، ثمّ قالت: *لن نتخلّى عنها، سنفعل كلّ ما بوسعنا كي ننقذها*

ثمّ ربّتت على كتف هدى التي لانتْ لحديثها وقالت: *هل تمكّنتِ من الوصول إلى النقيب زين؟*

أجابت هدى: *لا، أجابنى أحد العساكر وأخبرنى إنّه في مأمورية، فتركت له رسالة *

زمّت آمنة شفتيها تعبيرًا عن الخسارة، ثمّ قالت: *سنضطرّ لانتظاره أم سنتحرّك بمفردنا؟*

هزّت هدى رأسها تعبيرًا عن الحيرة، ثمّ شعرت فجأةً ببرودة تحيط بها، وكانت أقوى هذه المرّة حتّى إنّها شعرتْ بقشعريرة عنيفة انتصبتْ لها مسامّ جلدها، وبدأت ترتجفُ بقوّة تدريجية، لفّت ذراعيها حول بدنِها من قسوة الارْتجاف، وأخذت تتصبّب عرقًا وكأنّها مصابة بالحمّى.. ثمّ لم تحتمل، وكادتْ تفقد توازنَها، فأسندتها آمنة قائلة: *ماذا حلّ بكِ يا أختاه!؟ بماذا تشعرين؟*

لم تقوَ هدى على النطق، وبدأت تشعر بدوار، ثمّ تجلّت لها الأطياف من جديد، الطفلان والمرأة والرّجل في هيئتهم الشّبحية، وأعناقهم المنحورة، إلّا شبح الرجل ممزّق شرايين اليد، كانت نظراتُهم مفعمةً بالتوسّل، تحاملت هدى على نفسها وهي تقول بنبرةٍ مُرتعشة: *حضروا يا آمنة*

تلفّتت آمنة حولها في خيفة، ثمّ قالت: *أين؟ أنا لا أرى ولا أشعر بشيء*

قالت لها هدى: *إنّهم بجوارك تمامًا*

انتفض جسد آمنة ثمّ قالت: *وكيف هُم؟*

أجابت هدى: *في أبشع صورة*

قالت آمنة وهي تنتفض: *تماسكي يا هدى، تماسكي؛ فلن يضيرك الله أبدًا*

حاولت التّماسك بالفعل، والتغلب على شعورها الجارفِ بالخوف وهي تذكر الله في سرّها مرارًا وتكرارًا، حتّى هدأت..

ولمّا خبتَ الرّوع بداخلها برحمةٍ من الله، بدأت هيئتهم الشّبحية المرعبة في التحول إلى أخرى سويّة شيئًا فشيئًا، واعتدلت أعناقهم وصحّت أبدانهم..

ثمّ اقتربت منها الفتاة الصغيرة ذات الوجه الملائكي والابتسامة البريئة، ومدّت لها يدها، فلانت لها هدى ورقّت، وشرعت في مدّ يدها لها بحذرٍ يخلو من الخوف، ولمّا حاولت آمنة أن تمنعها من الولوج في الأمر، هزّت لها رأسها

بالرّفض، ولم تتراجع آمنة إلّا بعدما رأتْ تعبيرات الاطمئنان على وجهها.

لمستْ أناملها أناملَ الفتاة فانقلبَ المكان رأسًا على عقب مرّاتٍ متتالية حتّى شعرت هدى أنّها قد سقطت في دوّامة شديدة السّحب والهياج، ثمّ هدأت الدّوامة، وعاد لهدى اتّزانها من جديد لتجد نفسَها مازالت في الشقة التي تبدّل حالها واختفت منها آمنة وعاليا.

بدتِ الشّقة نظيفة، والسراير مرتّبة ونظيفة، وسمعت ضحكات طفوليّة ناعمة آتية من صالة الاستقبال، فتوجّهت نحوها وما عاد يعتريها شيء من الخوف أو الارتياب.

ورأتِ الطفلين يلعبان بألعابهما، ويتبادلانها قبل أن يُسمع صراخٌ قويّ في الغرفة الكبيرة، ففزع الطّفلان وركضا صوبَ الغرفة فسمعا صوت والدتهما تصرخ وتتوسّل إلى أبيهما أن يرحمها وكانت تقول باكية: *لعنةُ الله على الشّيطان الرجيم، الذي زرع في عقلك الشكّ، وخيّل لك الباطل الحقّ والحقّ باطلًا، أنا مظلومة صدّقني مظلومة*

ثمّ سمعت صوت صفعةٍ عنيفة وصوتَ رجلٍ يقول: *لقد رأيتك بعيني أيّتها الخائنة في أحضان عشيقك، فهل أكذّب عينَي وأصدّقك!؟*

قالت المرأة: *أين هو عشيقي هذا؟! أنا بمفردي*

قال غاضبًا: *لقد هرب من النّافذة لا شكّ*

قالت المرأة: *ما الذي حلّ بك؟ لقد كنت طبيعيًّا قبل أن نسكن هذه الشّقة الملعونة، ثمّ بدأ الشكّ يتسلّل إلى عقلك حتّى بتّ ترى أشياء غير حقيقية، عُدْ إلى رشدك وإلى ربّك واستغفره، من أجل أولادك، لا من أجلي*

فقال الرّجل بنبرة مخيفة: *ومَن جزَمَ بأنّهم أولادي!؟*

سمعت هدى صوتَ شهقة المرأة المصدومة، ثمّ انفتح الباب على حين غرّة، وبدا منه الرجل الذي رأت طيفَه مقطوع الشرايين بعينين حمراوين يتطاير منهما الشّرر، ووجه إسود من شدّة الغضب، مرّ بجوارها دون أن يراها أو يشعر بها ودلفَ إلى المطبخ بسرعة البرق، ثمّ عاد حاملًا سكّينًا حادًّا، ولمّا رأى الطفلان هذا ارْتعبَا وركضَا إلى غرفتيهما من الخوف.

تبعتْ هدى الرجلَ الذي لم يتوانَ للحظةٍ عن إمساك زوجته من شَعرها، ثمّ إرجاع رأسها للخلف، ثمّ نحرَ عنقها بلا رحمة حتّى كاد ينفصله عن جسدها.

وتناثرت دماؤها في كلّ مكان، وكلّما سقطت منه نقطة كانت تُمتصّ على الفور كأنّ فمًا خفيًّا شَرِبها!

بدتْ عيناه متّسعة وزائعة تفيض بحالةٍ من الجنون، كان متلذّذًا بنحر عنقها بكلّ هذا القدر من الوحشية والهمجية، مات بداخله كلّ شعور، حتّى وإن كانت

حقًّا خائنة وهي ليست كذلك؛ ما كان ليطاوعه قلبه على قتلها بهذه الوحشية!.

ثمّ تنفّس نفسًا عميقًا كأنّ روحه قد ارتوت، ولكنها لم تكتفِ بعد، فتوجّه نحو غرفة الأطفال، وأجهزَ على الفتاة أوّلًا، كمّم فمَها وطعنها طعنة لتعجيزها عن الحركة، ولمّا حاول الطفل الهرب من الغرفة باغته بطعنةٍ هو الآخر لتعجيزه عن الحركة، فصرخ الطفل صرخة عالية، فلكمه الأبُ لكمة قويّة أفقدته الوعي.

كانت طعنة الفتاة نافذةً في القلب، ولكنّه لم يكتفِ ونحرَ عنقها، ثمّ نحر عنق أخيها.

كانت هدى تشاهد وتبكي بكاءً حارًّا حارقًا مكتومًا من هول المشاهد، لا تصدّق أن هذه الأسرة عاشت يومًا مريرًا كهذا!

وما حدث لدماء أمّهما حدث لدمائهما، واختفت كأنّ شيئًا لم يكن، ونهضَ الأب وهو ينظر إلى جثتيْهما بنظرات مشدوهة، غير مصدّقٍ لما اقترفته يداه.

دارَ حول نفسه وحولهما وحولَ المكان، ثمّ راح يستجير بزوجته قائلًا: *أغيثيني يا رقية، أغيثيني، قتل أحدهم أبناءنا*

وركض نحو غرفتها فوجدَها هي الأخرى مقتولة، فصرخ صرخة مكتومة دوّى صداها في قلب هدى، وهي تراه يبدأ في الانهيار وكأنّ شيئًا ما باغته بلكمةٍ قوية، فارتطم بالجدار، ثمّ حاول الوقوفَ فلكمه مجدّدًا، ومجدّدًا، وبدأ صوت ضحكةٍ شيطانية يدوّيى في جنبات الغرفة.

ولمّا خارت قوى الرجل تمامًا، تجلّى له ظلٌّ أسود شديد الدمامة، حتّى تجسّد شيطانًا ذا قرنين وحوافرَ وأذناب، ووقف عند رأس الرجل الراقد على الأرض.

ثمّ قال ساخرًا بنبرة انتصارٍ مُنتشية: *يا ابن آدم، كيف حالك الآن؟، تدّعي القوّة دائمًا بينما أنت ضعيفٌ، تسيح في مشارق الأرض ومغاربها، تستعبد كلّ شيء لخدمتك وتفضّل نفسك على سائر المخلوقات فلا ترى إلّا نفسك، فكيف هي نفسك الآن وأنت راكعٌ ذليل!*

بصقَ الرجل المسجّى على الأرض، وقال بصوتٍ مُختنق وصعوبة بالغة: *أيّها الشيطان الرجيم عليك لعنة الله في السموات والأرض، أيّها الوسواس الخناس مصيرك إلى جهنم وبئس المصير، زرعتَ بعقلي الشكّ والأوهام، لم تغادرْ رأسي حتّى استحوذت عليّ*

قاطعه الشّيطان قائلا: *لا.. لا.. لا، أنا لست شيطانًا؛ بل أنا ماردخاااااي (قالها بصوتٍ مرعب) (ثمّ ضحك ضحكة شيطانية) أتيتني محمّلًا بالأنكاد تتلقّفك الشكوك، وما أن عرضت عليك عرضي لم تتردّد في القبول، فأريتك ما أردت- أنت- رؤيته ليس إلّا، فلا تلُمْنس ولُمْ نفسك، فنفسُك يا ابن آدم أكثرُ ضلالًا من ألف جنّي ومارد، وأعْتى إجرامًا من وساوس الشيطان* ثمّ عاد ليضحك

ضحكاته الشيطانية.

عافر الرجلُ في الزحف هربًا من الغرفة وأملًا في الوصول إلى باب الشقة حتّى خارت قواه بعدما سمع ماردخاي يقول: *لا مهربَ منّي سوى بالموت يا عزيز، أيْنما ذهبت فستجدني قابعًا بداخلك، وستعود وتطيعني من جديد*

بكى الرّجل.. بكى بحرقة كأنّما اشتعل جسدُه بأكلمه بنيران الحسرة والألم، وأخذ يسبّ نفسه وما سوّلت له به، نفسه التي أنْسته الله، فأنساه الله نفسَه، وتركه لها تلقي به في جُبّ الظلم والظلمات حتّى آلَ إلى ما آلَ إليه، ولم يجد الرجلُ أمامه ليتخلّص من هذا العذاب القاتل سوى أن يمسك بالسّكين ويقطع شرايين يدِه بقسوة، ثمّ أخذ جسده يهتزّ ويرتجف حتّى أسلم روحَه إلى بارئها.

رمقَ المارد البشع هدى بعينين جاحظتين متوعّدتين، ظنّت أنّه يراها فتراجعت بسرعة البرق وركضت إلى خارج الغرفة، فأسرع خلفها ولكن لم يتبعها إلى الممرّ، بل إلى الغرفة الصغيرة ثمّ سمعتْ هدى صوت إغلاق بابها بعنف.

وعادت لجسدها ارتجافة عنيفة، وسقطت في الدّوامة مجدّدًا حتّى عادت إلى آمنة وإلى حيث كانت..

* * *

طالتْ خلوة الشيخ رابح أكثرَ من الساعة التي طلبها، وبدأ القلق يدبّ في أعماق فتح الله الذي كان على وشك قطْع تلك الخلوة لوْلا أنْ منعه صهرُ سعد محذّرًا إيّاه من فعل ذلك حتّى لا يغضب الشيخ..

وبعد وقت قصيرٍ إضافيّ خرج الشيخ من خلوته أخيرًا قائلًا لفتح الله: *قضيَ الأمر، فلتَتَوكّل عَلى الله، نعم المولى ونعم النصير*

وكأنّ الشمس أشرقت بنور ربّها فوق رؤوسهم، وابتهج فتح الله كما لم يبتهجْ من قبل، واتّفقا على التحرّك على الفور، ولكن بعد أن يطّلع الشيخ على شيء ما في كتابه.

* * *

جلستْ ثريا على طرف سريرها مستقبلةً نافذة غرفتها، تنظر منها نحو السّماء التي أفَلَ نورها وغابتْ عنها شمسها بعينين انطفأت فيهما لمعةُ الحياة وهي تراقب بدْء ظهور البدر، ثمّ دق بابها فانتفضت، ثمّ نهضت بوهَنٍ وتوجّهت نحو الباب، وسألت عن مَن الطارق، فجاءها صوت مولانا.

فتحتِ الباب واستقبلته ودلفَ صامتًا وأجْلسَ نفسه على أحد المقاعد، وقال: *بضع ساعات وينتهي الأمر يا ثريا*

التفتت له ثريا واقتربت ثمّ قالت بنبرة يائسة: *ثمّ؟*

ـَ

رفع نظرَه نحوها بلا اكترث قائلًا: *ثمّ ماذا؟!*

قالت: *بعد مقتل الفتيات، ماذا سيحدث؟*

رفع كتفيه مستغربًا، ثمّ قال: *ما حدث من قبل، سيهدأ لشهور وربّما أعوام ثمّ سيعود طلبًا للأضاحي*

ابتسمت ثريا نصف ابتسامة ساخرة حزينة، وقالت متنهّدة بألم: *هل تعلم كم عمري الآن؟*

نظرَ بقلّة اهتمام ولم يُجبْ، فقالت: *٥٩ سنة.. سأكمل السّتين آخر العام، فهل تعتقد أن لديّ المزيد من الطاقة لتحمّل رؤية المزيد من الجثث تُشيّع من بيتي في أكياسٍ سوداء على نقالات عربات الإسعاف؟*

رمقَها بنظرةٍ خبيثة ثمّ قال: *بماذا تفكّرين يا ثريا؟*

انْسابت على وجنتها دمعةٌ دافئة، ثمّ قالت: *لم أعدْ أحتمل، أودّ إنهاء هذا الأمر تمامًا*

تعجّب قائلًا: *أتريدين الموت؟!!*

قالت: *سأموت يومًا ما على كلّ حال، ولكن تخيّل إذا مِتّ وهذا الشيء مازال قابعا هنا، كيف سيسير الأمر؟! سيستمرّ القتل، ويستمرّ الموت، وستُلقى كلُّ هذه الدّماء على كفّتي ميزاني بينما أنا في قبري..*

نكّس رأسه في صمت ولم يُجِب..

فقالت: *يكفي ما تحمّلته من آثام ودماء أرواح أُزهقت بسببي، كما أنّني أشعر بدنوّ الأجل، ولن أحتمل الذّهاب إلى ربّي دون أن أكفّر عن تلك الجرائم*

نهضَ مولانا من مجلسه وقد بدا الشّر في عينيه قائلًا بنبرةٍ حادّة: *أتطمعين في التوبة الآن؟ وأين كان ضميرك وأنتِ تتلذّذين بنجاة نفسك وتُلقين بأرواح بريئة إلى التّهلكة؟*

صرختْ صرخة خفيضة وهي تقول باكية بندمٍ، وبنبرات هستيرية: *كنت خائفة.. فأنا أخشى الموتَ منذ صغري، كانتْ أمّي تُخيفُني من الموت وتصوّر لى القبر بصورٍ بشعة، كانت دائمًا ما تقول إنّه مظلم وموحِش، وأنّي سأقبع فيه بمفردي، كانت تُخيفُني من الموت حتّى أحافظ على حياتي، وأتراجع عن شيطنة الأطفال وطيش الشباب، ولم تكن تعلم أنّ ما زرعَتْه بداخلي من خوفٍ زائد سيخلق منّي مجرمةً تقتلع أعناق الناس كي تحيا*

ثمّ استسلمت لنوبةِ بكاءٍ وجيزة، وعادت لتكمل قائلة: *ولكنّي رأيت طيفَ رفعت وإيفون وكانا هادئيْن مطمئنّين، لم تبدُ عليهم فزعة الموت، بدوْا أفضل حالًا، وأكثر صحّة وشبابًا، إذًا فالموت ليس بشعًا كما قالت أمّي*

صمتَ الرجلُ قليلًا، ثمّ قال لها بهدوءٍ وثبات، وبابْتسامة لطيفة على شفتيه: *ولكنّي لن أسمح لكِ بذلك يا ثريا*

ثمّ اسْتطر في عينيه الشّر، واتّسعت عينا ثريا بارْتعاب، ثمّ تقدّم نحوها بوجهٍ شيطاني متوعّد.

***

ما انفكّ الشيخ رابح يقلّب في أوراق كتاب ضخمٍ قديم كسا الاصفرارُ أوراقه، وفتح الله يتابع في صمتٍ كما أمره صهرُ سعد، حتّى توقّف الشيخ عند جزءٍ هامّ قرأه صمتًا بعينيه ثمّ تنفّس نفسًا عميقًا كالذي أدرك الخلاص.

ولمْ يستطع فتح الله صبرًا فسأله: *عمّ تبحث يا شيخنا؟*

أغلق الشيخ رابح الكتابَ الذي وضعَه على الطاولة مجدّدًا برفق شديد، ثمّ جلس بجانبه قائلًا: *لما استخرت الله تعالى في أمر العودة معك إلى هذا المنزل لمْ أكن قد توصّلت إلى طريقة بديلة لطرْد هذا الكيان، ولكنّي كنت على ثقةٍ من ربّي أنّه سيهديني؛ لذا أخبرتك بأنّني سأرافقك، وهذا الكتاب قد ابتعته من ساحرٍ تائب وما أخذته إلّا لأعينه على مقاومة فتنة الرجوع إلى ممارسة السّحر، ولمّا فرغت من صلاتي شعرت أنّه يناديني ويجذبني نحوه فأيقنت أنّ هناك رسالة ما*

قال فتح الله باهتمام شديد: *وما هي تلك الرسالة؟*

أجاب الشيخ: *إنّها رسالة الفرج والخلاص، الطريقة البديلة لصرف هذا الكيان*

لم يفهمْ فتح الله شيئًا ممّا قاله الشيخ فاستأذنه في توضيح الأمر، وليعذر جهله، فتعجّب الشيخ من أنّه كان صديقًا لسعد ورغم ذلك لم يخبره سعد شيئًا، ولكنّه رأى أن يفهم ويستوعب الأمر جيدًا طالما أنّه على وشك إقحام نفسه فيه.

عاد الشيخ رابح بالأحداث إلى اليوم الذي هاتفَه فيه رفعت طالبًا منه أن يخبره بطريقة صرف هذا الكيان فأخبره أنّ الطريقة المثلى لصرف هذا الكيان هي طريقة التّعزيم؛ وفيها يقوم المتطوّع بالتعزيم في مكان اخْتباء الكيان ببعض الآيات والأدعية الخاصّة بمفرده.

وهي طريقة معروفة جدًّا، ولكنّها تحتاج إلى قوّة تحمّل وثبات شديديْن، وإيمان قوي، وأن تكون النّية خالصة لوجه الله تعالى، لا تشوبها شائبة، ولا تخالطها نوايا أخرى كالانتقام لشخص أو لمصلحةٍ خاصّة، وكان عيبها الوحيد أنّه إذا مات المعوّذ بسبب أيّ خوف يتسرّب إلى قلبه أو اختلاط النوايا أو انتكاسة مفاجئة للإيمان من هوْل ما سيراه أثناء التعويذ؛ فلا بدّ من أحد أبنائه أو أيّ شخص من دمه وعصبه؛ أنْ يكمل التعويذ.

ولا فائدة إنْ قام بالأمر شخصٌ آخر من دمٍ مختلف وإلّا فستذهب المحاولة هباءً، وهذا ما حدث مع رفعت الذي قام بالأمر بنيّة الانْتقام لصديقه جورج ففشلَ ولم يُكمل التعويذ من بعده أحدٌ حيث لم يكنْ له أخ ولا ولد.

تنهّد الشيخ قائلًا بحسرةٍ وألم: *لم ينتظرْ حضوري، وأصرّ أن ألقّنه تلك الآيات والأدعية، وطمأنني أنّ لديه الشخص الذي سيُكمل من بعده إنْ أصابه مكروه، وأنّ هذا الشخص من ذرية عمّه، أي من نفس الدّم، ولكنّني علمت- فيما بعد- من سعد أنّ رفعت قد ماتَ ولم يكمل مهمته أحد، وأنّ المنزل مازال محتلًّا من هذا الكيان يُسمع فيه ويُرى الكثيرُ من المآسي والأهوال*

شردَ فتح الله هو الآخرُ في ذلك اليوم الذي جاءه فيه سعد منذ حوالي العامين شاردًا، كئيبًا، حزينًا يقول: *أنا ملعونٌ مغبون يستحقّ الموت حرقًا، تركت أسرةً كاملة تموت ولم أحرّك ساكنًا، ولكنّها خدعتني؛ قالت لي إنّها لن تتكرّر، وإنّ هذا الشّيء ذهب بلا رجعة ولكنّه عاد.. عاد ويريد اغتيالَ المزيد من الأرْواح، ولكنّي لن أصمت هذه المرّة، سأتكلّم يا فتح الله، سأمزّق صمتي وأهزم خوفي، ولتكن لله*

ثمّ فزّ من فوق مقعده، وركض صارخًا كالمجنون يقول: *سأخبرُ الشّباب بكلّ شيء، وسأخبر الجميع بجُرمها وما يقبع في هذا المنزل*

ولم يستطعْ فتح الله اللّحاق به؛ فهو رجلٌ كبير ضعيفُ القدمين، وكانت هذه هي الليلة الأخيرة لسعد في هذا المنزل؛ فبعد عدّة ساعات فوجئ الجميع بسعد يصرُخ في غرفته بالجراج ثمّ خرج منها يركض مستغيثًا يقول أدْركوني سأحترق.. سأحترق، خُيّل إليه أنّه يشتعل، ولكنّه لم يكن كذلك، ثمّ حوّل استغاثته في اللّحظة الأخيرة لله، بعدما سقط يتلوّى على الأرض، ونجا ولكن بعدما فقَدَ القدرة على النطق والحركة.

استفاق فتح الله من شرودِهِ على صوت الشّيخ رابح يقول: *ولكنّي مازلت في حيرةٍ من أمري أخشى ألّا تأتي الطريقة البديلة بثمارها*

فقال له فتح الله: *أخبرني ما هي، وما سبب خشيتك وأنا معك، لن أتوانَى عن التضحية بكل ما أملك، ولن أخذلك بإذن الله*

قال الشيخ: *إنّ الطريقة البديلة تحتاج إلى وجودِ خمسة أشخاص يشكّلون حلقة بالقرب من الثقب الذي أتى منه هذا الكائن من عالمه إلى عالمنا، ويوجد في الكتاب تعويذة تسمّى تعويذة الصرف ولا بدّ أن يتحلّى الأشخاص الخمسة بقوّة التحمّل والنّية الخالصة*

فسكتَ فتح الله قليلًا، ثمّ قال: *أنا وآمنة وصديقتاها، نحن أربعة*

فقال الشيخ: *بل ثلاثة، فاللّيلة ليلة خسوف، وحتمًا تمكّن من إحداهنّ، سأنضمّ أنا ومساعدي لكم فنصبح خمسة*

فتهلّلت أساريرُ فتح الله، وشعر بالفرج القريب.

* * *

عادتْ هدى إلى حيث كانت.. عادت جامدة العينين، لم يعد بدنها يرتجف ولا قلبها ينخلع، عادت وقد علمت سر هذا المنزل الملعون وسر لعنته.. عادت وقد باتت على علم بما عليها مواجهته والتصدى له، كما علمت إنّه لن يسمح لهم بالهروب ولا فرار من المواجهة..

وعلى الفور توجّهت صوبَ الغرفة الصغيرة ولم تنتبه لكلّ تساؤلات آمنة وكأنّها لم تسمعها قط فتبعتها على غير هدى.

وقفتْ هدى في منتصف الغرفة، وراحت تفحص النقوش والطلاسم التي رأوْها من قبل ولاحظتْ أنّ هناك مجموعة أسهم يبدو أنّها قد رُسمت فيما بعد لأنّها مرسومة بألوان زيتيّة تمامًا كالمستخدَمَة في رسم لوحة المرأة مطموسة الملامح، بل وتشير إليها فتتبّعت هدى الأسهم حتّى توقّفت أمام اللوحة مباشرة تتأمّلها من جديد.

قطعتْ آمنة حبلَ أفكارها قائلة: *هدى، ألا تسمعيني؟!*

انتبهت لها قائلة: *نعم أسمعك*

فقالت آمنة بلهف: *ما الذي حدث لكِ في الغرفة؟ ما الذي رأيتِه عقب ظهور الأطياف حولك؟*

تنفّست هدى بعمق ثمّ قالت: *رأيت أنّنا لن نخرج من هذا المنزل، ولن ننجو إلّا إذا واجهنا شيئًا ما شرسًا وقاتلًا يقبع في هذه الغرفة، ويسمّى ماردخاي*

وما أنْ نطقت هدى باسمه حتّى عَلاَ صوتُ زئير مرعب من خلف اللوحة، وتجسّد ذراع المرأة التي في اللّوحة، وتحوّل إلى ذراع أسود قوي، لكَمَ هدى في صدرها لكمةً قويّة أطاحت بها خارج الغرفة هي وآمنة، ثمّ أغلق الباب بقوة.

شهقتْ آمنة وهي تزحف بظهرها في الممرّ حتّى وصلت إلى عتبة باب الغرفة الصغيرة التي ترقدُ فيها عاليا، ولمّا وقع نظرُها عليها رأتها قد استفاقت والشّر الشّيطاني يكسو وجهها وهي تحاول نزع قيدها بحركات جنونية.

كانت اللّكمة قويةً، حتّى أنّها كادت تقطع أنفاس هدى التي تماسكت أكثر فوْرَ سماعها صرخة آمنة العالية..

شاهَدَتَا عاليا وهي تقرض الحبل بأسنانها التي أخذت تتكسّر أجزاء منها من قسوة الضغط عليها، وكادت تنجح لولا أن انْقضّتَا عليها، وثبّتن القيد من جديد، فأخذت عاليا توجّه لهما السّباب وتلعنّهما، وتتوعّدهما بسوء المصير.

صرختْ فيها هدى أنْ تهدأ قائلة: *عاليا، عاليا، أعلم أنكِ لستِ مَن تتحدثين،

إنّه يسيطر عليكِ وينتزع منكِ طاقتكِ وإرادتكِ، اذْكري ربّكِ يا عاليا واطلبي منه أن يُنجيكِ مما أنتِ فيه، أفيقي وسنقضي عليه سويًّا*

صمتتْ عاليا لوهلة من ثورتها واتّسعت عيناها من الصّدمة والحزن، ثمّ انسابت الدموع من مقلتيها وهي تهز رأسها، وتقول: *لا، لا تقتلوه، لا يمكنني التخلي عنه، إنّه ليس كما تعتقدونه، إنّه... إنّه أجمل مخلوق رأيته في حياتي*

قالت هدى: *بل إنّه بشعٌ للغاية يا عاليا، لقد رأيته على حقيقته، أنتِ مخدوعة*

صرختْ عاليا: *لا.. لا، لن أترككن تنالا منه، سأقتلكن، سأقتلكن*

ولم تجدْ هدى أمامها سوى أن تتْلو عليها بعضَ آيات من الذكر الحكيم، فهاجت عاليا أكثر وأكثر وتعالت صرخاتها حتّى كادَ لحمها يتفتّأ، ولم تحتمل وفقدتِ الوعيَ وجثَتْ هدى على ركبتيها تبكي.. لقد نالَ منها وتملك روحَها وانضمت إلى عالم الأرواح المغبونة.

* * *

طال انتظارُ الشيخ رابح لحضور مساعده الذي تأخر على غير عادته، وأوشك القمر على الخسوف، فقال له فتح الله: *فلنمر عليه إذًا*

قال الشيخ رابح: *إنّه يأتيني من الفيوم، سيضيع الوقت في الذهاب والعودة*

تأفّف فتح الله وانتابه القلقُ والتوتر تمامًا كالشيخ رابح، الذي قرر تخطّي الأمر والتحرك بدونه وليقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا.

وبينما هُمَا في طريقهما إلى سيارة فتح الله فإذا بشابّ نحيف، بشوش، وصغير في السن، لم يتخطّ الخامسة والعشرين من عمره، يرتدي جلبابًا أبيضَ وطاقية رأس، ينادي على الشيخ رابح من بعيد ليستوقفه.

فتهلّلت أسارير وجه الشيخ، وقال لفتح الله مبشّرًا: *ها قد أتى مساعدي*

وانطلق ثلاثتهم على بركة الله.

* * *

أمّا ثريا فلم تستطعِ الإفلات من براثن مولانا الذي لم يتورع في تسليط أحد خُدّامه من الجن في تقْييدها على مقعدها كما لو كانت قد أصيبتْ بشلل كامل، ترى وتسمع وتشعر ولكنّها لا تقوى على الحراك أو النطق.

راح يتمشّى أمامها ذهابًا وإيابًا متلذذًا بنظراتها المتوسّلة الذليلة، تعتلي وجهه ابتسامة ماكرة ثمّ قال: *سنوات وأنا أدفعُ عنكِ البلاء وأتقاضى منكِ ما أتقاضاه نظيرَ حمايتي لكِ ثمّ تأتين الآن وتقرّرين ببساطة أن تُنهي الأمر (ثمّ تنهّد قائلًا) هل تتذكّرين المرة الأولى التي جئتني فيها تتوسّلين لي لحمايتك والحفاظ على حياتك؟!.. هل تتذكّرين اتّفاقنا وقتها؟*

كانت ثريا تتابعه بعينين باكيتين ولا تقوى على النطق، فأكمل قائلًا: *أخبرتك أنك لا تستطيعين التّراجع أبدًا؛ لأنّ بتراجعك سينتهي الأمر كله، الأمر الذي رضيت بأجري الزّهيد فيه مقابل خدماته الجليلة لي*

اتّسعت عينا ثريا التي بدت أنّها اكتشفت شيئًا جديدًا، فأكمل قائلًا بعدما لاحظ نظرتها تلك: *نعم، منذُ وطئت قدماي هذه الشقة وتعرّفت على هذا المارد وقد قطعت معه عهدًا واتّفاقًا، أن أقنعك باصْطياد الأضاحي له وفي المقابل يمنحني المزيد من القوى من أجل عملي، والذي تربّحت منه الكثير، والآن تريدين أن تهدمي كلّ شيء*

أخذتْ ثريا تزوم كأنّما تريد التحدث، فأشار بأصبعه فانفكّ قيدُ لسانها فقالت بغضب مصدوم: *كنت تستغلني أيّها الحقير؟*

فضحكَ قائلًا: *استغلال! اسمها تبادل منفعة.. والآن لنَنْهِ الأمر على طريقتي، هل تريدين الخلاص النّهائي، وبلا موتك؟!*

هزّت ثريا رأسها بتؤدة، فقال: *فلتتنازلي لي عن المنزل إذًا*

صُعقت من طلبه فهي لم تفعل كلّ هذا إلّا من أجل الحفاظ على المنزل وعلى بقائها فيه فبين جدران هذا البيت تقبع ذكرياتُها كلّها، شبابها ونضوجها وهِرمها.. ورفعت.. رفعت الذي لا يتراءى لها طيفه إلّا فيه ولا تأتنس إلّا به.

***

وقفتْ هدى مكتوفة الأيدي لا تدري من أين تبدأ وماذا تفعل!

ثمّ خالجها شعورٌ مُلِحّ بالنظر في صورة الشّباب الأربعة، وبالأخصّ صفي الذي بدا متواصلًا معها منذ اللحظة الأولى، ويكأنّه أراد إخبارها بشيء ولكنّها لم تفهم آنذاك.

أمسكت الصورة وأطالت في وجهه النظرَ وبدأوا في التنحّي من جديد جانبًا، وبدأت تظهر اللّوحة مرّة أخرى، ولكنّها أكثر وضوحًا هذه المرّة، ليس هذا فقط؛ بل مكتملة، وكانت المفاجأة العظمى أنّ السيدة التي رُسِمت ولم تكتمل كانت هي نفسها السيدة ثريا.

كانت مفاجأة متوقّعة، فهدى لم تشعرْ حيالها بالارتياب جُزافًا، وكانت تعلم أنّ هذه السيدة تحمل سرًّا كبيرًا، وهي مفتاح هذا اللغز.

ولكنّها لم تفهم المطلوب منها تنفيذه..

لم تفهمْ آمنة هي الأخرى ما الذي يدور، ومن هؤلاء أيضًا، وتفاقم الذعر بداخلها فهي لم تستوعب بعدُ ما الذي دار في الغرفة الصغيرة منذُ قليل، وما الذي أطاح بهنّ هكذا، فقالت لها هدى إنّهم السكان السّابقون، وبالتّأكيد أصابهم ما أصاب مَن قبلهم، وعلى وشك أنْ يصيبهنّ أيضًا إلّا إذا اكتشفنَ

المخرج من هذا المأزق المميت.

عادتْ لتدقيق النّظر في صفي، فهو دونًا عن بقية رفاقه من يقوم بالتّواصل معها، ثمّ بدأت عيناه تجحظ كأنّما تراءى له شيء مقيت، وبدأ في الانشقاق عن رفاقه الذين أخذوا في التنحّي شيئًا فشيئًا حتّى خرجوا جميعًا من الصورة ولم يتبق سواه.

وتحوّلت فُرَش التلوين التي كانت في يده إلى سكّين يسطع منه الضوء من شدّة حدّته، وهنا أدركت هدى مَن يكون هذا الصفي.

***

أكلَ فتح الله الطريقَ بسرعة جنونية كأنّه يسابق الريح والزمن، بينما كان الشيخ رابح يتابع القمر الذي بات كسوفه وشيكًا.

ثمّ أخبرهما أنّ عملية الصرف يجب أن تُضبط بدقّة، وأنْ تتزامن مع بدء الخسوف، وأنْ تنتهي قبل انتهاء الخسوف.

***

تقطّعت بثريا السّبل، فإنْ وافقت على طلبه فهذا معناه استمرار القتل والتضحية بأرواح الناس وتسثّرها على عددٍ لا نهائيّ من الضحايا، وإن رفضت فلن يفكّ قيدها ولن تتمكن من تنفيذ ما انتوت القيام به.

ولكنْ، وفي النهاية، لم تجد بُدًّا من الرضوخ لمطلبه، ووافقت على كتابة التّنازل لتحرّر نفسها.

***

شهقتْ هدى شهقة قوية، جعلت آمنة لا تستطيع صبرًا، وأصرّت على معرفة ما يدور ومن هذا الشّاب وما الذي تراءى لها..

فقالت لها هدى: *إنّه القاتل، قاتل أصدقائه*

دُهِشت آمنة وزاد اضطرابُها ثمّ قالت: *أنا لا أفهم شيئًا، ما الذي يجب علينا فعله بالتحديد؟*

صمتتْ هدى للحظة ثمّ قالت: *إنّ كثيرًا من حلّ هذا اللغز يقبع عند السيدة ثريا*

وتبادلا النظرات فيما بينهنّ.

***

كتبتْ ثريا التنازل، وكلّ قطعة فيها تتمزّق، فليس هناك أبشع من أن تنتزع روحك بيدك وتمحى ذكرياتك كلّها بإرادتك وبجرّة قلم!

وما أنْ نال مولانا مراده وانتزع منها التنازل حتّى تلا عليها تعويذة جعلتها تغيب

عن الوعي وبرزت عيناه كأنّما تلبّستهما الشياطين، ثمّ استدار نحو الباب في طريقه إلى الشقة الأرضية.

***

انفتحَ باب الغرفة الصغيرة وسُمع صريرُه جليًّا، فاقشعرت أبدان الفتاتين، وأدركتَا أنهما على وشكِ مواجهة عنيفة.. ارتعشت أنوار المصابيح، وبدأت تخفُت حتّى تعطّل بعضها ولم يتبقّ إلّا القليل من الضوء، فأخذت هدى تتحصّن بالذّكر، وتكرّر خلفها آمنة التي اعتصرها الخوف، وردّدن: *بسم الله الذي لا يضرّ مع اسْمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم*

فهدأ صوتُ الصرير وتوقّف الضوء عن الارتعاش، وأنارت المصابيح التي تعطّلت، وما أن عاد كلّ شيء إلى طبيعته وسكونه تباسلت هدى وتقدّمت بضع خطوات بجسارة نحو عتبة باب الغرفة ثمّ اختلست بضعَ نظرات صوب الغرفة الصغيرة الملعونة.

وما أنْ وقع نظرها عليها حتّى تسمّرت في موضعها، وتصلّبت أوصالها..

ووجَدَت نفسها تذهب بلا إرادة نحوها، بحنين عشاق الأرض أجمعين، وبلهفة ملايين المحرومين؛ إلى طيف أمّها الذي تجلى لها هناك.

كانت تقف عند عتبة الباب تمدّ لها ذراعيها بعينين يفيضُ منهما الاشتياق وهي تقول لها بصوتها الحاني: *هدى، تعالي يا هدى، فإنّي لكِ مشتاقة يا بنيتي*

ولم تملكْ هدى أمام تلك النظرات ولا رقّة النبرات سوى أن تذهب، ذهبت إليها بقلبها وكامل جوارحها، لم تفكّر.. وكيف تفكّر! وهي ترى أمّها التي ماتت منذ خمس سنوات تقف أمامها في أبهى طلة.

لم تستوعب آمنة ما يدور ولم ترَ ما رأت، ولكنها شعرت أنّ شيئًا ما لا يجب أن يحدث، لا يجب أن تطأ أقدامهنّ هذه الغرفة الملعونة، وما أن همّت هدى بالذهاب، منعتها وهي تقول لها صارخة: *لا يا هدى، لا يفتتنكِ هذا الشّيطان بسحره*

ولكنّ هدى لم تستمع، لم تُردْ أن تستمع، وأفلتت يدها من قبضتها وركضت، ركضت كما يركض الظّمآن في قلب صحراء جدباء إلى بئر ماءٍ عذب، ركضت كما يركض السائر في الحر القائظ ليحتمي بالظل.

ركضتْ بقلب يعتصره الشّوق والألم والحنين والأنين، بقلب متهتّك من لوعة الفراق ورغبة اللقاء.

وما أن اقتربت حتّى تبدّلت نظرات الأمّ، وارْتسمت على شفاهها ابتسامة غريبة ونظرة مريبة، لم تكن تلك أمّها، بل شيء آخر مخادع، ولكنّ الحنين وآهٍ من الحنين، قد يلقي بك في أحضان الأفاعي وأنت مسرور، يصوّر لك النار نورًا.

* * *

(إنّ اعتقادك الدّائم بأنّك أقوى من الإغراء، لسببٍ كافٍ لوقوعك في أعتى الفتن)

ولكنّ الله لا يضيع أجرَ المحسنين أبدًا، ويسخر لهم من كلّ الخلائق مَن يردّهم إذا ما مالوا إلى أهوائهم وانحرفت قلوبهم.

تجلّت أطيافُ الشباب الأربعة في ظهورٍ مَهيب، يشكّلون حائطًا بشريًّا متراصًّا، متشابكي الأذرع، لا ينفذ من بينهم الهواء، وصرخوا صرخة واحدة، والدّماء تسيل من أعناقهم كما كان حالهم الأخير فانفضح ستر ماردخاي، تعرّت حقيقتَه البشعة المقزّزة وتراجع.. تراجع إلى حيث يقبع كلّما ألمّ به ضعف في شقّ الجدار كالحشرات والديدان.

* * *

جثَتْ هدى على الأرض تبكي خجلًا من الله الذي نسيته لوهلة ولكنّه لم ينسَها أبدًا.

ثمّ اقترب منها طيف صفي مُمسكًا بالسكّين ومدّ لها يده كي تمدّ يدها ولم تتردّد فهي ما عادت تخشى شيئا إلّا الله وحده، مُسلّمة ومستسلمة لكل أقداره.

فجرحها حرجٌ هيّن، وما أنْ سالت منها أوّل قطرةٍ دم، شعرت بروحها ترتقي وتنسل من جسدها، كانت تراها.. ترى روحها تسبح بخفّة الأطياف وبينهم.. ثمّ أغمضت عينيها ورحلت..

انكبّت آمنة فوق جثمانها تهزّها وتتوسّل اليها ببكاءٍ حارّ ألّا تغادر، توسّلت إليها أن تبقى ولا تتركها وحيدة.

ضمّتها إلى صدرها وصرخت.. صرخت صرخات مدوّية لم يسمع أحدٌ صداها وكأنّ البيت كله قد نُفي عن العالم وتاهَ في عالم آخر... عالم السكون.

خرجَ مولانا من شقة ثريا وكلّما هبطت قدمُه فوق درجة من درجات السلم، يتلو جُملة من تعويذته الشّيطانية لاسْتدعاء ماردخاي بكامل قوته..

أقسمت عليك يا ماردخاي بالحضور، وتنفيذ الأمور، بحقّ أشحالش وطلمش وأشقحالوش ودهنش.. ارْتجّت الأرض السّطحية بالسفلية لهذه الأسماء، أجب بحقّ عزازير وشهاروم وأبانوخ، قمْ يا ماردخاي بحقّ سافرس وسيوس وينوس وبرنيس وبرهيوم وحوس وحريموس، فعبدُك المطيع يحتاج اليك كما تحتاج إليه

* * *

بدأ جسدُ عاليا في الارتجاف بقوّة تدريجية، بينما كانت آمنة منشغلة بمحاولة إفاقة هدى.. هدى التي وجدت نفسها تهيم بين أركان صالة الاستقبال، وقد

اختفت آمنة وعاليا.

كان المكان هادئًا حتّى ظنّت أنّه خالٍ من سكانه، ثمّ سمعت همهمةً ضعيفة تأتي من الغرفة الصّغيرة الملعونة، ولمّا انعطفت إلى الممرّ تراءى لها شابّان، أحدهما كان صفي..

اقتربت قليلًا لتسترقَ السّمع، وكان يقول له رفيقه: *لم يعدْ أمامنا سوى حلّ واحدٍ يا صفي، نقتله، إنّ ما أخبرك به سعد الحارس وما أصابه بعد ذلك يخبرنا بكلّ وضوح أن نهايتنا لن تختلف عن مَن سبقونا في هذا البيت الملعون، ولقد رأينا منه ما يكفي، لقد كان *أكرم* على وشك قتلنا أكثر من مرّة، ولم تفلح معه التعاويذُ، ولا أيّ من ترّهات كتب السحر هذي*

قال صفي مشدوهًا: *هل جننت؟ نقتل صديقنا بدلًا من أن نحاول مساعدته!، إنّ روحه محتجزة داخلَ هذا الثقب القابع خلف اللوحة، ويحتاج منّا أن نحررها، وبهذا نكون أنقذنا روحه من قبضة هذا الشّيء اللعين، لو قتلناه فلنْ يعن هذا أنّنا تخلّصنا من شرّه، ولو تخلّصنا من هذا الكائن قبل تحريرِه فلن نتمكّن من إعادة روحه*

قال يحيى: *وهل تعرف طريقة لتحرير روحه؟*

قال صفي: *نعم، في كتاب التّخاطر هذا في الصفحة ١٠٥، يوجد شرح لطريقة التواصل مع الأرْواح المحتجزة واقتيادها إلى عالمها الذي تنتمي اليه ومن ثمّ تحريرها*

قال يحيى بحماس: *إذًا فنفعلها قبل أن ينتهي مفعول حقنة المخدّر التي حقنته بها، فإن استفاق ولم نصلْ إلى شيء فلن نقدر عليه*

قال صفي: *حسنًا، ولكنّنا بحاجةٍ لوجود محبّ، وهو في الخارج الآن*

قال يحيي: *لماذا؟*

قال صفى: *يجب أنْ يحرس أكرم وأنت تراقب الثقب، بينما أقوم أنا بعملية التخاطر لأنها ستغيّبني عن الوعي تمامًا*

قال يحيى: *حسنًا، ولكنْ ألا يجبُ أن نزيح هذه اللوحة حتّى يبدو الثقب؟*

قال له صفي ناهرًا: *لا.. هذه اللّوحة لطالما راودتني في منامي لأيام حتّى شعرت أنها كما لو كانت تأمرني لأرسمها، كما ظهرت تلك الأسْهم على الأرض، فأدركت أنّ هناك شيئًا ما يحاول التّواصل معي، فعلمت أنّ هذا هو مكانها الذي يجب أن تبقى فيه.

وما أنِ انتهيت منها وتركتها لأدخلَ الخلاء، عدت لأجدها معلّقة هكذا، وخُيّل إليّ أنّ طيفًا هادئًا ومسالمًا من الأطياف النّقية لرجل خمسينيّ كان يقف أمامها، فاعتبرتها رسالة بأن تبقى في هذا الوضع*

وقبل أن يُتمّ صفي جُملته ظهرَ من خلفهما أكرم ممسكًا بسكينٍ حادّ، وأوّل مَن طالته يده كان يحيى؛ حيث كان الأقربَ من الباب فلوى عنقَه ونَحَرَه في الحال.

بينما حاول صفي مقاومته فغلبه مرّة وهُزِمَ مرّة حتّى استطاع أن يسيطر عليه لثوان ظهر فيها محبّ صديقهم الرّابع الذي عاد لتوّه إلى الشقة، وما أن وقعت عيناه على ما يجري حتّى ركض نحوهما وحاول تقييد أكرم، ولكنّه كان نحيفًا وضعيفًا للغاية، فتمكّن منه أكرم، أصابه بعدة طعناتٍ نافذة قبل أن ينحرَ عنقه، قفز صفي فوق أكتافه ولكمِه عدّة لكمات أضعفتْه واستطاع انتزاع السّكين من يده، ولم يجدْ بدًّا من طعنه، وكانت طعنة نافذة.

خرّ أكرم ميتًا، ولم يدرِ صفيّ بنفسه إلّا هو يمزق شرايين يده بلا رحمة حتّى سقط هو الآخر بجوارهم جثة هامدة.

***

شعرتْ آمنة بارتجاف جسدِ عاليا، وسمعت صوت أنّاتٍ مُرعبة تَصْدر منها، لم يكن صوتها بل صوتٌ آخر يخرج منها. رفَعَت آمنة رأسَها ورنتْ بنظرها نحْوها، فإذا بجسدها يرتفع عن السّرير متخلّصًا من قيوده، ويقف منتصبًا في الهواء.

كانت بشرتها مائلة للاسوداد، وعيناه مفتوحتيْن عن آخرهما، ورمقتها بنظرة قاتلة يتساقط من هوْلها اللّحم و الجلد عن العظم.

حاولتْ آمنة التّماسك، ولكنْ هيهات.. وها هي الآن حائرةٌ بين هدى الغارقة في اللاوعي وعاليا التي على وشك الانقضاض عليهنّ.

***

وصلَ مولانا إلى شقّة البنات، وتلا تعويذةً أخرى فتحتْ له الباب المغلَق، ثمّ توقّف قليلًا يختبر وجودَ الأطياف ومدى قوتها.

***

في تلك الأثناء، كان قد وصل فتح الله بالشّيخ رابح ومساعده أمام البناية، وأسرعا على قدر قوّتهما وسنِّهما الكبير، وما أنْ دلفوا إلى داخل البناية ووجدوا بابَ الشقة مفتوحًا، ومولانا يقف على عتبتها يتلو تعاويذ كُفريّة، حتّى قام الشيخ رابح بتلاوة وردِ الحفظ من السّحر والسحرة.

قائلًا بصوتٍ مرتفع: *أعوذ بكلمات الله وقدرتِه من شرّ ما أجد وأحاذر، أعوذ بكلمات الله من كلّ ساحرٍ فاجر، أعوذ بالله العليّ العظيم من كلّ شيطان مَريد، ومن كلّ ذي بطشٍ عتيد، أعوذ بكلمات الله التّامة من غضبه وشرّ عباده، ومن همزات الشّياطين أن يحضرون*

بدأ مولانا في فقْدِ السّيطرة على لسانه، وما يقول، وفشلت تعويذتُه، ولكنّ عاليا بالداخل لم تفشل..

* * *

غرستْ عاليا أصابعها في عنق آمنة التي انقطعَ صوتها من شدّة الاختناق وقد علت عن الأرض قليلًا من قوّة الرفع، كانت على وشك أنْ تلفظ أنفاسها الأخيرة لوْلا أنِ اسْتفاقت هدى من تلك الرّؤية التي لم تطلْ أكثر من بضع دقائق.

ونهضتْ على الفور لتدفع عاليا بقوّة، فأفلتت آمنة، واشتبكت مع هدى اشتباكًا ضاريًا فسُمِعَ صوتُ أنّاتهنّ المتبادلة بالخارج.

استطاع فتح الله سماعَها من بين الأصوات العالية المتبادلة بين الشيخ رابح ومولانا الذي ما انفكّ يقاوم أدعية الشيخ بالتّعاويذ، ويفشل ويعاود الكرّة من جديد حتّى تمكّن منه الشيخ ومساعده وأحاطاه بالكثيرِ من أدعية التّحصين، واللهُ غالبٌ على أمره.

تسلّح فتح الله بعصا مقشّة، ودلف إلى الممرّ مُنعطفًا نحو الغرفة الصّغيرة، وما أن وقعت عيناه على عاليا حتّى تبيّن له أنّها المقصودة، ورغم الرّوْع الذي نخر قلبه في الحال إلّا أنّه تذكر وصيّة سعد، أن يجعلها لله، فتحصّن باسْم الله، وباسْمه هوى على رأس عاليا فخرّت فاقدة الاتزان.

في اللّحظة التي أجهز فيها الشيخ رابح على مولانا الذي أُنهكت قواه فقدَرَ عليه مساعدُ الشيخ وبرَكَ فوقه حتّى يعثروا على ما يقيدونه به.

أسرعَ الشيخ رابح إلى حيث كان فتح الله والفتيات، وصرخ طالبًا حبلًا أو ملاءة، فلبّت آمنة التي تمالكتْ نفسها أخيرًا مطلبَه، ورافقته إلى الخارج، وبيدها القيدُ الذي تمكّنت عاليا من فكّه.

وما أنْ رأت مولانا، تذكّرته في الحال، فقالت إنّه رجلُ الإصلاحات، قال لها مساعدُ الشيخ بعدما التقط منها الحبلَ وشرعَ في تقييده: *بل هو ساحرٌ نجِس*

* * *

وصلَ النقيب زين إلى مكتبه بعد إتمام مأموريّته بالخارج، ليجد رسالة تركَها له العسكري الخاصّ به دُوّنَ فيها ما قالته هدى نصًّا، وما أنْ وقعت عيناه على العنوان حتّى كادت تنتئا من مقلتيهما، ولم يصطبرْ، وغادر مكتبه على الفور في طريقه إلى منزل ثريا.

* * *

كانتْ ثريا ملا تزال راقدةً على مقعدها جسدًا هامدًا، بينما روحُها تسيح في عالم الظلام الذي ألقاها فيه مولانا، تسبح في متاهةٍ مظلمة، لا ترى منها شيئًا، ترتجف من تلك التّأوهات التي تتبعثرُ حولها بين الفينة والأخرى لأرواح هائمة مثلها في عالم الضياع.

حتّى شعرت كما لو كانت تقترب من حافّة الهاوية لتسقط في براثن المجهول اللانهائي، ولمّا تقطّعت بها السبل، وأيقنت أنْ لا سبيل للنّجاة؛ صرخت، صرخت تستجيرُ بالله الواحد القادر المقتدر.. قائلةً بقلب تلاشَى منه الأمل إلّا من الله: *يا اااربّ، يا اربّ، وإنْ كنت عصيتك فأنتَ الغفّار، اللّهم إنّك تسمع كلامي، وتعلم مكاني، أنا البائسة الفقيرة المستغيثة المستجيرة، الوجلة المُشفقة المعترفة بذنبها، أسألك سؤالَ المسكين، وأبتهل إليك ابتهالَ المذنب الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضّرير، مَن خضعت لك رقبته، وفاضت لك عيناه، فبحقّ شدّتي وعثرتي وشتات أمري؛ أجِرْني، ما لي سواك، ومَن سواك يعفو عنّي ويرحمني!*

انقشع إربٌ من الظلام الأحوى، ولاح لها طيفُ امرأة لم تميّز لها ملمحًا من شدّة ضيائها كما لو كانت حورية من حوريّات الجنة، ترتدي الأبيض الفضفاض، تقف على صفحة بحيرة من ماءٍ عذبٍ تتلألأ قطراتُها كما لو كانت من لؤلؤ ومرْجان أبيض، تأخذ منها وتتوضّأ وتسبّح بحمد ربّها.

هرولتْ نحوها بلهفةِ التّائه الضّال، وقالت لها: *سيدتي، هل لكِ أن تدلّيني على الطريق؟*

لم تجبِ السيدة، وأكملت ما كانت تفعلُ وهي تسبّح بحمد ربّها، فأعادت ثريا نداءها مرّة واثنتان وثلاثة، وقبل أن تيأس جاءها الردّ دون أن تلتفتَ إليها قالت: *طريقُكِ قلبُكِ*

لم تفهمْ ثريا فقالت: *كيف؟*

قالت السيدة: *اتّبعي قلبَكِ*

قالت ثريا بيأس: *عُميت فما عدتُ أرى شيئًا*

قالت السيدة: *انظري بعينِ قلبك.. فعينُ القلوب لا تَعْمى.. ضعي يدَك على صدرك، وأنصتي لِما يرشدكَ إليه*

نكّست ثريا رأسها ووضعت يدَها على صدرها تتحسّس قلبها، لم تكن تشعر بنبضاته في البداية ولمّا اصْطبرت شعُرت بالنّبضة الأولى، ثمّ الثانية، ثمّ الثالثة والرابعة، والكثير.. الكثير من النّبضات المتتالية التي تسارعت أكثرَ فأكثر، حتّى وجدت نفسها تذوب وتتبخّر وتتلاشى.

ففتحت عينيها من الفزع، واتّسعت لما اتّضحت لها السيدة ومَن تكون..

كانت هي.. هي ثريا بنفسها، رائعة الجَمال في ريعان الصبا، تمنّت لو أنّها لا تغادر وتبقى، ولكن تبخّر آخر جزء فيها.

واستفاقت لتجدَ نفسها في شقتها مُلقاةً فوق كرسيها، فانتفضت وهرولت إلى غرفة مكتبِ زوجها رفعت، وراحت تبحث في الأدراج عن شيء ما.

* * *

شدّوا وثاقَ مولانا جيدًا وكمّموا فمه، وتركوه متكوّمًا في صالة الاستقبال، ثمّ توجّهوا إلى حيث هدى التي أصابها الوهن من شدّة ما عانته وعاينته طيلةَ المدّة الفائتة، وفتح الله وعاليا المتكومة على الأرض من أثر ضربته على رأسها.

أمرَ الشيخ رابح مساعدَه أن يحملها وينقلها إلى الغرفة الكبيرة القريبة من الغرفة الملعونة وبمساعدة آمنة تمّت العملية بنجاح، ثمّ أمرهما أن يقيّدانها جيدًا هذه المرة فلا تستفيق على حين غرة وتُفسد عليهم الجلسة.

كانت هدى مشوشة تمامًا وهي تحاول استعادة المشاهد التي رأتها عن صفي، وما قاله لصديقه عن الأرواح التّائهة في الثقب قبل أن يباغتهم *أكرم*.. كانت سارحة للحدّ الذي جعلها لا تشعر بكل ما يدور حولها، ولا بدخول الشيخ رابح الغرفة الصغيرة برفقة مساعده لإشعال أعواد البخور ذي الخواص السّحرية المميزة التي تضايق الأرواح الشريرة، وتبعدها عن المكان حتّى لا تتدخل في الأمر لأيّ غرض وتفسده أو تعطله.

ثمّ راح يقرأ آية الكرسي في جوانب الغرفة، ثمّ أخرج من حقيبته سائلًا أزرق ورسم به دائرة كبيرة في منتصف الغرفة، وحدّد على حدود الدائرة خمسَ نقاط لخمسة أشخاص، ثمّ قال: *إنّها دائرة الحماية، هيّا فلنبدأ على بركة الله، وليلتزم كلّ واحدٍ منكم بنقطة لا تتزحح قدمُه عنها.

ولكنّ هدى صرخت في اللّحظة الأخيرة قبل أن يلتفّوا جميعهم حول الدّائرة، وقالت: *لا يمكن أنْ نبدأ قبل أن نحرر روحها*

رمقوها جميعًا بنظرةِ استفهام، فقالت: *في الدقائق الماضية راودتني رؤية.. رؤية عن الشباب الأربعة الذين سبقونا في السكن وماتوا هنا أيضًا، وقال أحدهم إنّه قرأ الكثير من كتب السحر واكتشف في النهاية أنّ روح الممسوس تكون محتجزةً ولو تخلصنا من هذا الكائن قبل تحرير تلك الرّوح فستذهب معه ولن تعود، لا بدّ أن ترجع الروح للجسد الذي تنتمي إليه لتقاوم وتطرده من جسدها الذي يحتمي به*

قال لها الشيخ رابح: *ولكن يا بنيّتي لا وقت لديكنّ، إنْ تأخّرنا فلن ننجوا جميعًا من غضبته فالخسوف كما يُضعفه فإنّه يقوّيه، فرصتنا في هذه المدّة فقط وبعدها سيتعافى من وهنِه ويفتك بنا جميعًا*

قالت هدى بإصرار: *وأنا لن أتخلّى عن رفيقتي*

لم يجدوا بدًّا من الرّضوخ لرغبة هدى والتي راحت تبحث عن كتاب التخاطر الذي ذكره صفي في حديثه بين كومةِ الكتب ولم تجده، حتّى استفاقت آمنة من سهْوِها قائلة: *الكتاب بحوزتي*

قالت لها هدى باستغراب: *هل أخذتِه دونَ علمي؟*

قالت آمنة بخزي وتلعثم: *نعم، لقد شعرتُ نحوه بانْجذاب ولم أستطع منعَ نفسي من أخذه، حتّى أنّني.. حتّى أنّني قرأت فيه، و.. وطبقت إحدى طرقِه معك*

شردتْ هدى لوهلة، ثمّ قالت: *لذا أتيتني في منامي.. إذًا أنتِ تملكين تلك القدرة*

قالت آمنة بتعجّب: *أيّ قدرة؟!*

أجابت هدى: *قدرة التّواصل مع الأرواح الحيّة، أنتِ من يمكنكِ إنقاذ عاليا يا آمنة*

قالت آمنة بارتباك: *أ.. أنا، لا.. لا، لعلّها كانت مصادفة قدرية*

قالت هدى: *لا تُلقي الأقدار في طرقاتنا عبثًا يا آمنة، إنّ ما جعلك تنجذبين نحوه إنّما هو رسالة مرتّبة ترتيبًا ربّانيًّا، ولا يجب أن يتجاهل الإنسان تلك الرّسائل أبدًا*

لم تدرِ آمنة بماذا تجيب، لم تكن تصدّق أنّ الله قد منّ عليها بقدرةٍ خاصّة، لم تكن قد اكتشفت ميزتَها حتّى تلك اللحظة، دائمًا ما كانت ترى نفسها فتاةً أقلّ من العادية، عديمة المواهب وعديم الجدوى، قليلة الذكاء والمهارات، حتّى أنّها كانت ترى نفسها قليلة الدين والالتزام، ولم تتخيل يومًا أن الله قد يصطفيه ويمنحها موهبة خاصّة.

(لم يُخلق أيّ منّا عبثًا، وإنّما العبث الحقّ أنْ يظنّ الإنسان أن لا معنى لوجوده في تلك الحياة ويفنيها في اللاشيء، يبعثرها هباء، يبدّد طاقته التي يمكنه استغلالها لإحداث الكثير من الخوارق والتي لا تنتظر من صاحبها سوى أن يكتشفها ويستغلّها، وهذه مَلَكة منحها الله- سبحانه وتعالى- لجميع خلقِه على اختلاف ديانتهم ودرجات التزامهم، ولكنّ القليل منهم مَن يتنبّهون لها)

أعطتْ آمنة كتاب التّخاطر لهدى، التي راحت تبحث عن الطريقة المثلى التي سيتعين على آمنة القيام بها للتواصل مع الأرواح الحية التائهة.

كانت الدقائق القليلة تمرّ على الشيخ رابح بثقل وكأنّها ساعات طويلة، ولا ينفك يتطلع في السماء بين الفينة والأخرى يتابع مراحلَ الخسوف الذي بدأ بالفعل.

***

بينما ثريا بالعلية قد عثرت على ضآلتها أخيرًا، فارتمت على مقعد المكتب وهي تزفر زفرة الارتياح بعد العناء البئيس.. مسحتْ عن جبينها ذرّات العرق التي تكوّمت فوقه، وراحت تقرأ تلك الوريقات بدفتر زوجها الصّغير، والذي

دَوّن عليه كلمة مذكراتي، وراحت تبحث عن مبتغاها فيه.

عثرتْ هدى أخيرًا على الطريقة المُثلى، وطلبت من آمنة أن تتمدّد بجوار عاليا الغارقة في اللاوعي.

قاومت آمنة كثيرًا شعورَ الخوف تجاهها، خاصّة وأنّ جسد عاليا أصبح أكثر اسودادًا بعروقٍ بارزة شديدة السواد.. اعتلت آمنة السرير وهي ترتجف فحثّتها هدى على أن تتماسك؛ فالأمرُ يحتاج إلى صفاء ذهن وهدوء نفس.

وبعد أن تمدّدت طلبت منها أن تحاول إفراغَ رأسها من كلّ الأفكار التي تحتشد فيها، وأن تتنفّس عدّة أنفاس هادئة، تدخل من الأنف وتخرج ببطء من الفم.

ثمّ سألتها: *بمَ تشعرين الآن؟*

أجابت: *لا شيء*

فطلبت منها أن تعيد الكرّة، ومرّة ثمّ مرّة حتّى بدأت آمنة تشعرُ بالخدر البسيط، وأنّ شيئًا من البرودة اجتاح بدنها، ثمّ سمعن صوت هدى تقول: *تخيّلي الآن أنّ أمامك جسرًا زجاجيًّا... ثمّ تخيّلي عاليا تقف على هذا الجسر بعيدًا... تخيّلي أنّكِ ترينها من بين حاجبيك فالطّاقة الروحية تكمنُ في هذه النّقطة... أرسلي لها كلمة واحدة بعقلك لا بفمك... أخبريها أن تعود*

كانت آمنة تحاول أن تفعلَ ما قالته لها هدى، ولكنّها لم تتمكّن من تخيّل أيّ شيء، كانت الرؤية أمامَها سوداء معتمة، ثمّ مشوّشة، ثمّ تزاحمت فيها بعضُ المشاهد المرعبة التي رأتها اليوم، سمعتْ صوت هدى يأتيها من جديدٍ تقول: *آمنة.. لا تبتعدي عنّي.. أنصتي إليّ مجدّدًا.. تخيّلي الجسرَ الزّجاجي يا آمنة*

ولكنّها لم تستطع، وشعرت باختناق غريب، وبرودة مخيفة فاستفاقت وهي تقول: *لا أستطيع*

لتجدَ نفسها في قلب ظلامٍ بهيم، ولا شيء ولا أحدَ حولها، فجحظت عيناها وتسمّرت أوصالها، ثمّ سمعت صوت هدى يأتيها من مكان قريبٍ كالصّدى تقول: *آمنة.. تخيّلي الجسر الزجاجي ولا تبتعدي عنّي*

راحتْ آمنة المشدوهة تتلفّت يمينًا وبسارًا في قلب تلك العتمة الموحِشة وهي تقول: *لا أرى شيئًا، لا أرى شيئًا*

ويبدو أنّ هدى لا تسمعها، فجاءها صوتُها يقول: *آمنة يجب أن تتخيّلي الجسر ليظهر، اهدئي ولا تتوتّري؛ فأنتِ تستطعين إذا أردتِ، ثقي بنفسك وما منحَه الله لكِ من قدرة*

أيقظتْ كلمات هدى بداخلها الهمّة، وأشعلت فيها الحماس، فتمالكت نفسَها ووقفت ثابتة تستجمع قوّتها، وتستدعي قدرتها، أغمضت عينيها وراحت تتخيّل

وجود جسرٍ أمامها، كثّفت كامل خيالها وجُلّ تركيزها على استحضار الجسر، ثمّ فتحت عينيْها ببطء على إثر شعورها بنسمة هواء خفيفة للغاية لفحت وجهها.

فتراءى لها جسرٌ في جوف الظلام الذي تبدّد القليل منه، ولكنّ المكان مازال معتمًا، فجاءها صوتُ هدى مجدّدًا تقول: *تخيّلي عاليا تقف على الجسر*

فعادتْ تصبّ كامل تركيزها على استحضار صورةِ عاليا، فظهر ظلّ معتمٌ خفي الملامح على الجسر من بعيد.

استبشرت وشعرت بدنوّ النّجاح، ثمّ سمعت صوتَ هدى تقول: *ركّزي على منطقة منتصف جبهتك، وأطلقي منها طاقة التّواصل الرّوحي، وأبلغيها كلمة واحدة (عودي)*

نفّذت آمنة الأمر، وراحت تكثّف تركيزها من جديد على منطقة منتصف الجبهة وعلى الكلمة التي تريد إيصالها.

فرأتِ الظلّ يهزّ رأسه بالموافقة من بعيد.. طلبتْ منها هدى بعد ذلك أن تقطع التواصل في الحال، وألّا تنتظر وتركّز على الاستفاقة.

وكادت آمنة تفعلُ لوْلا فضولها الذي جعلها تتأنّى قليلًا في تلبية أمر هدى، كان الظلّ أمامها مازال واقفًا في حالة ثباتٍ مثير وغامض، فتقدّمت آمنة خطوة وسمعت صوت هدى يقول بجديّة: *آمنة، عودي في الحال*

ولكنّها لم تستجب، وتبعت فضولَها، وأخذت خطوةً إضافية للأمام، فجاءها صوتُ هدى يأمرها بجديّة أقوى قائلة: *آمنة، استفيقي*

ولكنّها خطتْ خطوة جديدة نحو الظلّ، وفجأة اتّضحت ملامح ذلك الظلّ..

وجهٌ شيطانيّ تنخلع من بشاعته الرّوح، بدا كما لو كان محترقًا بجلد متهدّل، يكاد يسقط من فوق عظامِه، وعينان بارزتان تكاد تسقط من محْجَريهما، وفمّ مشقوق حتّى الأذنين، ثمّ ابتسم لها هذا المخلوق البشع ابتسامة كشّرت عن أنيابه الخفيّة، وسمعت صوت عاليا يخرج منه تقول: *إنّه يلتهمني يا آمنة، أنقذيني.. أنقذيني*

كادتْ روح آمنة تغادرُ للأبد من قسوة الانذِعار، خُلِعَ قلبها حتّى كادت تتوقّف نبضاته، وشعرت بارتجافة عنيفة تجتاحها وأنّها تُسحب إلى مكان بعيد.

***

عثرتْ ثريا على السطور التي كانت تبحث عنها، وراحت تقرأها وتحفظها وتعيد وتزيد في قراءتها وحفظها حتّى لا تنسى منها شيئًا، ولم يكنِ الأمر باليسير.

***

أمّا مولانا المقيّد فوق كرسي بصالة الاستقبال، فقد كان هو الآخرُ يلعب لعبة التخاطر نفسها ولكنْ مع كائن آخر..

***

أنقذت هدى آمنة في اللّحظة الأخيرة وهى تهزّها بقوّة وعنف حتّى تستفيق، فانتفضت آمنة عائدة إلى واقعها وهي تشهق شهقةً عالية وعميقة، ثمّ هدأت فور ما رأت وجه هدى أمامها.

كان وجهُها منفرجًا وهي تدعوها بنظرها أنْ تلقي نظرة على عاليا التي انقشع الاسوداد عن وجهها، وعادت إلى شكلها الطبيعي.

أدركت آمنة أنّ العملية قد تمّت بنجاح، وأنّها قامت للتّو بمنح إنسان عزيز فرصة جديدة للحياة بفضل الله، والتي لطالما كانت وظيفتُها كممرّضة، الوظيفة التي لم تتفاخر بها يومًا، ولكنها باتت الآن فخورةً وجدًّا.

لم تتزحزحْ عينا الشيخ رابح عن مراقبة الخسوف الذي انقضى منه الكثير، وما أن أبلغته هدى أنّ الأمر أصبح على ما يرام وأنّهم جاهزون، حتّى أسرع بهم إلى الغرفة الصغيرة ووجّه كلّ واحدٍ منهم إلى النقطة التي يجب عليه الوقوف فيها، وتركوا مولانا، وعاليا كلّ في مكانه وبمفرده.

شرعَ الشيخ رابح في قراءة تعويذة الصّرف بعدما أشعل مساعده البخور ووضع بجواره كتاب السّحر حتّى يتلو منه الشيخ التعويذة، ثمّ اتّخذ موقعه هو الآخر، وعلى صوت الشيخ وهو يفتتح الجلسة قائلًا: *بسم الله ذي الشأن، عظيم البرهان، شديد السّلطان، أعوذ بك من كلّ مارد وشيطان، وأستعينُ بك على كلّ ذي شرّ من جنّ أو إنسان....*

وصار يدعو الله على هذا النحو..

بينما مولانا في الخارج يتواصل مع ماردخاي عن طريق التّخاطر ويمنحه من طاقته الحية حتّى يساعده على فكّ قيده واستعادة قوّته لتبدأ معركته معهم.

بعد لحظات استجابَ له ماردخاي الذي بات في أقسى حالات ضعفه وفكّ قيده بوهن شديد، فقام مولانا بهدوء وترجّل خطواته بخفّة اللصوص، ودلف إلى غرفة عاليا في اللحظة التي طلب فيها الشّيخ رابح منهم أن يغمضوا أعينهم ويصبّوا كامل تركيزهم ورغبتهم على غلق الثقب.

اقترب مولانا من عاليا النّائمة في طمأنينة وتحسّس وجهها وهو يتلو عليها كلماته الطّلسمية فانفكّ قيْدها المتين، ثمّ نفخ في فمها، ففتحت عيناها، وبدا لها في هيئةِ ماردخاي الملائكية الجذابة التي عشقتها، اعتدلت كالمأخوذة من شدّة الوَلَه، وتحسّست وجهه في هيام شديد وهي تنظر في عينيه بعمقٍ تكاد لا تصدّق أنّها تستطيع لمسه أخيرًا.

وقالت له: *أنت بخير؟*

قال: *على وشك الموت يا عاليا، ولن تريني مجدّدًا*

هزّت عاليا رأسها بعنفٍ رافضةً الأمر، ثمّ قالت: *لا، لنْ أدعهم يمسّونك بسوء، لن أسمح لهم بذلك، لن يقدروا*

قال لها بعينين دامعتين كدموعِ التّماسيح: *بل سيقدرون، إنّهم في الداخل يفعلونها*

نهضتْ عاليا بهدوء من مرقدها وهي تمسك بكتفيه، وتقول باغتياظ غضوب مكتوم: *سأقتلهم جميعًا*

تسلّلت من غرفتها للغرفة الصّغيرة بسرعة البرق، والتقطت السّكين الذي أفلتته في المعركة الأخيرة مع هدى، ثمّ كادت تباغتهم جميعًا، لوْلا تلك اليد التي أمسكت بها من الخلف ولوت ذراعَها التي تحمل السّكين فأسقطتها وتكميمها وإحكام السيطرة عليها.

كان هذا هو النقيب زين الذي وصلَ للتّو ودخل من باب الشقة الذي تُرِك مفتوحًا، فهاج ماردخاي في جسد مولانا الذي لم يجد بدًّا من الهجوم بنفسه عليهم في الغرفة، وإفساد سير جلستهم.

طاحَ في الجميع، وأطاح بالشيخ رابح المسنّ ولكمَه لكمةً عنيفة أسالت من أنفه الدماء التي امْتُصت في الحال، وكانت كشربةِ ماء روت ظمأ ماردخاي.

بينما ذعرت هدى وآمنة فتنحّيتا جانبًا وانْكمشتا في ركن الجدار، واحتمى العمّ فتح الله بركن الغرفة المقابل، ولم يتصدّ لمولانا سوى مساعد الشيخ رابح.

ولضعف جسده وشدّة نحوله لم يستطعْ مغالبته وتمكّن منه مولانا وأجهز عليه بعد صراع قصير، وسقط الشاب قتيلًا..

ثمّ توجّه نحو الشيخ رابح الذي كان يجاهدُ من أجل التماسك ليلقي عليه تعويذة تضعفه، ولكن مولانا لكَمَه بقوّة أكبر حتّى سال الدّمُ من فمه، وكانت وجبة أخرى خفيفة ماردخاب الكامن في جسد مولانا.

أمّا النقيب زين فقد تمكّن من عاليا واستطاع ضربها بقوّة على رأسها، ولكنّها لم تفقد الوعي بل صارتْ ضعيفة لا تقوى على الحركة، واستسلمت لضعفها ووهَنِ جسدها، وسقطت على الأرض فحملها إلى غرفتها، وركض لإنقاذ مَن بالغرفة.

ولكنّه وصل متأخّرًا بعد وفاة الشّاب الصغير، ثمّ انقضّ على مولانا الذي زادت قوته، فطرحه الأخيرُ أرضًا، والتفّت نحو اللوحة وشعر بأنّ الثّقب خلفها يتّسع ليبتلعه فتعويذة رابح كانت قد آتتْ أُكُلها منذ قليل، ولم يتبقّ لها كي تنجح سوى كلمات قليلة، يناضل الآن الشيخ رابح لتلفظها.

تعافى زين سريعًا، وقام مرّة أخرى لمواجهته فتصارعَا صراعًا عنيفًا، ووجد

فتح الله الفرصة كي يلتقط كتابَ السّحر ويبادر هو بإلقاء الكلماتِ الناقصة من التعويذة حتّى يبتلع الثقب ماردخاي.

وما أنْ تفوّه بها، حتّى قَدِر مولانا- بقوّة ماردخاي- على النقيب زين، وطرحه أرضًا بقوة، ثمّ التقطت الكتاب من يد فتح الله، وكاد يلكمَه لكمةً قاتلة، لولا أنْ أمسك زين بقدميه فذُلت وتعثّر.

كان الثقب يتّسع أكثرَ وأكثر، وبدا كالفم الكبير المفتوح المتجسّد من خلف اللوحة يبحث بشبق عن فريسةٍ ليبتلعها، وكانت الأقرب اليه هي آمنة المشغولة بمتابعة القتال الدّائر بين مولانا وزين، وكادت الفم تبتلعها لوْلا أن استعاد فتح الله صوتَ سعد في أذنيه وهو يقول له: *اجعلها لله يا فتح الله*

و لم يتردّد فتح الله في فداءِ الفتاة بنفسه، وأبعدها في اللحظة الأخيرة من أمام الفم الذي ابتلعه هو بدلًا منها، وتلاشى بداخل الثّقب في الحال.

ومازال القتالُ الضّاري مستمرًّا بين النقيب ومولانا، ولم تجدْ هدى حلًّا سوى أن تحاول التسلل من خلفهما لتأتي بشيء تطعن به هذا الوحش لمّا شعرت أنّ زين على وشك أن تخور قواه.. أمّا آمنة فجثت على ركبيتها تبكي رحيل العمّ فتح الله بقلب مفطور.

وبينما كانت تمرّ بجوار غرفة عاليا، رنتْ بنظرها نحوها لترى ما لا يصدّقه عقل رغم كلّ ما مرّت به، وما عاينته من أمور خارقة، ومشاهد مُهلكة، ولكن هذا المشهد كان مختلفًا تمامًا.

تحوّلت الغرفة إلى ما يُشبه كهفًا به ثلاثةُ ممرّات، دلفت هدى للغرفة بخطوات متردّدة، ولكن ما دفعَها للاستبسال رغبتُها في العثور على صديقتها التي اختفت منها، صديقتها التي تتجسد أمام عينيها الآن ذكريات طفولتها ومراهقتها وشبابها معها، والتي لا تحتمل فكرةَ غيابها أو اختفائها ولا يمكن أن تتخلى عنها مهما تورّطت في متاعب شتى.

راحتْ هدى تنادي عليها وتتلفت يمينًا ويسارًا ولا تجدها، ثمّ سمعت صوتها في أذنيها تقول: *لقد اختطفني يا هدى، أنقذيني*

اشتعلت الدماء في عروقها، واتّقدتِ النيران في قلبها، واقتربت من الممرّات الثلاثة بقلب جريء، ولكنّها وقفت متحيرة، أيّ ممرّ يجب عليها أن تسلك؟!

كان الخسوفُ قد أوشك على الانتهاء وسيقفلُ الثقب ويبقى ماردخاي إلى ما شاء الله، بل وستزداد قوته ويهلكهم جميعًا، ولن يبقي على أحد منهم حتّى عاليا.

فدعتْ ربها واستجارت به، دعتْه كما لم تدعوه من قبل بقلبٍ ينزف وجعًا، وطلبت منه أن يكشف لها فتتبع الطريق السديد.

وهنا.. ارتسم أمامَ عينيها المشهدُ الأول في مدخل البناية حينما كن يتساءلن فيما بينهن عن شقة السيدة ثريا وأيّهما تكون، وظهر لهنّ ذلك الرجل الغريب فجأة، وقال لها بنبرة بطيئة وعينين ثابتتين: *أمامك مباشرة، فلا يوجد يمينٌ ولا يسار، حتّى وإنْ بدا لكِ أنّ هناك مدخليْن على الجانبين فهُما وهميان، المدخل الوحيد ستجدينَه أمامك مباشرة*

فاستعانت بالله، ودلفت للممرّ الأوسط الذي كان أمامها مباشرة، كان مُعتمًا وباردًا، راحت تنادي على عاليا التي لم تُجب، حتّى وصلت إلى نقطةٍ قريبة من صوت بكاءٍ مكتوم، ولما اقتربت تبدّد القليلُ من الظلام، وتجلّت لها عاليا تجلسُ القرفصاء وتبكي، وما أنْ رأتها حتّى ركضت تحتضنُها، وارتمت الأخرى بين ذراعيها كالتي وجدت أمّها وأمانها.

مسحتْ هدى على رأسها تطمئنُها وتقبلها، ثمّ قالت: *استغفر ربّك يا عاليا ليتوبَ عليكِ وينجيكِ ممّا أنتِ فيه، استغفري ربك واعْقدي العزمَ على أن تعودي لأمك، وتقبّلي يدها وقدميها وأنتِ راضية بأمر الله عندما اختارَ والدك عنده في جواره المكرّم، استغفريه وتراجعي عن ظنّك الآثم بأنه ظلمك، فكلّنا أموات أبناء أموات يا عاليا*

بكتْ عاليا بكاءً حارًّا ثمّ رفعت رأسَها وقالت بصوتٍ ذليل: *يا ربّ، يا ربّ، إنّي أستغفرك وأتوبُ إليك؛ فاكْشف عنّي تلك الغمّة*

وما أنْ قالتها حتّى تلاشى الظلامُ كلّه، في الممرُ، ثمّ الكهف، وعادتا إلى الغرفة وبدأ نور القمر في البزوغ مجدّدًا، وبدأ الخسوف في الانتهاء، فامتلأت عينُ هدى باليأس والهمّ والاستسلام للهزيمة بعد كلّ ما واجهوه وتكبّدوه من مشاقّ وتعب.

***

غلب مولانا النّقيب زين، وأحاطَ به في زاويةِ الغرفة، ومازال الشيخ رابح راقدًا بوهن لكبَرِ سنّه لا يقوى على الحراك رغمَ محاولاته العنيفة والمستمرّة للزحف نحو الكتَاب لإكمال التعويذة.

وكاد مولانا يُجهزُ على زين لوْلا ذلك الصّوت الذي اسْتوقفه فجأة.. فأفلتَ زين في اللّحظة الأخيرة، والتفتَ لمصْدر الصّوت فإذا بها ثريا تقفُ أمام اللوحة تقول: *بحقّ ملك النار والنورِ أقسمتُ عليك يا ماردخاي أن تخضع، بحقّ الواحد القهار أقسمت عليكَ أن تخشع، بحقّ مالك المُلك أقسمتُ عليك أن تجزع، بحقّ خالق الأكوان والسّموات السبع والأراضين السّبع أقسمت عليك أن تعود إلى شقّ الدّود، وترحل*

ثمّ راحت تتلو آية الكرسي سبعَ مرّات، وفي كلّ مرّة كان مولانا يضعف وتتلوّى عظامه وتتكسّر وتخور قواه وينهار ويُصرع.

حتّى خرج منه ماردخاي بهيئته البشعة الكريهة المُرعبة، وراح يهيج في الغرفة ويتخبّط في الجدران بهستيريا وجنون حتّى سقط على الأرض وتقلّص حجمه واتّضح حجمه الحقيقي، أقلّ من الحشرة وأقذر منها.

ابتعدَ كلّ من آمنة والشّيخ رابح عن اللوحة التي تجسّد الفم مجدّدًا من خلفها، في اللحظة التي كانت هدى تقتاد فيها عاليا نحو الغرفة ليتابعَا الأمر، وشاهدت ماردخاي في حجم الفأر في هيئته القذرة الحقيرة.

وصرخَ الشيخ رابح في ثريا أن تتوقّف فإنّها لن تحتمل، ولن يُكمل بعدها أحدٌ من دمها، وكأنّها لم تفعل شيئًا، ولكنّ ثريا أصرّت على أن تُكمل، وتجلّت الأطياف حولها في حُلّة مبهرة مستبشرة مطمئنّة رفعت، جورج، سعد الحارس، إيفون، الرجل وزوجته وطفليهما والشباب الأربعة ورأوْهم جميعًا؛ فدُهشوا وغشِيَهم الصّمت.

ولمّا انتهتْ ثريا استدارت لهم، وبات ظهرُها للّوحة، ثمّ قالت للشيخ رابح: *لم أكنْ زوجة رفعت فقط؛ بل ابنة عمّه أيضًا، من عصبه ودمِه*

ثمّ ابتسمت ابتسامة مودّع، ومالت بظهرها للّوحة فأصبحتا شيئًا واحدًا، وبدأ جسد ثريا يتبخر كأنّ الظلام يأكل أحشاءها شيئًا فشيئًا ويتفتّل منه الدم مع آخر لحظات الخسوف، وكانت نظرتها الأخيرة ضاحكة رغم الدّموع التي ملأتها وغابت ثريا.. غابت إلى الأبد وصدقت وعدها مع زوجها يوم اصطفّت نجمتها التي انْطفأت، وها هي الآن تلمع في السّماء من جديد بجوار نجمة رفعت.

وتلاشتِ الأطيافُ بعدها، وتلاشت صورةُ والد عاليا الوهميّة، وتبخّرت، وأغلقَ الثّقبُ بعدما الْتهَم ماردخاي إلى حيث لا رجعة، ولملمَ الجميع شتاته، واحْتضنت الفتياتُ بعضهنّ باشتياق وألمٍ يخالطه الفرح بالنّجاة أخيرًا، والخلاص من هذا الكابوس البَشع، ونهضَ زين وساعدَ الشيخ رابح على النّهوضِ، وسحبوا جثمانَ الشّاب الذي بكاه الشُيخ بحرقة، وغادروا الغرفة التي أغلق بابُها للأبد.

تمّت بحمْد الله

***